روايات الهلال

١٩٥٢

جميل عطية إبراهيم





الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة

** شهر أغسطس 2017 **

www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمي

تصدر عن مؤسسة دار الهلال

العدد ٤٩٩ يوليو ١٩٩٠
ذى الحجة ١٤١٠ هـ
No. 499 Jul. 1990

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة
عبدالحميد حمروش

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

سكرتير التحرير
محمود قاسم

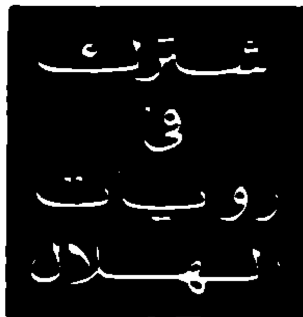
● الاشتراكات ●

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية واحد وعشرون جنيها ، وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان سبعة عشر دولارا أو مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم خمسة وعشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية . وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عاليه عند الطلب .

اسعار البيع للعدد ٤٩٩ فئة ٣٠٠ قرش :-

لبنان ١٠٠٠ ليرة الاردن ١ دينار الكويت ٨٥٠ فلس العراق ٢ دينار السعودية ١٠ ريالات الدوحة ١٠ ريالات دبى ١٠ دراهم ابوظبى ١٠ دراهم مسقط ١ ريال غزة والضفة ١,٧٥ دولار البحرين ١٢٠٠ فلس لندن ٢ جك .



الكويت : السيد عبد العال بسيونى زغلول الصفاة - ص. ب رقم 13079 ٢١٨٣٣ - تليفون - ٤٧٤١١٦٤

للحصول على نسخ من روايات الهلال اتصل بالتلكس : 92703 HILAL. U. N.
Fax : 3625442.

الادارة دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب - القاهرة
تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط .

الغلاف بريشة الفنان :
حلمـــــى التونـــــى

١٩٥٢

بقلم

جميل عطية إبراهيم



دار الهلال

(١)

عزبة عويس غارقة فى « صفار شمس العصارى » وقد خفت حركة البيع والشراء فى سوق الخميس وتفرق الخلق فى دوائر وحلقات . حلقة من الخلق حول الرفاعى المخاوى للثعابين وهو يرقى الشباب ويأخذ عليهم العهد بعدم ايذاء صنف الثعبان والحية . وحلقة أخرى حول صندوق الدنيا وقد تسمر ستة من الصبيان والبنات على الدكة وأسدلت على رؤوسهم ستارة سوداء وعيونهم تحدق فى العيون والصور الملونة تجرى أمامهم ملهبة لخيالاتهم ومبددة للخمول الذى يصيبهم طوال الاسبوع .

يستمعون الى أصل الحكاية ويرون أبطالها كل سوق خميس مقابل ثلاثة مليمات يجمعونها فى صبر ، ويحرصون عليها ويعطونها للعجوز عن طيب خاطر .

من يناول منهم العجوز قرش تعريفة يندفع الى الدكة ويسمر مقعدته عليها ويزعق :

ــ النكلة يا عم .

ويدير العجوز شريط الصور الملونة :

أصل الحكاية « اللى بنى مصر كان فى الأصل حلوانى » ــ الامير بهريز بن شهرمان اصطاد القرد المسحور بسهم مسموم فى ساعة معلومة من نهار ميمون ، فلما فتح بطنه وأخرج مصارينه ليحنطه ويعلقه على باب قصره فى فم الخليج ، خرج له مارد جنى وخر ساجدا بين يديه قائلا :

ــ أنقذتنى من العذاب يا ابن آدم « شبيك لبيك عبدك وملك يديك . »

قال له الامير بهريز بن شهرمان :

ـ آتنى بكنوز قارون والفراعنة ٠

ـ كنوز الفراعنة مسحورة وليس لى بها قبل ـ آتيتك بكنوز قارون فاصعد الى القلعة واقتل السلطان وتسلطن ٠

فصعد الامير بهريز بن شهرمان الى القلعة فى مائة من الفرسان راكبى الخيول وقتل السلطان واستولى على جواريه وغلمانه وتسلطن مائة عام ٠٠ » ٠

ومنذ الغاء المعاهدة يقول الراوى وهو يدير صندوق الدنيا :

ـ « الى بنى مصر كان فى الاصل فدائى ، واصطاد رفعة مصطفى النحاس باشا القرد المسحور بسهم مسموم فى ساعة معلومة من نهار ميمون فلما فتح بطنه وأخرج مصارينه ليحنطه ويعلقه على باب قصره فى « جاردن سيتى » خرج له مارد جنى وخر ساجدا بين يديه قائلا :

ـ انقذتنى من العذاب يا رفعة الباشا ٠ « شبيك لبيك عبدك وملك يديك ٠ »

قال له رفعة الباشا مصطفى النحاس باشا :

ـ آتنى بأسلحة لمحاربة الانجليز ٠

فغاب المارد الجنى قليلا ثم عاد قائلا :

ـ آتيتك بأسلحة يا رفعة الباشا ٠ فقم الى القناة وأخرج الانجليز باذنه تعالى ٠

فنادى رفعة الباشا صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا على وزيره قائلا :

ـ وزع السلاح يا فؤاد باشا على الخلق واتبعنى ٠ »

ويهلل الواقفون ينتظرون دورهم لرؤية الصور الملونة وهى تتحرك ، ويدفعون الجالسين الذين تسمروا فى جلستهم على الدكة يطلبون المزيد من الرواية ، ويتعالى الصياح والهرج : يا عزيز يا عزيز « كبة » تاخد الانجليز ٠

كبار التجار يشغلهم موضوع اقامة مصنع المعلبات الذى ينوى الباشا اقامته فى الناحية لتعليب الخضراوات والفاكهة . بعضهم يؤكد أن الباشا قد اتفق مع الانجليز على توريد الماكينات ، والبعض الآخر يعارض قائلا :

ـ الباشا اتفق مع الامريكان .

والمزارعون من أهالى عزبة عويس يستمعون اليهم ويتوجسون شرا خوفا من استيلاء اللواء عويس باشا على المساحات القليلة من الاراضى المتبقية لهم كنتوءات صغيرة وسط زمام الباشا لاقامة المصنع عليها . والاجراء يتلقفون الخبر وعلى وجوههم البشر فالمصنع سوف يوفر لهم فرص العمل بعيدا عن الزراعة . أما أصحاب المهن الهامشية التى لا تغنى ولا تسمن فلا يشغلهم موضوع اقامة المصنع بالمرة ، فليست لديهم أراض يخافون عليها أو مهن يسعون لممارستها .

أما أبناء المدارس والافنديات أكثر الناس شوقا لاقامة المصنع للعمل ككتبة ، فيقتربون من الاعيان ، وكبار التجار ، يتسقطون الاخبار .

لكن عكاشة المغنواتى ليس لديه ما يخاف عليه من الفقدان ، وليس فى جعبته ما يسعى لتحقيقه أو يحلم به أكثر من قوت يومه . شاهد سيارة الباشا تقدم مبكرة عن موعدها فتوقع شرا . تلقف الاهالى الخبر كحدث سياسى يضاف الى أخبار الفدائيين فى منطقة القنال . واختلفت تكهناتهم ، فمن قائل ان عويس باشا قد تولى الوزارة ، وقائل انه قد قدم ليعد العدة لمحاربة الانجليز واخراجهم من البلاد ، ولا سيما وقد نشرت صورة زوجته الاميرة شويكار وهى تتبرع بدمائها للفدائيين ، وقائل انه قد قدم من أجل الاستيلاء على أراضى الفلاحين لاقامة مصنع المعلبات .

لم يصدق عكاشة هذه الاقوال ، وأحس بالقرف من طبقة الاعيان وكبار التجار وانطلق بعيدا عنهم الى حلقات الذكر .

دقات الدفوف تتلقفه فيميل وسطه وينطلق لسانه بالدعاء الربانى

وهو يصفق ، ويتصبب العرق من وجهه السـمين ، ويترنح فيرمى له الباعة بسقط الفاكهة ليطعم الثعابين التى تتلوى فى بطنه · دار طوال اليوم فى السوق وتنقل بين أركانه · استمع الى شـجار نسـوة ومساومات بائعين · طيب خاطر محتاجين بكلمات طيبة · حصـل على كسرات من الخبز الناشف وبضع سـمكات من السردين المملح وعدة عيدان من البصل الاخضر · فرغ أشولة ، وحمل عربات كارو · وقف فى حراسة حمير هائجة · أطعم بغالا نحيلة · استمع الى الجميع حتى انتفخ رأسه بالحكايات ·

انطلق صوته فى البداية خافتا ، لكنه سرعان ما تخلص من وجله نسى جوعه وعلا صوته الرفيع المنغم بالمواويل وهو يصفق ويدور حول نفسه وقد ضاقت به الدنيا الواسعة بعد أن استقرت الثعابين فى بطنه وأصبحت تشاركه طعامه وتمصه منه قبل أن يبر به جسده :

يا ليل يا عين ، قلبى عشق بنت بيضا بتملا والغروب نازل
والشعر المهدل على النهود نازل
حطيت ايدى على السرة وأنا نازل
قالت الجميلة شيل ايديك يا جدع
لتموت قتيل المحبة والغروب نازل ·

ومن حين الى آخر يتوقف عن الغناء ليمسح عرقه متلفتا حـوله قائلا :

ـ لقمة ناشفة يامحسنين ·

فيضحكون منه ساخرين · فهو بطين لا يشبع وقد تلبسته العفاريت فيسبهم قائلا :

ـ ظلمكم من ظلم عويس باشا ··

عكاشة لا يعرف على وجه الدقة مظالم الباشا ، لكنه كلما قرصـه الجوع وتلوت الثعابين فى بطنه تعضه ، زاد اعتقاده بأنها مظالم فظيعة فقد جلد كرامة ابن السقا بالسوط السـودانى بيده مائة جلدة على

ظهره ، حتى الطيور لم تسلم من ظلمه ، فقد شــوى البغبغــان حيا بريشه وأكله ، وذبح القرد المســحور وسرق كنــوز الناحية ونهب الاهرامات .

فاذا رمى له أحدهم بلقمة أو خيارة ، عاود رأيه فى المسألة برمتها وانطلق صوته مغنيا : « واللى بنى مصر كان فى الاصل حلوانى . »
ويكون بذلك قد حسم القضية وأراح نفسه من التفكير فيها .

(٢)

أقبل سرحان السـقا على الخلق قادما من ناحية الغيطان يرتدى ملابس الدراويش الزاهية ، وفى يده حمامة مربوطة ، وهو يصيح :

ــ شوى عويس باشا البغبغان وأعاده من يعيد الحياة •

هنا يقرب الحمامة الى صدره ويصيح :

ــ درويش في أرض الله ومجذوب الى نوره •

سمعه عكاشة من بعيد ، فوقع قلبه ، وقال وهو يفك الحـزام عن وسطه ويتوقف عن الغناء :

ــ ليلتك سوداء يا حضرة العمدة •

ها قد وقع ما توقعه ساعة أن رأى عربة البـاشا قادمة مبكرة عن موعدها ، ووقع المحظور ، فالباشا ينعم فى هذه الساعة فى قصره براحة البال واذا علم بعودة سرحان السقا الى العزبة ، عبط العمدة وعلقه فى الجميزة كما ربط كرامة ابن السقا وجلده •

« جاءك الموت ياتارك الصلاة » ، وتبعثرت حلقات الخلق واختلطت ببعضها ، وترك المتشبثون بمقاعدهم أمام صندوق الدنيا أماكنهم ،وجروا جميعا نحو سرحان السـقا وأحاطوا به وقد منحتهم عودته المفاجئـة شجاعة فقدوها عندما تركوا الباشا يجلد ابنه كرامة أمامهم مائة جلدة•

تعلق به عكاشة مقبلا ، والرجل يبعده عنه في ضـيق ، عينـاه زائغتان ونظراته ساهمة ، وقسمات وجهـه جامدة خالية من الحس • انه يقف بينهم كعرق خشب خرج لتوه من تحت الفارة •

فطن عكاشة سريعا الى سر عودة السقا ، لقد جن الرجل •

اقتربت زوجته منه وقد لحقها الخبر ، فقال لها السقا :

ــ ابتعدى يا امرأة •

لطمت خديجة خديها • لقد لعب الفأر فى عبها ، قالت لنفسها : غاب عني ثلاثة أيام فتزوج على ، يا مصيبتك يا خديجة يا أم كرامة •

وتبادل الرجال الامر ودوروه على عدة أوجه ، فقـد نسى السـقا زوجته ، وأخذ يصدهم عنه كالغرباء •

قال بعضهم حزينا :

ــ مصيبة يا أولاد وحلت • ومن يداوى جنونك يا سرحان •

(٣)

اندفع الغفر يتقدمهم أبو جعفر ناحية السوق وقد تفتق ذهن أبى جعفر عن فكرة جهنمية للتزلف الى عويس الباشا ونيل رضاه ٠

قال أبو جعفر لنفسه :

ـ نربط السقا بالحبال ونجرسه فى القرية ٠

وبعدها قال لنفسه مقتنعا :

ـ من ينسى امرأته يستحق التجريس ٠

وضحك أبو جعفر وهو يرى السقا مربوطا الى حمار بالمقلوب ٠ وأعجبته الفكرة ، وأحس بالفخر بنفسه وبحسن أفكاره ، واعتقد أنه احق بالعمودية من حمادة أبو جبل ومضى مندفعا ٠

وفى الوسعاية الكبيرة محل السوق وجد السقا وسط الرجال فأبطأ فى السير متريثا وقد تبين أن نجوم الظهر أقرب اليه من تجريس السقا وأن العمدة كان على حق عندما طلب منه بالامس معالجة الامور بالحكمة فالبلد فى حالة حرب ٠

وتبادل أبو جعفر الحديث مع الرجال مقنعا اياهم بالذهاب الى الجامع ، فسرحان السقا أصابه مس ، والبركة فى سيدنا فقيه الجامع « والمداوى » ربنا ، بينما أخذ النفر يقيدونه بالحبال حتى لا يهرب منهم وعكاشة يعارضهم وعلا الاخذ والرد ، وسمع أبو جعفر صوت عكاشة وهو يحتد قائلا :

ـ الربط للبهائم وليس للبنى آدمين ٠

فتنحنح أبو جعفر غاضبا وقال :

ـ هه ٠

ولم تتوقف الهيصة ولم يعتبر عكاشة وبقية الاجراء فيصمتوا بل زادت الغتاتة وعلت همهمات واحتجاجات ، فأخذها شيخ الغفر حجة ورمى يمين الطلاق بالثلاثة أن يربطا سويا ، وأوعز للغفر والصبية بالصياح حولهما :

ـ من ده بكره ٠

فترتفع الاصوات مرددة فى صوت واحد :

ـ بقرشين ٠

ولسعت شمس العصارى عكاشة فى عينيه وهم يجرونه جنوبا فغرقتا فى صفرتها الذهبية فاغرورقتا بالدموع ، وتكسرت رموشهما ، وعجز عن مسحهما ويداه مقيدتان ٠

الحمامة فى صدر السقا ، ويتقدم الزحمة مستسلما ومن وقت الى آخر يصيح بأعلى صوت فى حنجرته قائلا :

ـ درويش فى أرض الله ومجذوب الى نوره ٠

فيزيد أبو جعفر من شد الشال على أذنيه حتى لا يصله نداء السقا وقد بدا غير مكترث بالربط والتجريس بينما عكاشة يسير الى جواره خائفا ومن حين الى آخر يصيح قائلا :

ـ يا عزيز يا عزيز كبة تاخذ الانجليز ٠

فيشد أبو جعفر العمة على أذنيه ويربطها بالشال وقد حول المغنواتى الجرسة الى مظاهرة وبدأ الصبية والبنات يصيحون يا عزيز يا عزيز كبة تاخذ الانجليز ، فيزمجر غاضبا طالبا من الغفر الصياح :

ـ من ده بكره

عكاشة لا يدرى كم مرة دارا حول العزبة وداخل أزقتها وساحاتها وهما موثقان ٠ وداهمه خوف أن يكملا لف العزبة سبع مرات فيحل ذبحهما وبيع لحمهما لمحلات الكباب فى المديرية ٠ قال عكاشة لنفسه باكيا : لحمك سوف يباع غدا الجمعة بقرشين ، فأبو جعفر لا يفرق بين البهيمة والبنى آدم بسبب بربشة عينيه وقد لحس الافيون بصره فلم يفرق بين جلالة الملك وفاطمة هانم زاده ليلة شوى عويس باشا البغبغان ٠ وتأكد عكاشة من ذبحه الليلة على يد أبى جعفر بسبب بربشة عينيه وصاح مثل تلاميذ المدارس فى المديرية :

ـ يا مدارس يا مدارس ياما أكلنا ملبس خالص ٠

وبعدها أكمل فى وجد والحصى يجرح قدميه وقد طار مركوبه فيتعثر فى مشيته :

يا ليل يا عين ، قلبى عشق بنت بيضا بتملا والغروب نازل
قالت الجميلة شيل ايديك يا أبو جعفر ،
ليموت عكاشة ٠٠ والغروب نازل ٠

علت القهقهات وسقطت الطواقى من الضحك وابتسم أبو جعفر وأمر بتوقف التجريسة حتى لا يفطس عكاشة ، وانطلق الصبية والبنات يرددون :

قالت الجميلة شيل ايديك يا أبو جعفر ٠
ليموت عكاشة والغروب نازل ٠

على باب الجامع من الخارج أجلسوهما ، وطلب أبو جعفر من سيدنا القراءة عليهما لطرد العفاريت التى تلبستهما ، والسقا يصيح:

ـ درويش فى أرض الله ومجذوب الى نوره ٠

وعكاشة يردد وراءه النداء بصوته الرخيم ولا يصدق حكاية الجن الذى تلبسهما وقد هدأت نفسه قليلا لمقربته الى بيت الله ، مغزيا نفسه قائلا : سبع لفات فى العزبة خير من تعليقهما الى الجميزة وجلدهما ، ويصيح مجودا خلف السقا وهو يطوح رأسه منتعشا بالنداء الربانى :

ـ درويش فى أرض الله ومجذوب الى نوره ٠

يتردد صوته فى باحات الدور الخربة ويمتد بعيدا الى الغيطان ويعود اليه الصدى رخيما جزلا ٠ وأرسل أبو جعفر عدة مراسيل الى حضرة العمدة يطلب منه المشورة والفتوى فيما يفعله لكن جنابه فص ملح وذاب ، وأحس أبو جعفر بنفسه كالغريق وسط الهيصة وقد أصبح مقيدا مثلهما الى عتبة باب الجامع وليس فى مقدوره الابتعاد عنهما فقد شاعت أخبار عودة السقا الى العزبة ٠ ضرب كفا بكف قائلا لمن حوله اذا كانت القلاقل تأتى من عمليات تهريب السلاح والمطاريد فليس من العدل أن يقف فى حراسة سقا ومغنواتى ٠

ورفض سيدنا القراءة فوق رأس عكاشة ، قائلا لهم بالصوت الملأن :

ـ هذا لوطى نجس ٠

وأخذ عكاشة من قسوة سيدنا وتلعثم فهو برىء من هذه التهمة ، وقبل أن ينطق أشار له السقا بالهدوء مرددا :

« يحيى العظام وهى رميم » ٠

فتربع عكاشة على الارض وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة شاحبة أضاءت قسمات وجهه المكتنزة ، وبعد فترة لم يطق الصمت ، فانطلق لسانه بالهتاف ولكنه لخوفه من الجلد تلعثم وانطلق الهتاف من فمه مثيرا للسخرية :

ـ يا عويس ٠٠ يا عويس ٠٠ كبة تاخد الانجليز ٠

ضجت الباحة بالضحك للحظات ثم تسمرت الشفاه وحل صمت مهيب ، وأدرك عكاشة أنه اخطأ وخلط بين عزيز وعويس ، فلملم أطرافه وانكمش داخل ضلوعه واحتمى بالجلابية يلفها حوله ٠

غابت الشمس وحلت العتمة . وهد الجـوع عكاشة ، وأخـذت الثعابين في بطنه تعضه فازداد انكماشه وهو يشيع بوجهه مقلدا عباس أبو حميدة قائلا :

ـ كلكم كفرة .

أبو جعفر يقف بعيدا عنهما بين الغفـر وعكاشـة يرقبـه بنظرات ساهمة كالنمس فرحا فيه فقد أضحى سجينا مثلهمـا ولا يهم ان كان واقفا أو جالسا على عتبة الجامع .

مر العصر وأذن المغرب وهما جالسان الى عتبة الجـامع ، وفجأة ظهر قطامش كاتب الدائرة وخلفه عبد الواحد أفندى ، وانتحيا بأبى جعفر عدة ثوان ، وأقبل الاخير عليهما وهو يأمر بفك وثاقهما ويلعـن ويبرطم .

ومد قطامش يده لعكاشة وقد دس فيها شـيئا ، جنيهين كاملين ، فاخذهما وجري بعيدا نحو العزبة ليشترى لزوجته أم حبيبه قميصـا من الساتان الوردى الناعم .

(٤)

دار عكاشة فى عزبة عويس شمالا وجنوبا ، الجنيهان فى قعر سيالته وعلى فمه ابتسامة بلهاء ، جرى مختفيا مثل الجرذان خائفا من الرجال ، وشالته قدماء الغليظتان وحملتاه حتى وجد نفسه أمام دوار حضرة العمدة ٠

تسلل الى الباحة الواسعة وأخذ يتشمم حلل الطبيخ الفارغة ولسانه يتدلى باحثا عن لقمة ناشفة أو قطعة جبن قريش أو بصلة خضراء ٠ عيناه على الدجاجات فى العشش يزقزق لها ويمد يده تحتها بحثا عن بيضة ساخنة ٠ يتلقفها من مؤخرة الدجاجة ويتحسسها ثم يثقبها بنابه كالثعبان ويدلقها فى جوفه ٠

لمحته ستهم زوجة العمدة وهى تشعل اللمبة الجاز نمرة عشرة ، فطلبت منه أن يبتعد عن عشش الفراخ قائلة :

ــ ابتعد يا حرامى البيض ٠

ظل عكاشة واقفا يزقزق بشفتيه وعيناه تفحصان العشش ٠ يتقدم خطوة منها ويتراجع خطوتين ويدور فى موقعه ويحوم ، ورائحة زفر فى تقلية حريفة بالبصل والفلفل الاسود تداعب خياشيمه ، فيقول وهو يدور مصفقا وخصره يهتز وردفاه يرتعشان :

ــ عامر باذن الله ٠ تقلية بالزفر ٠

يحدث نفسه وكأنه مدعو الى وليمة ، وستهم ترقبه ضاحكة ، ومدعية أنه ليس جائعا ، لكنه بطين وعينه فارغة ولا يحمد النعمة ٠

سألته زوجة العمدة عن سبب تجريسه فى العزبة حتى تشغله عن الدجاجات فيتركها فى حالها نائمة ، فتجاهل سؤالها ، ومضى يزقزق قالت له ضاحكة وهى تعلق اللمبة :

ــ طيب يا دكتور عكاشة ٠

فى واقع الامر عكاشة لم يأت صدفة الى دوار العمدة فهو يعرف أنها تنتظره وقد اعدت الدواء ليغسل لها قدميها ، وأنها سوف تطعمه شيئا بعد أن يطبب لها قدميها اللتين ضربهما الجرب ٠

وجلست ستهم فى العتمة وهى تعرى فخذين مرمريين وقد أعطت

ظهرها للمبة الجاز فيلمعان لمعانا خفيفا عند اســتدارتهما وقد غابت حوافهما فى العتمة . فاقعى أمامها طائعا يغسل قدميها ويروى ما وقع له فى السوق حتى تم تجريسهما بواسطة أبى جعفر شيخ الغفر خيبه الله ولم ينقذه من بين براثنه سوى قطامش كاتب العزبة .

يملأ الكوز من وعاء ساخن ثم يضيف اليه قليلا من الماء البارد من دلو أمامه أذابت فيه ستهم الدواء ويصبه على قدميها فى طشت ، ومع حركات يديه تنساب الكلمات من فمه ، ومن حين الى آخر يدس يده فى سيالته الداخلية ليطمئن على الورقتين الجديدتين .

روى عكاشة لستهم كل شيء ولم يخبرها بأمر الورقتين ، فقد وجد ذلك عيبا لانه سوف يشترى بهما قميصا من الساتان الناعم لزوجته أم حبيبة ورقتان جديدتان « بشوكهما » ولم تضعفهما الايدى أو تخفف من صلابتهما ، وضحك وهو يخفى سره عن ستهم زوجة العمدة ، فبعد أن ترتدى زوجته أم حبيبة القميص الساتان الناعم ســـوف يدغدغ عظامها كل ليلة وهو يخترقها فتدعو له بطول البقاء .

وهز عكاشة رأسه وهو يغسل قدميها محدثا نفسه ، ورقة الجنيه الجديدة الخارجة لتوها من البنك مثل العذراء البكر ، قوامها مشدود فاذا تداولتها الايدى ضعفت وشاخت ، وأدار الحديث وجهة بعيدة عن الورقتين القابعتين فى سيالته خشية أن يخونه لســانه ويفضـحه ، وقال لها :

ــ الباشــا بقى فى مكتبه فى العصر ورفض مقابلة المعلمين وبعث لهم برسالة مع قطامش كاتب العزبة يخبرهم فيها أن البلد فى حرب وأنه مشغول .

وسألته ستهم عن حكاية شى عويس باشا البغبغان الفصيح وهل أكل جلالته من لحمه ، فانطلق يروى الواقعة ربما للمرة المائة .

راح ليلتها الى القصر ورائحة الشواء تتصاعد من حديقة القصر ، فوجد جناب العمدة يمسك بعويضـــة أبو حســنين من قفاه والاخير يصيح :

ــ جلالة الملك المعظم يا عمدة .

وطرد العمدة الفلاحين والاطفال وأمره بالبقاء مع الغفر لحراســة القصر ، ووقفوا جائعين حتى تحايل غفير على أحد الطباخين وحصـــل لهم على طاجن لحم وأرغفة « فينو » ساخنة . ودس وجهه فى الرغيف الطويل المحشو لحمة وتنفس اللحمة وكاد أن يفطس قبل أن يقضمها .

عكاشة يدرك بفطرته أن ستهم عندما تأمره بالحكي وهو يغسل قدميها تنتظر منه أن يزودها بأخبار عباس أبو حميدة ، فاذا خيب ظنها رفسته في وجهه بقدمها المعطوبة وقامت غاضبة ، لكنه تجاهل رغبتها هذه المرة بسبب تجربة عصر اليوم وقد أصبحت قدماها تقرفانه وقد اشتد المرض عليها ، فحجب عنها أخبار عباس أبو حميدة عن عمد مفضلا رفسها له كالحمار الهائج ، وأخذ يعيد على مسامعها حكاية البغبغان الذى شواه عويس باشا أمام الملك وعيناه مفتوحتان حتى لا تجرح الليفة الخشنة أصابعها المعطوبة ٠

كان جالسا أمام المندرة ، رن جرس التليفون ، فقام العمدة ورد عليه ثم نادى على شيخ الغفر ، وأسرعا الى قصر الباشا ، فجرى خلفهما ولحق بهم بقية الغفر

كان عويضة أبو حسنين راقدا تحت السور الواطىء يطل من كوة صغيرة ، فتنبح الكلاب عليه وخلفه العيال يصيحون :

ـ عاش الملك ٠

فزعق حضرة العمدة وأمسك بعويضة أبو حسنين من قفاه وضربه ، فتفرق الخلق وجروا ٠

بعد ذلك خرج اللواء عويس باشا ورمى بصره على الناحية وهو يدخن البايب ثم عاد الى الداخل ، وقفل البربرى الاسود البوابة ثانية ٠

لم يرد الباشا السلام عليهم ، ولما هرع العمدة ناحيته ، أشار الباشا اليه بالبقاء فى موضعه ، فبقى ، لكن عكاشة لن يروى هذه الجزئية لستهم ، كما أنها لجهلها تعتقد أن العمدة الجلف يمد يده للباشا ويخاطبه بينما هو فى الحقيقة لا يفتح فمه فى حضرته ، يستمع اليه مطاطئا وهو يردد مثل البغبغان :

ـ العفو يا رفعة الباشا ٠ أمر معاليك ٠ حاضر ٠

لكنها جاهلة ولا تعرف أصول مخاطبة الاكابر ٠

عكاشة نظر أيضا من الكوة لما سقطت العتمة ، فنبحت الكلاب عليه وضربه شيخ الغفر على مؤخرته ضربا مبرحا ، فأخذ يزعق طالبا النجدة من جلالة الملك المعظم حتى تركه ٠

وذكر عكاشة ، وهو يصبن قدميها ، انه لم ير الملك ساعة خروج المعازيم ، وأقسم لها بالنعمة الطاهرة ، وهو يقبل قدمها فى الجتة غير المعطوبة اللدنة ، ان الملك قد نعس ليلته فى القصر ٠

وسألته ستهم عن غريمه أبى جعفر شيخ الغفر ، فضحك عكاشة قائلا :

ـ أبو جعفر تور الله فى برسيمه ولا يفرق بين جلالته وخالتى بهانة ٠

وطلب منها أن تصدقه وهو يعاود تقبيل قدمها ٠ وضحكت ستهم واهتزت قدمها وارتطمت بوجه عكاشة ، فاهتزت يده وتناثر الماء الساخن على حجرها وفخذيها ، فصرخت فيه :

ـ حرقتنى يا ملعون ٠

وتذكر عكاشة فجأة وهو يصبن قدمها أن زوجته أم حبيبة سألته أمس ان كان قد رأى عويس باشا وهو يفتح الكنز ، فضحك منها لسذاجتها وأسر اليها بما يعرفه ، وقال لها :

ـ الملك كلف عويس باشا بالوزارة ٠

فقالت تدعو له :

ـ عقبالك الوزارة يا عكاشة ٠

وعاود عكاشة الضحك هذه المرة بمفرده ، وقد رأى نفسه مرتديا الجلابية الواسعة المعقودة على وسطه داخل الوزارة المغطاة بالجوخ والقطيفة ٠ واهتز الكوز فى يده وتناثرت المياه الساخنة على وجهها ولسعتها ، لكنها نظرت اليه مبتسمة ، ومسحت وجهها بطرف فستانها وتركت القميص الساتان الوردى يغطى فخذيها وقد سحبته ، وقالت له :

ـ جدى عرضت عليه الوزارة ورفضها يا عكاشة ٠

أجابها عكاشة وهو منحن على قدمها وعيناه معلقتان بالقميص الساتان الوردى الناعم بهزة من رأسه ، وكأنه يسايرها فى مزاعمها وعاد يمرر أصابعه الاربعة بين أصابع قدمها المضروبة ، وقد انكفأ على نفسه يداعب خيالاته ٠ ان ملمس القميص الوردى يفجر فى جسده ينابيع الرجولة ، وقد طلب من زوجته أم حبيبة أن ترتدى قميصا ناعما فى الليل تحت جلابيتها الكستور ، فنهرته وطالبته بنقود الخبيز ، فتحسس سيالته الخاوية حزينا وصمت ، انه هذه المرة سوف يشترى لها القميص الناعم بنفسه ويضعه على جسدها بمعرفته

مضى عكاشة فى خيالاته ، وكلما دعك اصبعا لستهم غسل يديه بالليفة والصابون ، قائلا لنفسه فى قرف :

ـ هذه المرأة أصابها الجرب ولا حول ولا قوة الا بالله ٠

انتظرت ستهم حتى خلت الباحة ، وأخرجت من صـــدرها علبة صغيرة ، فقال عكاشة لنفسه ضاحكا :

ـ حق الجرب ٠

هذا الحق توزعه الحكومة على العســاكر فى الجهــادية لما يضربهم الجـــرب بين الافخـــاذ وتحت الآباط ، واخـذ طرفا من المرهم ودعك أصابعها وقد تخثرت وفاحت منها رائحـــة نتنة مثـــل رائحـة أم التلافيف ٠

وأغمض عكاشة عينيه وحنى رأسه الى الارض حتى لا يكاشفها ، ومد يديه تحت القميص الساتان الناعم وصعد الى أعلى الفخذ الايمن وتوقف تحت الركبة ، وصاح متأففا :

ـ هنا ٠

ضغط عكاشة على جلدها تحت الركبة ضغطة خفيفـة ، فطلبت منه أن يرفع يديه عنها ويترك ركبتها والا قتلته ، فضحك ، ونصـــحها بزيارة الطبيب ، فقد ضربها الجرب مثل لطع القطن من أســـفل الى أعلى ٠

عكاشة يعتقد فى قرارة نفسه أن ستهم أصيبت بالجرب بسبب معاشرتها لحضرة العمدة ، وأن العمدة أصيب به بســـبب رمحه وراء عويس باشا فى الفاضية والمليانة ٠ لكنه لا يصارحها بمعتقداته فهى بسيطة معه وتسمح له بدعك قدميها ، كما أنها فى كل موسم تطعمه من طاجن الفتة والكوارع ، وفى الاعياد تقدم له رغيفا ساخنا وطبقـا من القشدة ، وابتسم عكاشة ابتسامة خبيثة والشعور بالرضا يغمره من رأسه الى أخمص قدميه ٠ انه يطبق فمه على سره ، وليس أهبـل كما يدعون ، بل هو خبيث وماكر أيضا ، لكن ما يحيره حقيقة ويقلق باله أنه ان صارحها برأيه فى حضرة العمدة ربمـا أعجبت بشـــجاعته وكلفته بصب الماء لها وهى جالسة تستحم فى الطشت وســمحت له بدعك حلمتيها بالمرهم قبل أن يضربهما الجرب ٠

ستهم قسوتها من قسوة عويس باشا ، تكويه بالملعقة الساخنة وهو مقيد مثل النعجة وتدعى أن الرجال يلوطونه ٠ تحرقه دون أن تهتز شعرة فى جسدها أو يرمش لها جفن ، ولا ينقذه منها ســـوى عباس أبو حميدة يقول لها :

ـ كفاية يا ستهم ٠

فتأتمر بقوله وترفع يدها عنه ، أما العمدة فيزجرها ، فتنظر اليه بعينين واسعتين مفتوحتين عن آخرهما ، ولا تعتبر بكلامه ، فهل هذا عمدة ؟!

من معتقدات عكاشة الراسخة أن موعد قيام القيامة قد قرب ، وان النار سوف تحرق عزبة عويس باشا كما حرق الباشا البغبغان أمام الملك . وراودته رغبة خفية فى تحذير ستهم من يوم القيامة ، لكنه وجدها مشغولة بالحناء التي تلون قبضة يدها وهى تجلس أمامه متكبرة وفاتحة فخذيها كصبية مغرورة ليلة دخلتها ، فقرر أن يتركها فى عماها وجبروتها لتحترق مثل البغبغان .

فى الاصل عكاشة حانق على ستهم ، لكنها تستدرجه لخدمتها وقد طوعته كخاتم فى اصبعها ، تارة باللين وتارة بالشدة وتارة بما تتعطف عليه به من طعام فى الاعياد ، وان كان صبره قد نفد فى الشهور الاخيرة بسبب اصابتها بالجرب وتخثر أصابعها واصرارها على غسيله لقدميها كل ليلة .

عكاشة يخاف أن يصعد الجرب فى الحول القادم الى أعلى ، وعند هذا الحد يضحك عاليا وهو يتخيل ذلك الشيء وقد ضرب الجرب أطرافه ، ويقسم أنه لن يدعك لها تلك المنطقة الا اذا تركته يكاشفها بالبالطو الابيض مثل دكاترة القصر العينى واشترت له الجرانتى .

سرح عكاشة بعيدا ، وانتفض جسده تحت الجلابية ، ومد يده الى القميص الساتان الناعم وقد اجتاحته حالة من الشبق الفجائى ، فرفسته بقدمها فى جبهته مباشرة وحذرته من التطاول عليها والا خصته مثل ذكر البط .

انحنى عكاشة منكسرا يلملم أشلاء نفسه التى مزقتها ستهم بجبروتها وسحب طرف جلابيته ودعك وجهه ، وصرخت فيه ستهم آمرة أن يغادر الدار فى التو والا رشته بمية النار .

جرجر قدميه ولم يلتفت اليها أو الى الدجاجات .

ساءل اللواء عويس باشا نفسه ضاحكا وهو يجلس مسترخيا في مقعده فى جناحه العلوى بالقصر ان كان جلالته أو بولى قد اكتشف علاقته بمس مارجريت سنكلير أو تنسم شيئا من عطرها عالقا بملابسه صباح اليوم ، وقد أنعم الله عليهما بحاسة شم قوية يعوضان بها ضعف الابصار !!

مد قدمه المكتنز الى الكرسى الصغير واستند الى الخلف ليريح كرشه البارز ويتنفس بعمق ، فهذه ليست أول نزوة له أو آخرها فالقلب ملىء بالغزوات ، وقد عرف جسده متعة اكتشاف الحسان والصبايا وهن يتفجرن بالشهوة ويمنحنه من طيباتهن ما يعجز عن استيعابه ، لكن مارجريت لها طعم اخر وجسدها البض المشدود له عطر ساحر .

هواجس حميمة ليس من السهل البوح بها ، يجترها فى جلسته ولا يسمح لاحد بالتطفل عليه فيها أو تصويبها له ، فهذه هى منطقته الحرام التى يطوف فيها ما شاء الله له الطواف . منطقة غيمية ولكنها لصيقة بنفسه .

أكثر ما يقلق اللواء عويس باشا فى هذه اللحظات التى يطوف فيها خيال محبوبته حوله اخفاء جلالته عنه ما يدبره ضد حكومة مصطفى النحاس باشا ، وقد نسى جلالته وقفته الى جواره فى أول أزمة دستورية خاض فيها جلالته سنة ١٩٣٧ بعد توليه العرش بعدة أشهر حين أراد التخلص من النحاس باشا واسناد الوزارة الى محمد محمود باشا .

قلب اللواء عويس باشا الامر وهو يحرق لفائف الحشيش ، فالاطاحة بحكومة الوفد أصبحت ضرورة بعد أن تعقدت الاوضاع فى مدن القناة وترعرعت التنظيمات المعادية داخل الجيش .

وأرجع اللواء عويس باشا ارتباكه أمام جلالته هذا الصباح الى تعلقه بمارجريت سنكلير البريطانية الفاتنة ، وأحس بالندم . وغمره قلق مفاجىء لان التاريخ لن يغفر له اذا تراخى أو قصر أو أهمل نحو مليكه .

صوت زوجته الاميرة شويكار رفقي يصل اليه متلاحقا ، مثل أزيز ماكينة قديمة ، وهي تنطق بعدة كلمات في نفس واحد ٠ وقال اللواء عويس لنفسه ساخرا منها : طريقتها في الكلام هي التي ترهق صدرها وتسبب لها الحساسية وليس دخان سجائري كما تدعي ٠

دق جرس التليفون السري الذي لا يعرفه سوى القلة القليلة من أعوانه ، فنهض متكاسلا ورفع السماعة وهو يرنو الى منتصف الغرفة بعينيه ليتحسس ذلك التمثال الذي شيده بخياله لمارجريت في الهواء

جاءه صوت وكيل أعماله وهو يتحدث اليه من الاسماعيلية خافتا :

ـ صادر الارهابيون خمس عربات نقل محملة بالخضراوات والبرتقال قبل أن تصل الى المعسكرات ٠

أعمل اللواء عويس فكره بسرعة ، ووجد أن في الامر خيانة من جانب سائقي الشاحنات ، فقد وضعت خطة التسليم بوساطة الانجليز أنفسهم ، وطلب من وكيل أعماله الاتصال بمسئول كبير في الاسماعيلية للافراج عن البضاعة ومعاقبة الارهابيين ٠

وأقسم عويس باشا وهو يغوص في مقعده أنه لن يتورع عن ضرب هؤلاء الارهابيين بالنار ، فالقوات البريطانية لن تعجز عن استيراد الطعام من قبرص بالبواخر والطائرات ، لكنه هوس الشباب وهوس حكومة الوفد التي سايرت الدهماء فخربت بيوت مئات الالوف من العمال في القاعدة والتسكع في الطرقات ٠

تهور ٠ ما ذنب طماطم عزبة عويس الحمراء ، وهل يتم اخراج الانجليز من « القنال » بحرمانهم من خيار وبرتقال عزبة عويس ؟!

وقال لنفسه ساخطا :

ـ أيام سوداء ٠

ثم قال لنفسه معزيا :

ـ كلها أيام وينتهي الامر ٠

اللواء عويس يعترف بأن مواهبه السياسية ليست مصقولة مثل مواهبه العسكرية ، وأنه كثيرا ما يخطيء الحسابات ولا يسبر أغوار ألاعيب الساسة ومماحكاتهم الحزبية فتنشط تحليلاته وتدفع به الى حافة الهاوية ٠

ورفع رأسه وحدق في السقف والثريات ، ودار بعينيه دورة في الجناح وهو يحدد اتجاهات الرياح المعاكسة ، الفلاحون ، كلا ، رجال

الاحزاب ، كلا ، الانجليز ، كلا . الامريكان . وتوقف عند زاوية فى الجدار وكأنه يقرأ الاحداث ، الجيش والشيوعيون والاخوان المسلمون هؤلاء هم الخطر وأس البلاء .

ونحي عويس باشا عينيه عن ركن الغرفة الواسع وقد أحس بضيق وهو يتذكر الجيش والشيوعيين والاخوان المسلمين ، واندفع بظهره متراجعا بعينيه الى منتصف الغرفة حتى يحس بالبراح ، وليقترب من طيف صديقته مارجريت سنكلير الذى يداعبه وسط الغرفة ، وهم مرة أخرى بالنزول الى زوجته الاميرة شويكار رفقى ، لكنه بقى فى حضرة مارجريت قائلا لنفسه :

ـ هذه أحلام رجال مشروعة .

وجلس مستغرقا فى أحلامه اللذيذة ، وقد علقت بذاكرته عدة كلمات من موال للمغنواتي فأخذ فى صعوبة يتمتم بها على حياء وقد غابت عنه الكلمات ولم يعد يذكر سوى : قالت الجميلة شيل ايديك يا جدع ، لتموت قتيل المحبة والغروب نازل .

جميلة الولد المغنواتى طلبت منه أن يرفع يده عنها أما جميلته فتطلب منه أن يضع يده عليها ولا يرفعها أبدا ، أن يصحبها الى خارج الديار .

وأفاق قليلا الى نفسه متسائلا ، وقد دارت رأسه قليلا بسبب لفافات الحشيش : هل كان جلالته ينوى الفرار ، وهل مارجريت على دراية بما يدور فى كواليس السراى ؟! لقد ألحت عليه أن يصحبها الى الخارج ليتزوجا ويبتعدا عن هذا الجو المسمم .

وجنح به الخيال . قال لنفسه :

ـ ربما .

ودون قصد التفت الى خزينة العائلة ، وقام وتحسس ابوابها ، كانت جدته فاطمة هانم زادة طلبت وضع مجوهراتها ونقودها فى خزينة فى جنيف يوم التاسع من أكتوبر الماضى بعد اعلان النحاس باشا الغاء المعاهدة من طرف واحد فى البرلمان . رفضت مناقشته وقالت له من أجل جويدان ، حتى لا تتسول عيشها فى الغربة . واستطردت فى لهجة حازمة بالتركية :

ـ غاب نهار هذه العائلة كما غاب نهار عائلة عبد الحميد .

نصحته جدته فاطمة هانم زادة بأن يعد العدة حتى لا يلاقى مصير والد زوجته الامير رفقى خورشيد الذى تخلى عنه الخديو عباس حلمى

الثانى فى الغربة بعد طردهما من مصر • وتضايق اللواء عويس باشا لما طوفت برأسه هذه الافكار السوداء ، وأحس بحقد على الفلاحين الذين يبيتون وقلوبهم خالية ، وتمنى أن ترتسم على وجهه ابتسامة سمحة عندما يلتقى بمارجريت سنكلير أو علية سيف النصر ، وتفارقه التجاعيد التى تجعل من وجهه وجه قاتل محترف أو قط شرس •

وهم مرة ثانية بالنزول الى زوجته لمفاتحتها فى موضوع نقل جواهرها هى الاخرى الى جنيف وقد أدرك أنها تنتظره فى البهو حتى ينزل اليها بعد عودتها من جمعية اصدقاء الوطن • حرك قدمه اليمنى الى الامام ، لكنه لم يهب بجسده وظل مسترخيا كان يساوره يقين بأنه يتجول فى أرجاء القصر بجسده ، وبقى يتأمل الصفحات الخالية من تقرير كان يود الانتهاء منه حول تطورات الاحوال فى الجيش فى ضوء التطورات فى القناة ، ويدور ويحوم حول السراى والحكومة وشئونه الخاصة • وضحك طويلا لما تخيل السقا يسير عاريا فى العزبة وقال لنفسه : هؤلاء القوم يجدون متعهم فى الاشياء الصغيرة دون عناء • لكنه تضايق عندما تذكر أن زوجته قد أخبرته ذات ليلة أنها رأت شبحا يحوم حول القصر له جسد رجل ورأس عنزة •

اللواء عويس لا يصدق حكاية العفاريت التى أصبحت تقلع الزرع فى العزبة ، وهو على يقين بأن السقا وابنه كرامة ليس لهما علاقة بهذا الشغب ، وأن هذه الاشباح الآدمية لها صلة ما بجامعة فؤاد الاول وقد أصبحت مرتعا خصبا للفئات الضالة من الطلبة والعمال ، وأن اقالة حكومة مصطفى النحاس باشا سوف تضع حدا لهذه الفوضى •

تركته زوجته الاميرة شويكار رفقى فى حاله ولم تلح عليه بالاسئلة فهى تعرف مشاعر الخوف التى تصيب أهل البلاط • وقد قدر هو لها هذا الموقف وثمنه غاليا ، فلم يكن فى مقدوره أن يخبرها بما يجرى فى دهاليز السراى ، كما أنه ليس من المعقول أن يصارحها بتعلقه بمارجريت سنكلير أو علية سيف النصر وان كان يساوره شك فى أن طرفا من علاقته بعلية قد وصلها مما سبب ثورتها وتهديدها بترك العزبة واللجوء الى الملكة السابقة فريدة ، وأخذ يسترضيها صاغرا ، فلن يغفر له جلالته اذا ذهبت زوجته للمعيشة فى كنف الملكة السابقة ، وعاد ثانية الى عادته القديمة ، البقاء ساعة وبعض الساعة بين العصر والمغرب فى العزبة — فهذه هى ساعة الراحة من عناء العمل فى السراى •

من غرائب الصدف أنه فى الوقت الذى كانت فيه زوجته الاميرة

شويكار رفقي تتهمه من طرف خفي بتعلقه بقريبتها العائدة من باريس علية سيف النصر ، كانت علية توبخه لتعلقه بمارجريت سنكلير بل استدرجته الى الحديث عنها ، وأعدت له مطبا نسويا محكما فوقع في الشرك كالمقطف ، كما يقول الفلاحون ، معترفا بعلاقته بها .

سألته علية آخر مرة قائلة في براءة : « هناك فتاة أخرى قد دخلت حياتك وأصبحت تقف في طريق سعادتنا . »

أنكر ذلك بشدة ، وكان قد فرغ توا من مضاجعتها ، وشغل بالبحث عن ملابسه الداخلية وقد تناثرت على الفراش والارض ، بينما جلست هي مسترخية في الفراش مسددة نظراتها اليه قائلة « انني أعرفها . تلك الفتاة البريطانية التي أصبحت تلاحقك في الاندية » .

وفي لحظة ضربته على مؤخرته العارية ضربة صدر عنها رنين مكتوم وأضافت قائلة : « مارجريت لا بأس بها ، جميلة ، رشيقة ، لكن رأسها فيه سموم والقط يحب خناقه » .

ورمت رأسها على حافة الفراش ، فانسدل شعرها الطويل الاسود على صدرها مخفيا ثدييها البارزتين ، وأضحى وجهها الابيض كشمس مشرقة وسط سواد شعرها الفاحم .

ظلت على جلستها ، وهو يدور حول الفراش يلتقط ملابسه ، خيالها في المرايا التي تزين الغرفة يلفه وكأنها تفرض حصارها عليه لينطق بالحقيقة ونظراته زائغة بين خيالاتها وجسدها القريب من طرف أصابعه .

وحانت منه نظرة الى وجهه في المرآة ، فضحك بصوت عال ، وجنتاه منتفختان ، عيناه جاحظتان . وجهه وجه قط سمين ، وسألته عما يضحكه ، فقال معترفا :

ـ وجهي وجه قط .

ابتسمت ابتسامة لا أثر فيها للسخرية أو الحقد ، فجلس على حافة الفراش وقد اطمأن قلبه لها ، وضع ساقا على ساق ليدس قدمه في الشراب وبطنه البارز يضغط على رئتيه فيحجز الهواء عنهما ، وعلى صوت لهاثه المتقطع ، قالت له محذرة :

ـ الانجليزيات لا يساعدن العشاق في لبس شراباتهم .

فأجابها ، وهو يختنق ، معترفا :

ـ سوف أجعلها تفعل .

فدفعته بكوعها بكل قوتها فسقط على الارض مكوما كشوال تبن .

هذه هي المرة الثانية التي تدفع فيها علية سيف النصر اللواء عويس بكوعها على حين غرة فيقع ، ولا عجب ، فجسده الثقيل يخف بعد مضاجعتها ويصبح كريشة • في المرة الاولى كان قد أثقل عليها بسمج الحديث وسألها ان كانت قد أجريت لها عملية رتق لغشاء البكارة قبل عودتها الى القاهرة بعد قضائها عدة سنوات في باريس بعد أن صارحته بأنها عذراء ، فدفعته بكوعها وهي تعيره بأصله قائلة : أفندى خسيس•

ويبدو أن قلب اللواء عويس باشا يميل هذه الايام ، وقد اضطربت أحوال السراى ، الى مارجريت سنكلير البريطانية ، فعلية سيف النصر يضايقها خارج الكلام على النقيض من مارجريت التي تتباهى بنطقها لبذيء الكلام بعربية متعثرة •

ويرجع الفضل في تخففه من صرامة القيود التي فرضتها عليه زوجته الاميرة شويكار رفقي الى مارجريت • أما علية سيف النصر فانها تعيد الى ذاكرته تصرفات زوجته في شبابها وكراهيتها للانجليز والتمسك بالحديث بالتركية أو الفرنسية •

فكر ذات يوم في طلاق زوجته والزواج من علية ولكنه تريث بعد طلاق جلالته الملكة فريدة ، فجلالته يحتقر من يقلدونه ويتهممهم بالدونية ويرتب للنكاية بهم دون رحمة أو شفقة ، لهذا تكتم اللواء عويس باشا علاقته بالاميرة علية سيف النصر وأعلن عن تعلقه بمارجريت أمام رجال الحاشية ، فمارجريت أجنبية أما علية سيف النصر فمن بنات العائلة المالكة •

وفي الاسبوع الماضي ثارت زوجته لسبب تافه وقالت له بالتركية : أنت غير محروم من التدخين في غرفة النوم ، ولكنك تحن الى الاحساس بالابوة بعد كبر ابنتنا الاميرة جويدان • وفي الحقيقة لم تكن الاميرة شويكار رفقي في حاجة الى كلمات تركية أو فرنسيه لتعبر عن غضبها، فعيناها كانتا مليئتين بالشر ، وبدا له أنفها الصغير كقطعة لحم مشوهة وكانت شفتاها تهتزان وترتعشان وقد زمتهما بشدة فسقطتا الى أسفل وفجأة غلبته حماقته فضحك ضحكة استنكار لما لمح زغبا خفيفا أعلى شفتيها وتحت أنفها مباشرة ، فاشعلت ضحكته ثورتها ، فهددت بمغادرة العزبه والبقاء في صحبة الملكة فريدة •

قال اللواء عويس باشا حينذاك : اذا كان والدها الامير رفقي خورشيد قد تسبب في عزل الخديو عباس حلمي الثاني فان تصرفها كان كفيلا بطردى من السراى والقضاء على مستقبلي السياسى •

وعاد صاغرا الى عادته القديمة التى ورثها عن أبيه وهى البقاء فى القصر ساعة وبعض الساعة بعد العمل بالسراى ، وفوق ذلك فقد كف عن التردد على مارجريت فى أوقات الظهر • وما أن تحل ساعة القعدة ، حيث ينسحب الخدم من الطابق الاول ويتوقف عبد الواحد أفندى سكرتيره الخاص وقطامش كاتب العزبة عن الاقتراب منه ، حتى يجد زوجته فى انتظاره وقد أعدت ابريق الشاى ، وبعد نصف ساعة تزيد أو تنقص ، تلحق بهما جدته لامه فاطمة هانم زادة لتؤنس جلسته بحكاياتها التى لا تنتهى عن الحياة فى الاستانة أما زوجته فليس فى جعبتها سوى المرارة بسبب ما حل بوالدها الامير رفقى خورشيد على يد الانجليز •

ويقوم ويقعد وصوت زوجته في الطابق الاول يصل اليه متواترا • وتعليقات جدته العجوز لا تفارقه :

ـ ويل للعرش اذ دخل القوادون والبصاصون فى السياسة •

وتذكر اللواء عويس نفسه هذا الصباح وهو يسير خلف بولى لمقابلة جلالته ، فامتعض ، وأحرقت لفافة أصابعه فرماها فى المنفضة الذهبية ، وقرر النزول الى زوجته ، لكنه ظل جالسا فى موضعه يتأمل الوضع الذى آلت اليه الحاشية ، ان معاركه مع الوفد معروفة ، وقد ناصبه العداء علانية فى قضية الاقطان ، لكن علاقاته ساءت بعدها بأندراوس باشا المستشار الاقتصادى لجلالته بسبب دوره فى تقسيم الرشوة التى دفعها أحمد فرغلى باشا ، فخسر برعونته بطانة الملك والحكومة فى وقت واحد معا •

ولقد نصحته جدته فاطمة هانم زادة ابان الازمة بالميل الى كفة أندراوس باشا ، فالميل الى المرابين ، مع الملوك ، أبقى وأنفع • لكنه ركب رأسه ولم يتبع نصائحها •

(٦)

هذه هي أواخر الايام • قطامش كاتب العــزبة ، وعبد الواحـد أفندى سكرتير الباشا ، يدوران في الازقة بحثا عن عكاشة المغنــواتي لدعوته للغناء أمام ضيوف الاميرة الصغيرة جويدان هانم أفندى •

تناول الجنيهين ووضعهما فى سيالته ورقص ، وهب بلعته الارض وغطس •

حقيقة ، منذ سقوط حكومة ابراهيم عبد الهادى باشا وتولى مصطفى النحاس باشا الحكم ، والمقامات قد ضاعت واختلط الحابل بالنــابل حتى أصبح الرعاع لهم سعر فى السوق ويحملون السلاح ويخرجون فى المظاهرات ، وها هى العــدوى تنتقل الى أبناء الاكابر ، فتســعى الاميرة جويدان لسماع عكاشة المغنــواتي ، هي ورفيقاتهــا ، فكيف يسمح اللواء عويس باشا بدخول هذا الكلب الاجرب القصر ؟!

ويضرب قطامش كفا بكف ، لكن الاوامر وهذه هى أوامر ســمو الاميرة شويكار هانم أفندى رفقى •

وعثر أبو جعفر شيخ الغفر على عكاشة مختفيا فى ســاقية قديمة مهجورة فجذبه من قفاه فى غلظة وسدد العصا الرفيعة فى جنبه ينغزه بها ، فأمره قطامش بالابتعاد عنه ، وخلصه من براثنه • رائحته عفنــة والطين يغطى ثنيات قفاه ، وقال له قطامش مداريا قرفه :

ـ أهلا بالمغنى العظيم •

وصعد ثلاثتهم الى الكاريتة التى تنتظرهم ، عبد الواحد أفندى الى جوار السائس • وفى الخلف قطامش ، والى جواره عكاشة جالســا كالبطة المذبوحة • بينما أبو جعفر يهرول خلف الكاريتة غاضبا ، يعتقد الاحمق أنه أحق بركوب الكاريتة بدلا منه ولا يعرف الاحمق أن الليلة ليلة عكاشة وهو يتمايل ويتطوح مغنيا :

يا وابور الساعة اتناشر يا مقبل عا الصعيد
ويا جريد النخل العالى طاطى ورد السلام

وجرت الكاريتة فى الازقة الضيقة وانطلقت الى الغيطان الواســعة

التى تفصل عزبة عويس عن القصر ، وتململ عكاشة خوفا وهو يفرك يديه ويحرك قدميه ويحك ظهره بالمسند ٠

اقتربت الكاريتة من الاسطبل حيث كان « اللبيس » فى انتظارهم وفي يده ملابس زاهية ، لكنه عندما تشمم عكاشة رفض الاقتراب منه وأشار على عبد الواحد أفندى سكرتير الباشا بوجوب تغطيســه فى المغطس قبل أن يضع الملابس على جلده ويرتدى الشاهى ٠

عبد الواحد أفندى يقف يقظا كالنمس وعيناه الضيقتان تجولان فى ساحة الاسطبل ويتلقى الاوامر من مساعد لبيس الباشا بسبب عكاشة ودار دورة وأخرج علبة سجائر هوليود معتبرة ، وقدم واحدة الى مساعد اللبيس وأشعلها له ، وأخرى لقطامش ، ثم وضع سيجارة بين شــفتيه الرقيقتين وتقدم نحو عكاشة وتعطف عليه بواحدة ، فتناولها المسكين ووضعها خلف أذنه وهو يقف حائرا بينهم وأغلب ظنه أنه سوف يدفع به الى دولاب الفرم بعد تدخين السيجارة ، فوضعها خلف أذنه ليؤجل ساعة موته ، وربما خجل من اشعالها فى حضرة عبد الواحــد أفنــدى سكرتير الباشا الخصوصى ٠

ودار عكاشة حول نفسه وأخذ يصفق وبعدها توقف قائلا :

ــ أدخن السيجارة وافرمونى ٠ ووصيتى : جنيهان لام حبيبــة لشترى القميص الساتان وتلبسه من بعدى ٠

وجلس مقرفصا ، وأجهش بالبكاء ، ووقعت السيجارة وهو يخبىء رأسه بين يديه وقد زادت قنــاعته بأنهم سوف يدفعــون به الى دولاب الفرم ليخرج من الناحية الاخرى مفروما مثل الكفتة فيخلطونه بالقش والعلف لاطعام أحصنة الباشا فتصح وتقوى ، خاصة أن فرس الباشا الاشهب قد اعتاد على أكل لحم البشر ، أما البقية فيرمونهــا لكــلاب الحراسة وقطط الاميرة الصغيرة التى تملأ القصر ٠

صوته خفيض ونشيجه عال ، وينتفض فى جلسته كزكيبــة غلــة تعبث بداخلها فئران متوحشة ، بينما مساعد اللبيس يتحدث الى عبد الواحد أفندى فى ثقة وهو يفرد أمامه السروال الحرير والقفطان والجبة الواسعة ويؤكد له أنها على مقاسه ٠

لم ينس اللبيس شيئا ، حتى الشراب اختاره واسعا ليتسع لقدمى عكاشة المفلطحتين ، وقاسه عبد الواحد أفنــدى على قبضته ، فوجده يلفها مرتين ، فرمقه مساعد اللبيس بنظرة غاضبة قائلا :

ــ على مقاسه ٠ سنتيمتر واحد ، ادفع جنيها ٠

بعدها تريث عبد الواحد افندى لبرهة ، ونظـر حوله ، وقال فى حسم :

ـ عكاشة . قف .

وقف عكاشة وهو ينظر الى مراود الاحصنة وأحواضـها الواسعة المليئة بالمياه ، وطلب منه عبد الواحد أفندى أن يغتسل تحت الدش . واقتـرب منه خـادم نوبى وفى يده فوطة كبيرة ، وفى يده الاخـرى صابونة بورقتها ، وليفة . لكن عكاشة بقى فى وقفته ، وهو يهز رأسه رافضا ، وبعدها نطق مستهزئا بهم قائلا :

ـ افرمونى بوساختى .

اقترب منه عبد الواحد أفندى متوددا كالثعلب قائلا فى حنان :

ـ أنت ضيف الاميرة جويدان الليلة .

وضغط عكاشة بقدميه المفلطحتين أرض الاسـطبل وكأنه يثبت نفسه حتى لا يقلقله أحد من موضعه ، وأخذت عيناه تبربشـان من الدموع ويعاود النظر فى الاسطبل التى تضىء لمبات الكهـرباء أركانه ، وترتسم صور الاشياء فى ذاكرته دون وعى ، فيتركها ليبحث عن دولاب الفرم الذى تتحدث عنه العزبة ويبدأ فى استرداد أنفاسه ويألف المكان فليس بين مكونات الاسـطبل التى ترسبت فى ذاكرته دولاب لفـرم البشر أو رحاية طاحونة تهرس الجسد وتخـرجه رقـائق من اللحـم كالفطير المشلتت .

وفجأة خطر له خاطر مزعج ، ربما يجلدونه كما جلد عويس باشـا كرامة ولد السقا ، فاذا كان قدره أن يجلد بالسوط ، فليكن ذلك بفعل رجل من الرجال وليس بواسطة الاميرة شويكار أو ابنتها الاميرة جويدان وقال لهم ساخرا :

ـ لن أسمح لامرأة بجلدى .

اقترب منه قطامش مداعبا فى خبث :

ـ فضها سيرة ، فرم وجلد ! أنت معـزوم الليلة فى القصر لتغنى أمام سمو الاميرة جويدان .

تذكر عكاشة الورقتين اللتين دسـهما فى يده عند عتبة الجـامع ، وهدأ باله قليلا ، وتناول الملابس الجديدة من النـوبى وهو يتـذكر القميص الساتان الذى ينوى شراءه لزوجته فيضاجعها ، وقال فرحا :

ـ كلها لى !

قال له قطامش ضاحكا :

ـ كلها لك ، لكن بعد الاستحمام .

اندفع عكاشة نحو حوض الاحصنة في عفوية وهو يرمي بخلقاته المزقة ويقذف بها قائلا :

ـ استحم :

وقبل أن يقفز في الحوض ، أمسك مساعد اللبيس ضاحكا ، وقال :

ـ تحت الدش يا عكاشة .

ووقف عكاشة تحت الدش والمياه تغمره كمطر دمياط فى الشتاء، ولكنها دافئة هذه المرة وتختلف عن مياه دمياط المثلجة ، يقب برأسه وينزل تحت سيل المياه ورذاذها يتطاير حوله فيخرج الهواء من فمه ويبقبق كجاموسة في الترعة تتمخض ويضرب الارض الخشبية تحت قدميه ويقول لنفسه فرحا بهذه النعمة راجيا من الله أن يديمها عليه :

ـ دش ياعكاشة .

قطامش يقف صامتا . يغالب مشاعر الغضب أمام عبد الواحد أفندى سكرتير الباشا ، ويرسم ابتسامة باهتة على شفتيه ، ونظراته يقظة للطريقة التى يتحدث بها عبد الواحد أفندى سكرتير الباشا الى اللبيس . كان يعتقد فى السابق أن عبد الواحد أفندى له نفوذ على الحاشية بسبب قربه من معاليه ، لكنه اكتشف فجأة وهو كاتب العزبة أن عبد الواحد أفندى يتلقى أوامره من اللبيس طائعا ، وتنهد وهو يبعد راسه قائلا فى عقل باله : دنيا !! وكأنه قد اكتشف سر المسألة أخيرا وتوصل الى خباياها ، فمن يرى الباشا بالفانلة واللباس ليس كمن يراه والبايب فى فمه ، وبزغت أمامه فجأة الحظوة التى تمتع بها زبيدة شمورجى كالفة عند سمو الاميرة شويكار هانم أفندى ، وأرجع ذلك الى أنها تعد لها الحمام بيديها وتلف جسدها بالفوطة بعد تصبينه ودعكه بالعطور ، وأومأ لنفسه ثانية قائلا : دنيا !!

وظل قطامش على حاله فى وقفته ، فهذه هى أواخر الايام ، قطامش كاتب العزبة يقف فى الاسطبل يشرف على استحمام كلب أجرب مثل عكاشة ! هذه فضيحة ! ولو طلب منه اطلاق النار على عكاشة لما تردد لحظة واحدة وأدى المهمة بشجاعة سعيدا ، ولكن أن يقف الى جواره وهو يبلبط تحت الدش ، فهذه من مخازى حكومة مصطفى النحاس باشا ، حيث أصبح الرعاع من أمثال عكاشة لهم حيثية : خرج طلبة مدرسة السعيدية يصرخون يسقط الملك وهم ينادون فى الشوارع كالمجانين يسقط عفيفى وحافظ عفيفى ، يحملون السلاح بدعوى محاربة الانجليز

وكملت الرواية بوقوفه في الاسطبل للاشراف على استحمام عكاشة المغنواتى ، وليحسن صنعا أيضا بتلييفه وتنشيفه بالفوطة ، أو الانحناء له لربط رباط مداسه ٠

ونفد صبر قطامش وقال لنفسه : لكل شيء نهاية ، فاذا تولى معالى عويس باشا الوزارة وضع حدا لهذه المهازل : أغلق المدارس وأوقف مجانيه التعليم التى جعلت السقا يعلم ابنه فى مدرسة السعيدية ، ووضع حدا لالاعيب عباس أبو حميدة الذى خيل له عقله المريض أنه أصبح زعيما يجادل الباشا ٠

بعد دقائق ضبط قطامش نفسه واقفا بعيدا عن الجماعة لا يتحرك أو يرد على تساؤلاتهم ٠ وافاق لنفسه وعاد الى رشده ، واستعاد توازنه ، خوفا من نطقه بكلمة (كذا أو كذا) تحسب عليه ، وتسلل قريبا منهم ودار بعينيه بين عكاشة ، وهو يبلبط ، وعبد الواحد أفندى الذى يقف أمامه مباشرة ، وضبط عبد الواحد أفندى وعيناه تتعلقان بمؤخرة عكاشة اللامعة وقد اكتست بطبقة من الصابون وعلقت بها قطرات الماء فتكسر الضوء عليها كلمبات صغيرة ٠ مؤخرة رجراجة غنية ، ولمعت عينا عبد الواحد أفندى بلمعة فاجرة وانعكست على شفتيه الرقيقتين ، كورقة السيجارة ، شهوة واضحة وقد توهج وجهه وكأن نيرانا جهنمية قد لسعته ٠

وكانت الضحكة تفلت من قطامش وهو يتابع عبد الواحد أفندى العجوز النحيف وقد فضحته عيناه ، لكنه كتمها وحول رأسه بعيدا وهو يتذكر أبو جعفر شيخ الغفر وهو يلهث وراء الكاريتة ، وقد عرف عنه هذا الداء ، وقال لنفسه متحسرا :

ــ والله يا عكاشة بقرة وقعت وكترت سكاكينها !!

وأحس بتعاطف روحى مع هذا البغل الذى فرض عليه أن يستحم عاريا أمام عبد الواحد أفندى الذى يطمع فيه ، كما فرض عليه أن يبدل ملابسه الرثة بأخرى جديدة قبل دخول القصر ، وتذكر أوامر الاميرة شويكار هانم أفندى له :

ــ فلاح عكاشة يغنى أغانى لطيفة أمام البنات ٠

فقال لها :

ــ حاضر سمو الاميرة ٠

وسأل قطامش نفسه : ماذا يحدث اذا علا صوت عكاشة بتلك الاغانى التى يرددها فى الافراح حول ليلة الدخلة والثار أو عند زيارة

المقابر ؟! سوف تكون فضيحة : كيف يشرح لهذا البغل الموضوع ويطلب منه أن يغنى أغانى لطيفة أمام البنات وهو طول النهار لسانه الطويل المتدلى كلسان الكلب يردد فى الطرقات : يا عزيز يا عزيز كبة تاخد الانجليز . وكأن الانجليز قد أكلوا أكله أو سرقوا ميراثه الذى تركه له المرحوم والده ! ماذا لو انطلق صوته عاليا أمام البنات مغنيا بهذه الترهات . مصيبة . كما أن هذا البغل ربما يحرن بعد الاستحمام مثل الحمار ، فيتمرغ على الارض وينهق ويرفض الغناء ، فهؤلاء المغنون بهم مس من الشيطان والعياذ بالله ، يتمطع الواحد منهم فى الدوار ، وفى العشية يدلق فى جوفه الحلبة المحوجة ثم ينطلق صوته بالغناء ـ ويا صابت يا خابت .

ودار قطامش فى الاسطبل ، ولم يعد قلقا على هندام عكاشة أو هيئته فهذه مهمة اللبيس الذى أمر الخادم النوبى أن يخلع رداءه ويخوض فى المياه ليحك ظهر عكاشة بالليفة والصابونة وينظف له أذنيه من الداخل والخارج . فما يقلقه هو أن يصيح عكاشة فى حضرة الاميرات بالفحش وغليظ الكلام .

وبدل عبد الواحد أفندى موقعه بعد أن حجب الخادم النوبى عنه مؤخرة عكاشة ، واتجه نحو النافذة كأنه يستنشق الهواء ، فتبعه قطامش متقززا وهو يدرك ما يدور فى قلبه من عشق أهوج ، وهمس فى أذنه قائلا :

ـ نرجو أن يشرفنا عكاشة الليلة ولا ينسى أصله .

فأمن عبد الواحد أفندى على كلامه قائلا :

ـ هؤلاء المغنون لهم نزوات شيطانية .

وتبسط معه وروى له حكاية عن مغنى ربابة مشهور فى الصعيد، دعاه الحكمدار فى قنا ليغنى أمام جلالة الملك أحمد فؤاد ، فأخذ يعيد ويزيد فى حساب الكفرة فى الاخرة بدلا من أغانى الحب والغرام ، فغضب جلالته واعتبرها مؤامرة من الوفد للاساءة اليه ، والحقيقة أن حكمدار قنا كان بريئا من التهمة ، وقد فشلت محاولاته لدفع المغنى للترنم بأغان لطيفة تليق بجلالته ، فقد ركب رأسه .

استمع اليه قطامش فى خوف عظيم ، وشلالات المياه المتساقطة على جسد عكاشة تك . تك . ترن فى أذنيه ـ ماذا لو ركب شيطان الشعر كما يقول عبد الواحد أفندى رأس عكاشة ؟ مصيبة !

وقال عبد الواحد أفندى بعدها مطمئنا :

ـ لا تخف ، الاميرة وضيوفها سوف يضحكون ، وعكاشة يغنى لهم عن ليلة الدخلة وموت الصبى وفرحة العجوز ٠

نظر اليه قطامش وقد فتح فاه ، فهو يعرف أن عكاشة سوف يغنى هذه المواويل ، فهل يرضى ذلك سمو الاميرة ؟!

وتبسط معه عبد الواحد مرة أخرى ، وقال له :

ـ المطلوب أغان شعبية ـ فولكلور ٠

استغلق الامر على قطامش ، لكنه استراح لقول عبد الواحد افندى الذى أخذ يشرح له اهتمام الاجانب بجمع النكات الشعبية والاغانى وحواديت العواجيز وضبعها فى كتب ٠

فقال قطامش متعجبا من أحوال الاجانب :

ـ يا سلام !

معجباني يا عكاشة ، لا يفهم قيمتك سوى أبناء الذوات والاجانب دنيا ! ليته كان تعلم شيئا من الغناء فى صباه ، وفاز بنصيب من هذه النعمة ٠ لكن عكاشة شيطان كبير ، اذا أكل الفتة وتجشأ وربط الحزام على وسطه ، انطلقت الكلمات من فمه متلاحقة بنت لحظتها ، يغنى للبيضاء والسمراء والرفيعة والبدينة ، ويندب الوليد والجد والعريس والعجوز والفقير والغنى وصاحب الذرية ٠ شيطان ٠ وقال لنفسه فى صدق ، معجبا بعكاشة :

ـ معجباني يا عكاشة ، والله معجباني ٠

(٧)

عادت الاميرة شـويكار رفقى خورشـيد الى مديرية الجيزة قرب الساعة السابعة مساء وقد حطت العتمة على العزبة وأغرقتها فى ستائر ثقيلة من الظلمة لا تمزقها سوى أنوار القصر وبعض الاشـعة الكابيـة التى تنبعث من دور الفلاحين ٠

مالت بها السيارة عند سور حديقة المانجو ، فقال لها السائق وهو يبتسم :

ـ يا سمو الاميرة ، سيدى الباشا فى مكتبه ٠

كانت قد لمحت ضياء جناحه فور أن مالت العربة مع سور حديقة المانجو ، وقد أحس قلبها أن زوجها سوف يشرف القصر الليلة للبقـاء بعد انشغاله عنها طوال الاسبوعين الماضيين فى السراى ٠

لم تكن فى حاجة الى اشارة من سائقها الى أنوار جناح اللواء عويس باشا ، فقد كانت أسرع منه فى اصطياد البشرى ٠ واتسعت ابتسامتها حتى فاقت ابتسامته ، لكنها تنبهت لنفسها ، وأخفت ابتسامتها حتى لا تكشف عن فرحتها أمام السائق ، ولئن كانت ابتسامتها قد اختفت فقد كشف صوتها ، وقد خفت بحته ، عن رواء القلب ٠ وتسـاءلت والرهبة تندفع بها : هل يعبر السـائق عن فرحتـه بوجود الباشـا فى القصر هذه الساعة أم أنه يزف اليها بشرى تسعدها ويروى لهـا خبرا يفرح قلبها المتعطش للحنان ؟

انها تود أن تلقى بجسدها فوقه وتترك نفسها بين يديه سـاكنة حتى تهدأ أعصابها وتكتسب شيئا من ثباته ومن الاقدام الـذى يميزه عن أقرانه فى الجيش ، حتى أن جلالته يصرح للمقربين له قائلا : اللواء عويس باشا احدى دعامات عرشى ٠ هرم راسخ وطود منيع ٠

وأزاحت الستارة السـوداء عن جانب السـيارة الايسر ، ورمت بنظرها على الحقول الخضراء ، وأحست بنفسها تتنفس أريج الحقول ٠ الخضرة الممتدة تدفعها لتسبح فى فضـاءات لا نهـائية من السعادة ، فتركن نفسها الى سكينة تفتقدها فى قصور الاميرات وسـط المدينة ، حتى أضحت تكره الحفلات ولا تلبى الدعوات وتتخلف عن الاحتفالات الخيرية التى تسهم فيها وتدعمها ٠ وقد توجهت بعد ظهر اليوم للتبرع بدمائها وللاسهام فى حملة رعاية جرحى مدن القنال ، ولكنها تخلفت

عن الحفل وعادت مبكرة ، وتحسست موضع شكة الابرة ، فلم تعد تؤلمها أو تنفر من منظر الدماء ·

هذه هي المرة الثانية التي تتبرع فيهـا الاميرة شـويكار رفقي بدمائها في أقل من شهر · قالت لها الطبيبة : ان التبرع بالدماء ينشط الكبد والبنكرياس ويقلل من ارتفاع ضغط الدم ويجدد خلايا الجسد وكانت الاميرة فادية قد سألت الطبيبة أمامها في خلاعة قائلة :

ــ وهل ينشط مبايض المرأة ويؤخر سن اليأس ؟!

ابتسمت الطبيبة في رقة ، وبعد فترة صمت أجابت :

ــ ينشط جميع خلايا الجسم ·

كانتا لحظتها وحدهما مع الطبيبة وقد أحاطت بهما ثلاث ممرضات شابات ، وكان يتعين على الاميرة فادية افتتاح حفـل التبـرع بالدماء لتشجيع سيدات الجمعية · رقـدت كل منهمـا على سرير ، وأشرفت الطبيبة الحسناء على قياس نبضهما وتأكدت من سـلامة دقات القلبين وانتظامهما قبل أن تسمح بغرز الابرة في الذراع ·

الخوف أطل من عيني الاميرة فادية ، وبدأت شفتاها ترتعشـان ، وكان مصورو الصحف قد تجمعوا حولهما لتسـجيل هـذه اللقطة ، فتنازلت الاميرة فادية عن حقها في افتتاح الحفل للاميرة شويكار ذاكرة أنها سوف تكون التالية لها · ولم يساور الاميرة شـويكار خوف . طلبت من الطبيبة سحب أكبر كمية من دمائهـا ، وقالت للاميرة فادية بالتركية :

ــ من أجل الوطن ومن أجل جلالته ·

وقبل أن تجيبها الاميرة فادية ، أسرعت الطبيبـة بالتـدخل في الحديث بتركية سليمة وغير متعثرة ، قائلة :

ــ نعم من أجل الوطن والجالس على العرش ·

فنظرت اليها الاميرة فادية نظرة ذات مغزى ، فالحـديث بالتركية منذ الآن لن يفيد ، ولن يكون في امكانها القاء نكاتها الجنسية وهي في مأمن من الآذان · وسألتا الطبيبـة في نفس واحد عن سر معرفتهـا بالتركية ، فأجابت الفتاة وقالت انها قد أمضت طفولتها في تركيا وأن والدتها من أصل تركي ، فدار حديث بين ثلاثتهمـا بالتركيـة التي تستريح الاميرة شويكار الى الحديث بها عن العربية ، ولم تعد تشعر بالصداع · واستسـلمت لاحلام لذيذة ورأسها يخف شيئا فشـيئا والدماء تندفع من ذراعها الى الاناء المعلق ، عبر أنبوب مطاطي دقيق ، والطبيبة تراقبها مبتسمة ولا تجيب الا اذا سـألتها ، زيادة في الادب ولتخفف عليها مشقة الحديث ·

كانت الاميرة شويكار تود أن تستفسر منها عن أمها ، لكنهـا في غمرة أحلامها واهتمامها بالاميرة فادية التى تمت بصلة قرابة مبـاشرة الى جلالته نسيت الطبيبة ٠

وبعد أن امتلأ الاناء الزجاجي الى منتصفه ، وانتهى المصورون من التقاط صورهما ، قـامت الاميرة فادية منتصبة ، وغادرت الفـراش قائلة :

ـ سوف أحضر في مرة قادمة ، أحس بصداع اليوم ٠

أجابتها الطبيبة بأدب وهى تنحنى انحناءة خفيفة :

ـ تحت أمر سموك ٠

غادرتا الغرفة وأقبلت عليهما سـيدات الجمعية فخورات بهما ، ولا يدور بخلدهن أن الاميرة فادية قد انسحبت قبل أن تغرز الابرة فى ذراعها ، وبعد جلسة قصيرة مع عضوات الجمعية انسـحبت الاميرة شويكار رفقي ودوار خفيف يلفها مثل دوار البحر ، وأدعت أنهـا فى حاجة الى راحة ٠ والحقيقة أنها قد رأت مغادرة الجمعية خـوفا من أن تفصح عن مشاعر الكراهية التى تحس بها نحو الانجليز فتغضـب جلالته وتسىء الى زوجها ، وكذلك تجنبا لتعليقات سياسية محرجة وقد إستبد الحماس بالسيدات بعد مجزرة كفر عبده ٠

طلبت الاميرة شويكار رفقي من السائق أن يسرع قليـلا ، لتلحق بزوجها قبل مغادرته القصر ، فربما يذهب الى السراى أو النادى ، لقد سمعت السيدات يتحدثن عن تعديلات حكومية وأن حكومة مصـطفى النحاس باشا مهددة بالسقوط وأن على ماهر باشا يستعد لتولى الحكم

الاميرة شويكار رفقي ليست مشوقة للحاق بزوجها لمناقشـته فى السياسة أو لاطلاعها عما يجرى فى دهاليز السراى ، ولكنهـا فقط فى حاجة الى أن تجلس اليه فتحس بالاطمئنان وتستمد منه شجاعة لمنحها الثقة ، ففى حضنه تبكى كطفلة وبالقرب منه تحس بشجاعة ٠

عبرت السيارة بوابة القصر فأقبلت الوصيفات وعلى رأسهن زبيدة شمورجي كالفة التى تستريح اليها وتتولى اعداد ملابسها وزينتهـا ، وهمست فى أذنها بصوت خفيض قائلة :

ـ سيدى معالى الباشا فى مكتبه ٠

قالتها وكأنها تنبئها بخبر سعيد أو مفاجأة سـارة فتضـايقت الاميرة من تلميحات الحاشية وكأن سرها قد افتضح وتلهفها على زوجها قد شاع ، فتماسكت وقالت بصوت غاضب :

ـ قهوة ٠

اندفعت سفرجي كالفة تتبعها قهوجي كالفة لاعداد القهوة . وفور دخولها الى بهو القصر امتلأت رئتاها برائحة الدخان ، فضاق تنفسها وسعلت وأدركت أن زوجها في جناحه يدخن منذ مغادرتها القصر ، بعد العصر بقليل ، وجلست في البهو تقاوم رغبتها في الصعود اليه ، فأقبلت عليها شمورجي كالفة وخلعت الحذاء من قدميها ووضعت شبشبا ذهبيا تحتهما وانسحبت بعيدا لتعطى أوامرها بتجهيز الحمام لسمو الاميرة .

الاميرة شويكار رفقى لا تطيق رائحة النيكوتين التى تسبب لها ضيقا فى التنفس . وزوجها لا يدخن السجائر فقط بل يدخن أيضا السيجار والبايب ، ولا تجرؤ على مطالبته بالتوقف عن التدخين فى جناحه العلوى ، فهى حقيقة أميرة وصاحبة سمو ، لكن الايام عودتها أن تغض البصر عن الاشياء الصغيرة . كذلك فهى تغض البصر أيضا عن تدخين أبنتها جويدان للنرجيلة فى جناح جدتها فاطمة هانم زادة .

تتحمل الاميرة شويكار مضايقات الجدة وتعليقاتها بقلب راض لسبب اخر تماما ، فالجدة التى يقارب عمرها مائة العام تتفهم مشاعرها وتعطف عليها عطف الانثى على الانثى ، عطف الانثى المجربة التى عركتها الحياة وأدركت أبعاد الازمة الروحية التى انتابتها بسبب التوقف عن الانجاب فى وقت مبكر من العمر بعد أن منحت زوجها ابنتهما الوحيدة التى من الله بها عليهما بعد عامين من الزواج . وبعدها وقع لها ما وقع من جراحات فى الرحم فى وقت كان فيه طب النساء فى العالم متخلفا .

كان ذلك سنة ١٩٣٨ حين أجريت لها أول جراحة فى الرحم فى لوزان . ولا تنسى الاميرة شويكار هانم أفندى التاريخ ، عادة تشير اليه بالشهر والسنة وتقول : كان ذلك فى ديسمبر ١٩٣٧ عندما نصحها طبيب السراى بضرورة السفر الى لوزان على عجل ، فسافرت هى ووالدتها دون ابطاء ثم لحق بهما اللواء عويس بك بعد اسبوعين .

رفض جلالته السماح لزوجها بالسفر معها للوقوف الى جانبها ساعة اجراء الجراحة ، ورفض كافة توسلاتها وقال لها أنه فى حاجة الى عويس بك لازاحة حكومة مصطفى النحاس باشا واسناد الوزارة الى محمد محمود باشا ، وهذه امور تتعلق بمصلحة البلاد العليا . فسافرت هى وأمها بمفردهما ولم تنس هذا الموقف لجلالته حتى هذه اللحظة ، وقد حز هذا الحادث فى نفسها ، فقد كانت جراحتها خطيرة وفقدت بعدها القدرة على الانجاب نهائيا بعد استئصال الرحم ،وتشابكت

مشكلتها الخاصة مع سياسة الدولة العليا • لكن لم يكن يهمها وهى راقدة وحيدة فى لوزان أمر الوزارة والى من تسند : مصطفى النحاس باشا أم محمد محمود باشا ، فما يهمها هو فقط بقاء عويس بك الى جانبها ليأخذ بيدها •

ومنذ استئصال الرحم لها وهى تتحمل مضايقات ومداعبات الجدة بصدر رحب • فقد وقفت الى جانبها ، وشجعتها على الاعتناء بهندامها وبثت فى نفسها شجاعة بعد أن اسودت الحياة فى عينيها وأحست بنفسها كالارض البور أو الشجرة المقطوعة • كما أن الجدة وقفت الى جانبها عندما اعترضت على طلاق جلالته من الملكة فريدة وزواجه بناريمان ، وأدانت هذا الزواج ووصفته بالبطلان •

بكرت الجدة يومها بالهبوط الى قعدة البهو أربعين دقيقة عن موعدها ، وأبدت استياءها من مسلك جلالته لعويس باشا ، ثم أضافت قائلة :

ـ هذه معاندة لارادة الله ، فاذا كان جلالته يبحث عن وريث للعرش ، ففى العائلة من هو أحق بالتاج من صبى يولد لناريمان •

ولكى يريح اللواء عويس باشا جدته العجوز ، قال لها بالفم الملآن:

ـ أنا لا أتصور امكانية الطلاق من الجالس على العرش •

ولم تتركه الجدة حتى أقسم لها على المصحف قائلا : أنا شخصيا لا أفكر فى زواج أو طلاق بسبب حرمانى من ذكر يرثنى •

وعادت الى الاميرة شويكار رفقى عافيتها بعد ضعف ، وحسن رونقها بعد ترهل ، وغضت النظر عن علاقة زوجها بقريبتها القادمة من باريس علية سيف النصر ، وأدركت أنها علاقة عابرة • لكن الحزن لم يفارقها لما حدث للملكة فريدة •

دارت هذه الخواطر فى رأس الاميرة شويكار رفقى متلاحقة فى أثناء انتظارها لنزول زوجها الى البهو • لقد اضطربت أحوال البلاد هذه الايام الى الحد الذى يذكر بسقوط أسرة عبد الحميد أو الثورة البلشفية الحمراء • اختلطت الامور ، وحمل المتطوعون السلاح لمحاربة الانجليز • ووسط هذه المصائب السياسية ، يتعلق قلب زوجها بالاميرة علية سيف النصر • سرت أقاويل متعددة حولهما ، كما أن فتاة انجليزية لعوبا بدأت تلاحقه علانية فى الاندية قيل أن اسمها مارجريت وأنها مقربة من السفارة الانجليزية • وأبعدت الافكار السياسية عن رأسها ، وبقى خوفها على زوجها من هؤلاء النسوة •

الاميرة شويكار رفقى تدرك عمق مشاعر الخوف التى تصيب أهل

البلاط ، وقدتربت فى صغرها على مقربة من السراى ، وعرفت تلك الاشارات الغامضة التى تصل الى السراى فجأة فتنذر بأعظم الكوارث، فبعد كلمات غامضة من المندوب السامى منع الانجليز الخديو عباس حلمى الثانى من العودة فظل محتجزا فى البلدان الاوربية حتى مات مشردا فى الغربة ٠

كانت الاميرة شويكار صغيرة السن حينذاك ٠ وسمعت والدها الامير رفقى خورشيد يقول لامها : الانجيز غاضبون من الخديو ، فهونت والدتها الامر عليه ، وطمأنته قائلة : الخديو على علاقة طيبة بالباب العالى ٠

وعزل الانجليز الخديو عباس حلمى الثانى ، ما من مرة قالت أمها شيئا وتحقق ، كانت الاحداث تكذبها فى الحين والتو ، واقتنعت الاميرة شويكار منذ نعومة الصبا أن النساء لا يفهمن فى السياسة ، وان كان فى مقدورهن حبك المؤامرات ، أما الساسة فمثل الحواة ، يمسكون القبعة ويخرجون منها أرنبا حيا ، كانت تقول ذلك لوالدها بعد أن عفا عنه الملك فؤاد وسمح له بالعودة الى مصر وهى تسأله عن بنات الخديو عباس حلمى الثانى من زوجته الأولى اللاتى كانت تلعب معهن فى طفولتها فى سراى مسطرد ــ فيؤيدها بقوة ٠ وشبت ونضجت وتزوجت وهى بعيدة عن الاحداث المهمة وقد انقطعت علاقتها بالسراى بعد طرد عباس حلمى الثانى ، وطوال عهد جلالة الملك أحمد فؤاد ، حتى عادت ثانية الى هموم السراى من الابواب الخلفية بسبب انغماس زوجها اللواء عويس باشا فى العمل فى السراى فى عهد فاروق ٠

المخاوف التى تدهم زوجها هذه الايام تشبه تماما تلك التى دهمت والدها الامير رفقى خورشيد سنة ١٩١٤ ٠ كان ذلك يوم ١٩ ديسمبر كانت تستعد للاحتفال بعيد ميلادها العاشر ، وقد اعدت مربيتها الالمانية « تارتا » من عشرة طوابق ، وفى العشية من مثل هذه الساعة قدم والدها ، وهمس فى أذن أمها بشيء ، وخرج ، سافر الى روما بالباخرة ، وتوجه من هناك الى الآستانة ، وغاب عن مصر حتى سمح له الملك فؤاد بالعودة بوساطة من اسماعيل صدقى باشا ٠

كانت الاميرة شويكار مشغولة باعداد الشاى لزوجها بعد ظهر ذلك اليوم ، وتحاول تذكر اسم المعتمد البريطانى الذى تسبب فى طرد الخديو عباس حلمى الثانى وهى تضيف بعض الحليب الى فنجان الشاى ، وقد غاب عنها أيضا اسم ذلك الرجل الذى كان علما فى مصر منذ أقل من نصف قرن ، وكانت والدتها تسميه السفاح ، وتقول لها

أنه علق المشانق لفلاحين فى قرية ‥ قرية ‥ وضاع اسم القــرية وغاب عن ذاكرتها ، وابيض لون الشاى فى الفنجـان بسـبب زيادة دفقات الحليب ، فنحته جانبا ، وبدأت فى صب الشـاى فى فنجـان آخر ، وقد توقفت عن التفكير فى السـياسة وأمور السراى ، وثبتت عينيها على فنجان الشاى ، حتى لا تخطىء فى كميـة الحليب وتغضب زوجها ٠

قدمت الاميرة شويكار الشاى لزوجها بعد أن اعتدل فى جلسته وسحب قدمه المفرودة مرحبا بها ٠ وتناولت بيد مهتزة الفنجان الآخر الذى ابيض الشاى فيه ، لتشربه وتسرى عن نفسها بكراهية الانجليز

كانت أشعة الشمس قد ارتسمت على السجادة المفروشة فى البهو على هيئة فارس بفعل الزجاج المعشق الملون ، فأضفت عليها لونا أحمر قانيا ، الى جانب اللون الاصفر الذى يميز شعور الاميرات الفارسيات وهن يتسامرن فى جناحهن حول النافورة ٠ وبينمـا الاميرة شـويكار تحتسى الشاى صامتة الى جوار زوجهـا ، سقط بصرها على السجادة فوجدت سيف الفارس الهابط من السماء عبر الزجاج المعشق يضرب عنق الاميرة التى تتصدر الجلسة ، فتشاءمت ، وسـاورتها رغبة فى ازالة السجادة من البهو وتحطيم زجاج النوافذ المعشق ، ومع رشـفات الشاى تمنت أن تغيب شمس هذا النهار سريعا أو تمر سـحابة على المنطقة فتحجب الشمس ، ويغيب سيف هذا الفارس الهابط من السماء ليجز رقبة الاميرة ٠

زجاج النوافذ والردهات المعشـق فى هذا القصر لا يروقها على الرغم من اعتزاز زوجها به وزعم ابنتها الاميرة جويدان أنه على الطراز الرومانى الاصيل ، وترى فى رسوماته وثنية ظاهرة ، وان تعبـدت ذات يوم وأدت فريضة الصلاة ، حولت عينيها عن هذه الرسـومات الملونة التى تذكرها بسان جورج وهو يطعن الحية ٠

هذه السجادة العجمى أهدتها لها الاميرة فوزية لما كانت زوجة للشاه وظلت تزين جدار البهو حتى طلاقها منه ، فرأى زوجها أن يفرشها على الارض ، وقد أيدته جدته فاطمة هانم زادة ، قائلة : ان الشاه لن يأتى ثانية الى مصر ليغضب من دوس هديته بالاقدام ، لكنهـا فى قـرارة نفسها كانت تدرك أن ازاحة السجادة عن الجدار ووضعها على الارض سوف يسعد جلالة الملك فاروق ٠

ربما كانت فاطمة هانم زادة هى المرأة الوحيدة فى العالم التى تفهم فى السياسة ، فهى امرأة عركتها الحيـاة ٠ لذا كادت أن تطلب من

زوجها وهي تقدم له الشاى بعد ظهر اليوم استشارة جدته فيما يقلقه لكنها صمتت ·
وفجأة قال هو لها : أخي يطلب وضع بقية مجـــوهرات جـدتي وأموالها في خزانة العائلة في جنيف ، ويرفض الاسهام في انشاء مصنع المعلبات ·
وسألته الاميرة شويكار عن رأيه ، فقال لها أنه يدرس الموضوع · الاميرة شويكار تود أن تنصحه بالعمل بما تشير به جدته ، فقد عاشت مأساة أسرة عبد الحميد في الغربة ، وانتظرت منــه أن يزيد ، لكنــه صمت · التجاعيد على وجهه غائرة وعميقة ، وكأن العمر تقدم به فجأة عشرين عاما ، في نظراته الثابتة خوف ما ، وتأكدت الاميرة شويكار أن زوجها ليس غاضبا ولكن خائف ، ففي حالة الغضب تنتفخ أوداجه ، وتهتز شفتاه بقوة ، ويتناثر الرذاذ من بين أسنانه ، ويصـــهل مثل الحصان الهائج ويده على مسدسه ، أما اذا دهمه خوف ، غارت قسمات وجهه ، وشق أخدود عميق جبهته ، وبرزت وجنتاه وقد فصـــلهما أخدودان عميقان عند منتصف الانف ، وتهدلت شفته السفلى وكشفت عن أنياب حادة وبان لونها الوردى المقزز ·
غريزة الانثى فيها تفضل صورة زوجها غاضبا ، فعند خوفه ، يكون متهالكا ضعيفا ، ولا يخيفها من غضبه الا حماقاته ، فيثور لاتفه سبب ، ويجلد الفلاحين في وحشية وجبروت لا يليقان بانســان متحضر ، في الاسبوع الماضي قالت له غاضبة بعد جلده لكرامة ابن ســقا العزبة البلد يكفيها بدراوى باشا واحد ·
فضحك طويلا وقال لها : صنف فلاح يفهم بالجلد ·
الاميرة جويدان غضبت أيضا من والدها بسبب جلده لهذا الفتى الفطين كرامة ، وتوقفت عن الذهاب الى الجامعة الامريكية لعدة أيام ، مدعية أنها أصبحت تخجل من رفيقاتها ·
الوصيفات تحت امرتها ، ينتظرن اشارة منها ، وهي جالســة في البهو تجتر خواطرها ، وقد هاجت الطرقات ، واشــتعلت الفتــن ، وارتبكت أحوال السراى ، وأرهقت زوجها الاجتماعات بسبب تضارب رغبات جلالته · وهي لا تعرف هل تحسن صنعا بالصـعود اليه في جناحه أم تنتظر حتى يرسل لها · هذه هي عادتها لا تقتحم خلوته في مكتبه الا باشارة منه ، ليس لانهـا أميرة وتربت في السراى ، ولـكن لانها تدرك أنه عندما يكون مشغولا ليس من اللائق اقتحام خلوته وقطع أفكاره ، بل تتركه فترة حتى يهدأ وينزل الى البهو أو يأتى الى جناحهـا ويفضى لها بمكنون قلبه ·

ومضى الوقت ثقيلا . هى قلقة ومتعبة وعيناها تتعلقان بالدرج وقد أرهفت أذنيها لكل نأمة تصدر عنه ،كما أرهفت رئتيها وأنفها وأصبحت تستنشق الدخان الذى ينفثه في جناحه بعيدا عنها ، فتسعل .

على مقربة منها تقف شمورجى كالفة زبيدة التى تستريح اليها ، وقد صبت لها قهوجى كالفة فنجانين من القهوة المحوجة بالمستكة والحبهان حتى تستعيد نشاطها وتقاوم الصداع . تتنازعها رغبتان ، احداهما تدفعها الى الصعود الى زوجها في جناحه ، ورغبة ملكية أخرى تسرى فى دمائها تنصحها بالبقاء فى موضعها حتى ينزل اليها معاليه ، فتستقبله بما يليق من احترامات ، وتصب له الشاى وتقدمه له بيديها بدلا من قهوجى كالفة . تصب الشاى له على صينية من الذهب الخالص وتضيف اليه عدة دفقات من الحليب لا تزيد أو تنقص مع السنين ، فزوجها تعاف نفسه الشاى ان كان قاتما مثل القهوة أو ناصعا مثل الحليب ، فالشاى الذى يتذوقه له نكهة وطعم ولون أيضا .

اتقنت الاميرة شويكار هذه الطقوس التى تروق زوجها ، وقد دربتها عليها والدته ، وعلمتها طرق صنع الشاى وأنواعه ، قبل أن تتنازل لها عن حق تقديم الشاى له قبل وفاتها بعد سنوات . كانت تردد على مسامعها : عويس ابنى مثل المرحوم والده البكباشى على محمد يحب الشاى ويكره الخمور ، وقد تعلم والده هذه العادة من الانجليز في السودان . كان الحاكم العام الانجليزى فى الخرطوم يأتى الينا ، وأعد لهما الشاى بنفسى .

لكن الاميرة شويكار رفقى تكره الانجليز كراهية مطلقة ورثتها عن أهلها بسبب عزلهم للخديو عباس حلمى الثانى ، لهذا كرهت الشاى ولم تعد تشربه بعد اتقان صناعته . كذلك كانت تكره أحاديث حماتها الشديدة الاعجاب بالانجليز وعاداتهم ، وتراهم قوما من حثالة البشر ، وأوغادا يتصفون بالنذالة والضعة ، وقررت أن لا تبث فى نفس وحيدتها جويدان هذا الوله الزائد بالشاى وأفضل طرق غليه وأنواعه وطرق تحليته . وقد وفرت عليها ابنتها هذه المشقة ، وشبت ونمت كانت تشرب الكاكاو فى صغرها ، ولما نضجت أصبحت تحاكى جدتها فى شرب القهوة التركى حتى بزتها فى عدد الفناجين التى تحتسبها صباحا ومساء ، كما أخذت عنها تدخين النرجيلة فأصبحتا تدخنان النرجيلة سويا بعد الغداء والعشاء فى جناح فاطمة هانم زادة .

وأخيرا صعدت الاميرة شويكار الى جناحها ، جسدها ينتفض وقد فارقتها شجاعتها في الذهاب الى زوجها دون سؤال منه ، وخلفها

الوصيفات ، ودلفت الى الحمام الذى طيبته العطور • ونزلت الى المغطس وتركت جسدها للوصيفات يدعكنه بالدهون ويدلكن عضلاته المشدودة المتوترة ، ويقدمن لها عصير التفاح المخلوط بالبرتقال ، ويلهجن بالدعاء لها بالسعادة وهن يلمسن عضلاتها ويمتدحن طراوة جلدها وشبابها •

يحطن بها وكأنها فى ليلة زفافها • زبيدة شمورجي كالفة وصيفتها الخاصة هى الوحيدة من بين وصيفاتها التى تسمح لها بدعك الاماكن الحساسة فى جسدها ، فتتركها،تمد يدها تحت الماء وتدعك لها الثديين وأسفل البطن وباطن الفخذين •

العطور الناعمة تغرقها فى جو من المتعة الخفية والبخار الدافىء يصيبها كل مرة بالخدر ، فتستسلم لعبث وصيفتها زبيدة شمورجي كالفة ، وتلف وجهها غلالة خفيفة من البخار تحجب عنها رؤية بقية الوصيفات وقد بدأن فى الانسحاب بعيدا عن هذا الطقس الحريمى الذى اتقن تفاصيله وسبرن أغواره •

بعد الحمام ارتدت الروب فوق فستانها الكشمير وعقصت شعرها فى كعكة فوق رأسها فبدت كملكة متوجة ، وعادت اليها صرامتها ويقظتها واحساسها بهويتها الملكية ، فهى الاميرة شويكار رفقى ابنة الامير رفقى خورشيد الذى وطد علاقات الخديو عباس حلمي الثانى بالباب العالى والحزب الوطنى ، واتصل بالقيادات الوطنية ورجال الصحافة ، ووضع سياسة مكافحة الانجليز ، وعارض اللورد كرومر علانية •

وفرحت لانها تذكرت اسم ذلك السفاح الذى شنق الفلاحين فى قرية دنشواى •

أمام المرآة جلست لتتزين قبل وصول ضيوف ابنتها الاميرة جويدان ••

وكلما رفعت يدها لتسوى شعرها لمع الخاتم السولتير فى اصبعها وانبعثت منه أضواء تخطف بصرها وتتلاقى مع انعكاسات الضوء على البروش الذى يزين صدرها والقرطين اللذين يزينان أذنيها •

قلبها موزع بين حماس زوجها لاقامة مصنع المعلبات لتحقيق حلم والده ، وتلك المخاوف التى يبثها فى قلبه حمدى بك • وليت الامور قد توقفت عند هذا الحد ، فحمدى بك ينصحها ويلح عليها بوجوب وضع أموالها ومجوهراتها خارج البلاد •

هل تهرب هى وابنتها من مصر لتعيشـــا فى الغربة كما عاش والدها الامير رفقى خورشيد لسنوات طويلة !؟

لا تدرى !!

وتوجهت لجناح ابنتها لترحب بضيوفها ، وقد رسمت ابتسامة على وجهها . ولمعت عيناها بفرحة عليها أن تخفيهـــا عن ابنتها الاميرة جويدان .

ولان الامراء وأهل السـلطة والدبلوماسـيين يخفـون أحـزانهم ومخاوفهم ويكتمون مشاعرهم مهما كبدهم ذلك من عنـــاء ، فان عليها أيضا أن تخفى مشاعر الفرح بلقاء رفيقة ابنتها الآنسة جولى ابنة مساعد الملحق الانجليزى ..



(٨)

وقف عباس أبو حميدة في دار العمدة يستمع الى ستهم متعجبا وهي توشوش في أذنه خجلة ، قائلة :
ـ ضربني الجرب يا ولد عمي من تحت لفوق ·
احتبس صوتها وهي تنهنه مكملة :
ـ والعمدة يقول المعالج ربنا وعكاشة فيه البركة ·
تأمل جسدها الفارع وحسنها الذى لا تخفيه العتمة التي تحط على الباحة ، ورمى رأسه الى الخلف ، وطوح جذعه الى أعلى متأملا عبرة الايام وجرى السنين ·
عرت ستهم قدمها وكشفت عن أصابعها المتخثرة ، ثم رفعتها وهي تستند الى الحائط .ففاحت منها رائحة · أنزلت قدمها خجلة وأسدلت الجلابية الطويلة ، لتطوى الرائحة ، وهي تضيف بصوت ميت :
ـ والجرب طالع تحت الركبة ·
قال لها عباس أبو حميدة حزينا :
ـ هذا ليس جربا يا بنت عمي ·
فاصغت اليه دهشة وقد فتحت عينين واسعتين مثل عيني غزال شارد ، وتحركت غمازة الحسن التي تضيء وجهها ثم اضافت خائفة :
ـ وماذا أيضا يا ولد عمي ؟! رضينا بالجرب ولم يرض بنا الجرب
قال لها عباس أبو حميدة مواسيا :
ـ هذا مرض أيوب ·
حبست ستهم العويل في حلقها · تماسكت ، وان كان فزعها قد كشف عنه ضعف صوتها ، وتساءلت :
ـ والعمل ؟!
قال عباس أبو حميدة وهو يعمل فكره بسرعة :
ـ زيارة الطبيب واجبة ·
لطمت ستهم خديها قائلة :
ـ كيف ؟! العمدة حلف على ·
حسم عباس أبو حميدة الامر قائلا :
ـ اليوم في العشية أو غدا صباحا ·

قالت المرأة ، التي لا يعرف قلبها طعم الخوف ، خائفة وقد هدها المرض :

ـ حمادة أبو جبل يطلقنى يا عباس ٠

فأجابها مستخفا به :

ـ الطلاق بأمر اللواء عويس باشا ، واللواء مشغول هذه الايام ٠

وطوح رأسه مرة ثانية الى الخلف ، وسرح بعيدا يفكر ، ثم طيب خاطرها قائلا :

ـ خير يا ستهم ٠ خير ان شاء الله ٠

قالت المرأة وقد ضاقت بها السبل :

ـ من أين الخير يا عباس ؟!

فكر عباس أبو حميدة طويلا وهو يشد الشعيرات الخفيفة البيضاء فى ذقنه ويتلمسها ، وكأنه يعد السنوات التى مرت منذ زواج ستهم من حمادة أبو جبل : عمر ثان ٠

رائحة المرأة تطغى على رائحة الفراخ الراقدة فى العشش ، رائحة زفرة مثل رائحة الارانب عندما تبول فى التراب تطارده وتملأ خياشيمه اقترب من عشة الفراخ فلم تصادفه الرائحة ، فابتعد عنها متشمما فى الباحة الواسعة ، وعلى مقربة من الجدار اصطدم قدمه بجردل تفوح منه الراحة ، فسألها :

ـ ما هذا يا ستهم ؟ دواء للكتاكيت ؟! ٠

قالت وهى تخفى جانب وجهها بالطرحة السوداء ٠

ـ غسول لاصابعى ٠

وحملت الجردل بعيدا واختفت ، ثم عادت وأخرجت له من صدرها حقا صغيرا ، وفتحته ، ففاحت منه رائحة نفاذة ، وقالت له :

ـ وبعد الغسيل أدعك رجلى بالمرهم ٠

حق صغير مثل حق الورنيش ٠ كل من دخل الجهادية يعـرفه ، فهو حق الجرب ٠ وضرب عبـاس أبو حميـدة كفا بكف متعجبا من بلادة حمادة أبو جبل التى سمحت له نفسه بمعاشرة امرأة ضربهـا مرض أيوب ٠ وقال فى نفسه متحسرا : يا صبرك يا حضرة العمدة ؟! تلاقيها منين والا منين ٠ من عويس باشا الذى ركبك ودلدل رجليه أم من جماعتك وقد ضربهم مرض أيوب من فوق الى تحت ٠ يا هنـاك يا عمدة وانت سارح كالحمار فى السبخ خلف معاليه ٠ وحسم عباس أبو حميدة أمره وقد أرهقته رائحة المرأة ، مضـحيا بسلامته وأوامر الرفاق قائلا لها بعد تردد :

ـ تعالى الدار عندى يا ستهم بعد ساعة زمن ٠

قالها بحسم ، فلم تراجعه ستهم أو تسأله ٠ تثق فيه كما يثق فيه أهل العزبة جميعا والنواحي القريبة ٠ زينة رجال عائلة أبو حميدة وأكثرهم رشدا وتعليما ، والوحيد الذى يعمل له الباشا ـ الكبير ألف حساب ، وقد طخ جده الباشا الكبير بعيار فأصابه بالعرج ٠ تفضله ستهم على زوجها حمادة أبو جبل ، ولولا الملامة لركعت أمامه قائلة : أحبك يا عباس ٠ عباس رفيق صباها وولد عمها ، وكانت من نصيبه لكن الباشا تدخل وزوجها من حمادة أبو جبل فى صفقة لاعادة الصلح بين العائلات ، ودفعت هى الثمن ، دفعته وحدها ٠

تقف أمامه منكسرة هذه اللحظات ، تلف الطرحة على وجهها وبيدها الاخرى تنحنى لتهرش أصابع قدمها اليمنى بقميصها التحتانى حتى لا تلامس يدها الجروح المتخثرة ٠ مرض أيوب والعياذ بالله لم يبق لها سوى الدود ليمرح فى جسدها ، وانتفضت فى وقفتها طالبة الصبر والسلوان كما صبر أيوب ، وقالت له طائعة :

ـ حاضر يا ولد عمى ٠

وغادر عباس أبو حميدة دوار العمدة عائدا ٠

ستهم مريضة بمرض أيوب يا أولاد ٠ مصيبة ٠ ولولا الملامة لنادى المنادى فى العزبة محذرا منها ، والعمدة غارق لشوشته فى الجرى وراء الباشا ليثبته عمدة بحق على عزبة عويس ، وليس عمدة صوريا مثل الزوج العرفى ٠ الغبى يعتقد أن الباشا مشغول بأمره وأنه سوف يسعى لتعيينه ، وها هى زوجته تمرض وهو مشغول بالجلوس الى جوار التليفون فى انتظار النبأ السعيد من الداخلية ٠

العتمة تحط على السكة ٠ وفى هرولته يضربه الهواء فتتطاير أطراف جلابيته الواسعة وتحتك ببعضها البعض وتصدر عنها أصوات مكتومة مثل النحيب الخافت ، وكلما امتلأت الجلابية بالهواء وانتفخت ضربها بعصاه الخيرزان الرفيعة وكأنه ينفضها من التراب فى ضربات متلاحقة مثل ضربات النقرزان ٠

يرمى رأسه الى الخلف ويميل بجذعه الى أعلى ويسدد نظراته بجانب عينيه متأملا مواقع قدميه ، ويسرح بعيدا متسائلا : هل أخطأ فى دعوة ستهم الى داره الليلة ؟؟!

زوجته الاروبة نفوسة بنت الشامى سوف ترحب بها وتأخذها بالحضن وفى زحمة السلامات والتعبير عن الشوق والسؤال عن الانجال وأخبار حضرة العمدة ، ترمى بجملة أو جملتين تستشف منها

غرض ستهم من وراء هذه الزيارة المفاجئة وقد دخل الليل عليهم ٠
هذه المرأة تصمت طويلا ، فاذا نطقت جرى لسانها بالكفر ، فى الصباح قالت له وهى تعد الشاى على الراكية دون أن تنظر اليه :
ـ والنبى البنت صباح كلامها حلو مثل بنات المدارس ٠
فوقع قلبه ٠ طوح راسه بعيدا ، وتأملها وهى مقعية على الراكية ولا تحول عينيها عن النار حتى لا يفور الشاى ، وتجاهل سؤالها بالصمت ٠ كاد يتهور من شدة الغضب ويدفعها بقدمه وهى مقعية على النار فيحرق وجهها لتدخلها فى شئونه ، لكنه تماسك ، فقد علمته الايام فضيلة الصمت ، وتشاغل باخراج عدة أوراق من سيالته وأخذ يخط عليها بالقلم عدة كلمات لا معنى لها ٠
قالت له وهى تصب الشاى :
ـ البنت كلها مفهومية ٠ دكتورة والنبى ٠
وضحك عباس أبو حميدة ، فقد اكتشفت زوجته نفوسة بنت الشامى السر ، وفضحت البنية الهاربة من البوليس فى أقل من عشرة أيام ، لكنه صمد أمامها ٠ تماسك ٠ ان فضول هذه المرأة سوف يقوده الى السجن باذن الله ٠
خسارتك يا نفوسة يا بنت الشامى فى عزبة عويس ٠ وأدار الحديث معها وكأنه يتحدث الى اللواء محمد ابراهيم امام رئيس القسم المخصوص ، فرد عليها بسؤال وهو يرشف الشاى :
ـ كيف يا نفوسة ؟!
قالت له وهى ترسم العجب على وجهها ، فى تصنع ودلال من يعرف السر :
ـ فى أول يومين ، كانت تمسك الحلة على النار وتحرق أصابعها ولا تنفخ اللبن لما يفور ٠
وسألها عباس أبو حميدة ضاحكا :
ـ والآن يا نفوسة !!
قالت له وهى تغمز بعينيها :
ـ تنفخ اللبن ٠
هل كشفت زوجته نفوسة بنت الشامى سر الدكتورة صباح من طريقتها فى غلى اللبن على النار أم تحدثت اليها فى غيبته وجرجرتها فى الكلام ، والله حذق هذه المرأة لا يفوقه سوى حذق ابراهيم امام ٠ وأحس نحوها بالاحتقار الذى يكنه لرجال القسم المخصوص الخونة ٠
صمتت ٠ قدمت له لقمة مقمرة وقطعة جبن قريش وبصلة خضراء

وذهبت تشطف وجهها ، وربطت شعرها الطويل وعصبته بمنديل يتدلى منه الترتر ، وتركته حتى انتهى من افطاره •

توجهت الى الباب وسدته • وقفت منتصبة ، صدرها مشدود ، وعيناها العسليتان تلمعان في زهو • وبصوت مرتعش ، منخفض ، خال من الغيرة ، أمسكت بقصتها تحت المنديل ، وقالت له :

ـ البنت دكتورة يا عباس • دكتورة هاربة من البوليس •

قال لها في غضب :

ـ وقعة أبيك سوداء •

مسحت الدموع التي تساقطت من عينيها ، وأخفت رأسها في طرف الجلابية ، وتهالكت فجأة فجلست على الارض منهكة • انقبض قلبه ، لكنه هون الامر عليها قائلا :

ـ المكتوب على الجبين تشوفه العين يا نفوسة •

فقالت له مستسلمة لتتأكد من ظنونها :

ـ هو مقدر ومكتوب ؟!

قال لها مؤكدا بالفم الملآن وقد أسقط في يده :

ـ نعم •

رضخت المرأة ، وقامت • عاد اليها كبرياؤها ، ربما لاحساسها بأنها أصبحت شريكة في السر ، واستراحت : صباح ليست فلاحة من غيط العنب وهاربة من أهلها ، انها طبيبة هاربة من البوليس ، جاءت لتختفي في عزبة عويس وعليها أن تضعها في نيني العين من جوه • طوال اليوم لم تعارضه ، استمعت اليه صاغرة ، خرج الى الغيط متأخرا وعاد مبكرا • حل البهائم ثم ربطها ، وأجل بيعها للسوق القادم • غادر العزبة ظهرا وعاد في العشية ، ولم تسأله عن تحركاته ، فسر زوجها في بير • ولما توجه الى دوار العمدة لم تسأله عن السبب •

ولكن هذا كله كوم وأن يدعو ستهم لداره لتوقع صباح الكشف عليها كوم • وسأل عباس أبو حميدة نفسه : كيف تهورت ودعوت ستهم لداري لتكشف عليها صباح !! حماقتي سوف تقضي على الجميع انه يكشف سره بنفسه ، ويضرب على الجلابية بالعصا ويعبر الطريق ساهما •

خالف أوامر الرفاق • ضعف أمام ستهم • استدرت عطفه بمرضها والمرض شرير ، وهي ابنة عمه أيضا ، ورفيقة صباه ، وعشقه الذي لا ينسى ، ولكن صباح •• ما ذنبها حتى يفضحها ويعرضها للخطر •

وعاد الى الدار مسرعا دون أن يمر على حانوت الحاج على كعادته

كل عشية ، يبحث عن الأمان المفقود بين الجـــدران ، وليلقى نظرة على قاعات البيت التي دفنت في أرضيتها صـــناديق الاسـلحة والمنشورات لحسن حظه أن صباح خففت الامر عليه ، وقد أخبرها أن المريضة ابنة عمه وأنها بمثابة اخته الصغيرة ، وأنه ضعف أمام مرضـــها وقد فاحت رائحة العطن من قدمها ومن جسدها كله . قال لها في ضعف: سامحيني يا بنيتي واغفرى لى ، والامر لك من قبل ومن بعد .

أدركت الشابة بفطنتها أن ستهم تهم عباس أبو حميدة ، وأنها اذا لم توقع الكشف عليها ، اصطحبها الى أقرب طبيب في مديرية الجيزة وثارت فيها نخوة منعتها أن ترد طلبا لهذا الرجل ، وصـــارحته بأن زوجته نفوسه فضحتها فى أول يوم من طريقة قعـــدتها على الارض ، ونصحتها بأن تتربع على الارض وتفتح فخذيها على الاخر فى جلستها وتنزل بهما الى الارض وتلم الجلابية عليها وتستر نفســـها ، أما أن تضع ركبتيها تحت ذقنها ، فهذا عيب ، « وسلو » بنات غيط العنب وبنات بحرى لا يناسب بنات عزبة عويس . فاخبرها بحكاية غلى اللبن فضحكت صباح طويلا واعترفت بها لاصابتها بالزكام .

قالت له صباح أن نفوسة لا يمكن خداعها ، وأنها ســوف توقع الكشف على ستهم مهما كانت المخـــاطر . فهى طبيبـة ولا يمكن أن تتخلف عن عيادة مريض حتى اذا وقف لها ابراهيم أمام شخصيا على الباب ، وطلبت من رفيقها طالب الهندسة الهارب هو الاخر أن يرتدى ملابسه ليمثل دور الطبيب ، ويعرى قدميها وركبتيها وتحت ابطيها ، وأن يطلب منها دعك هذه الاماكن بقطعة قطن مبللة بالماء الساخن ، وأنها سوف تقوم بدور الخادمة ـ وبعدها حذرته من التطـــاول على المرأة أو لمس جسدها فهذه جناية ، وسألت عباس أبو حميدة قائلة :

ـ ابنة عمك جميلة ؟

قال لها الرجل وهو يطوح رأسه الى الخلف :

ـ فلق قمر .

التفتت صباح الى رفيقها فى عفوية وغيرة أنثوية ظاهرة . قائلة :

ـ سمعت ، فلق قمر .

أدركت صباح بعد معيشتها عشرة أيام فى عزبة عويس أن جدران الفلاحين وعششهم لها آذان .

هؤلاء القوم الذين يتظاهرون بالبلاهة لهم آفاق واســعة يحلقون فيها ، ولهم دروب ومســـالك معقـــدة يدورون فيها ليقضوا حاجاتهم ويتغلبوا على أعدائهم ، لا تغيب عن فطنتهم شاردة وان أعلنوا عدم الفهم ،

خبرت الفلاحين فى القصر العينى لعدة سنوات : أجســـاد واهنة هدها المرض . لكنها لم تعرفهم وهم أحياء يضربون على الارض . تعاملت فى أقسام القصر العينى مع أجســـادهم فقط بالسماعة والمشرط وبينها وبينهم الجوانتي . استمعت الى الآهات والكلمات القليلة التى تعبر عن أوجاعهم من وجوه شاحبة مستسلمة وكان المشرط بينها وبينهم . أما فى عزبة عويس فقد جلست معهم على الارض ، وغمست لقمتها فى أطباقهم ، وشاركتهم ألحفتهم وتوسدت حصرهم ، رأتهم أناســـا على حقيقتهم ، أناسا كالجن يلعبون بالبيضة والحجر ويسيرون على حبال رفيعة ويتسلقون القطارات وينعسون عليها وهى تنهب الارض .

فأين محمد ابراهيم امام من هؤلاء القـــوم ، وهـــل تتخلف عن الكشف على ستهم بسبب خوفها من مجموعة أفندية فى البندر ؟!

وافقت صباح على الكشف على ستهم دون تردد أو خوف . واستقر رأى ثلاثتهم بعد تدوير الامر على عدة وجوه على أن الاحتيـــاط واجب وانه لا يجوز الكشف عن شخصيتها مهما كان الثمن ـ فهذه هى أوامر الرفاق . وللخروج من هذا المأزق ، تطوع عوض طالب الهندســـة لان يمثل دور الطبيب ويغادر العزبة بعد الكشف عليها ولا يعود اليها .

خلع عوض ملابس الزرع والقلع ، وارتدى البدلة ، ووضع شاربا على عجل وجلس فى المندرة يدخن ويضع رجلا على رجـــل . واعـــدت صباح الشاى وجلست فى صحن الدار مع الحريم تنتظر ستهم .

لمحتها صباح قادمة فى العتمة . فلق قمر . فى وقفتها كبرياء ، وتعاطفت معها ، وعزمت على معالجتها حتى اذا دخلت صراعا مع رجال القسم المخصوص ، وتعرضت للخطر .

ونادى عباس أبو حميدة على ابنة عمه قائلا :

ـ تعالى يا بنت عمى . الدكتور هنا .

ووقفت صباح ترقب المرأة وهى تندفع نحو عوض لتقبل يده ، وفى رفقتها نفوسة كظلها ، وسألها عوض قائلا :

ـ خير يا حاجة ؟!

قالت ستهم منكسرة :

ـ رجلى يابيه .

قال عوض كالاطباء :

ـ اقعدى .

وبعدها طلب مياها ساخنة ، فنادت نفوسة على صباح ، فافرغت صـــــباح براد الشاى فى سلطانية وتناولت فوطة نظيفة ودلفت الى

المندرة في جلابيتها الواسعة وهي تخفى جانبا من وجهها ، وتراجعت نفوسة وآفسحت لها مكانا ، فأقعت على الارض وأخذت تفحص قدمها المتخثرة وهي تدعكها بالماء صامتة .

قال عوض :

ـ القدم الثانية .

فدعكتها صباح وهي تتحسسها دون جوانتى وتضغط عليها بأصابعها العارية . ثم سأل عوض :

ـ أين أيضا ؟!

قالت ستهم وهى تخفى وجهها :

ـ تحت الركبة يا بيه .

طلب منها أن تعرى ركبتها ، فاستدارت الى الخلف وعرتها ، ففحصتها صباح وشدت جلدها وتبينت عروقها الرفيعة .

طلب عوض من ستهم أن تعرى كتفها ليكشف على ابطها ،فتراجعت ستهم الى الخلف فزعة مستنجدة بنفوسة ، وقال لها عباس وهو ينسحب من المندرة :

ـ اسمعى الكلام يا بنت عمي .

ومدت نفوسة يدها وفتحت زراير صدر الجلابية قائلة :

ـ لا تخافى يا حبيبتى .

أنزلت لها الجلابية فبقيت في قميص ساتان وردى كشف عن صدر بارز مشاكس ، ورفعت يدها فبان ابط بض ناعم به شعيرات فضية اللون ، وتلمست صباح جلدها بعناية ، وانتقلت الى الابط الآخر .

أومأت براسها ، ففهم عوض الايماءة ، فقال :

ـ خلاص ياحاجة . خير ان شاء الله .

سحبت ستهم الجلابية عليها خجلة لانها عرت كتفيها أمام الغرباء وكشفت عن صدرها .

أخرجت حق الجرب ، وفتحته أمام عوض ، فتناوله وقربه من أنفه ثم قدمه الى صباح فرمته فى ركن الغرفة ، فقال لها غاضبا :

ـ هذا دواء فاسد .

فقالت ستهم وهى تضرب صدرها :

ـ يا مصيبتى .

أنهى عوض هذه التمثيلية السخيفة ، معلنا انتهاء الكشف ، قائلا:

ـ تفضلي بره ٠

دفعت نفوسة ستهم أمامها الى خارج المندرة ، وشدت باب المندرة خلفها بعد أن طلبت من صباح أن تمسك اللمبة نمـرة عشرة ليكتب الطبيب الروشتة ، مع أنها أدركت بغريزتها أن صباح هى التى كشفت على ستهم : أميرة وحياة النبى ، وقلب المؤمن دليله ٠ قلبها أخبرها من اليوم الاول الذى حلت فيه صباح عليهم أنهـــا بنت مدارس ، وأن الجلابية الطويلة أو الطرحة ليست خائلة عليها ، لكنها لم تتصـــورها طبيبة ٠

تناول عوض اللمبة من الدكتورة صـــــباح ، وانحنت هى تكتب الروشتة بخط واضح مقروء :

ثلاث حقن ـ حقنة كل يومين فى العضل ٠

دواء سقسقة ثلاث مرات يوميا ٠

اعادة الكشف بعد ستة أيام ٠

وفى ورقة أخرى جانبية كتبت : اكزيما حادة معدية مصـــحوبة بهرش ٠

صفق عوض ، ونادى عباس أبو حميدة على ســتهم ، فدخلت ٠٠ مد عوض الروشتة قائلا :

ـ ثلاث حقن ٠ كل يومين حقنة ٠ دواء سـقسقة ثلاث مـرات يوميا ٠ اعادة الكشف بعد ستة أيام ٠ بالشفاء ٠

انحنت ستهم على قدم عوض تقبلها ، فمنعها ، وغادرت صـــباح المندرة وتبعتها السيدتان ، وأغلق عباس أبو حميدة المندرة على عوض وهو يقول لاهل بيته من خلف الباب :

ـ أوصل الدكتور واشترى الدواء من البندر فى ساعة زمن ٠

(٩)

آلاف الشموس الصغيرة ترمى بأشعتها الناعمة وتغرق جناح الاميرة جويدان • طرفت عينا عكاشة وهو يتقدم الى الســادة فى قفطان على مقاسه وفوقه جبة من الجبردين الفاخر المستورد •

وقف فى نهاية البهو الكبير والى جانبه اللبيس وزبيدة شمورجى كالفة وخلفهم قهوجى كالفة وعدة وصيفات • وخارج البهو ، على بسطة الدرج ، وقف قطامش وعبد الواحد أفندى •

نادت الاميرة شويكار رفقى عليه :

ـ فلاح عكاشة •

فتقدم نحوها ، وانحنى قليلا قائلا :

ـ احترامات • تبجيلات سمو الاميرة •

ثم التفت الى الجالسات على المقاعد المذهبة ، قائلا :

ـ احترامات ضيوف كرام •

انحنى انحناءة رقيقة كمـا علمـه اللبيس • ونطق بالتحية وفقـا للنبرة التى لقنه اياها عبد الواحد أفندى فى المطبخ ، فجاءت انحناءته طبيعية وتحيته صادقة •

وغمز عبد الواحد أفندى لقطامش راضيا ، فالبداية طيبـة ، وقد وعى عكاشة الدرس ، ورفع قطامش رأسه الى أعلى متنهدا ، داعيا من أعماقه أن تمر الليلة على خير •

فى مطبخ الخدم تم تلقينه التحية ، ووضع اللبيس النوبى أمامه طاجنا من اللحم وطبقا من الارز بالكـــلاوى ، وقال له عبد الواحـد أفندى :

ـ فلاح عكاشة • أغانى لطيفة •

عكاشة يزدرد اللحم ويزغطه كالبطة ويداه غارقتان فى الدسـم ، وقد شمر عن أكمامه ، وضروسه دائرة كالرحاية ، وهو يدير رأسـه بينهم متسائلا بينه وبين نفسه : حلم أم علم •

اذا انتهى من زغط هبرة ، تناول جرعة ماء ، وأخذ نفسا طويلا ، وهو يقول :

ـ على عينى •

كلهم خائفون ، أما هو فسعيد بالمهمة ، سيغنى موالا وراء موال ،

والمواويل كثيرة فى رأسه · ولما وقف أمامهن وقد امتلأ بطنه ، طالت قامته وكبر مقامه ، وحسس على القفطان وتأملهن بعينيه ، ورفع يده اليمنى محييا ، وهو يبتسم فى سرور ، وفى عينيه شعاع حيى ، قائلا :

ـ احترامات سمو الاميرة ، احترامات ضيوف كرام ·

ابتسمن له ، رأى الضحكة فى أعينهن · حسنة تزين وجه القمورة الجالسة الى يساره ، جميلة ، وتعلقت عيناه بها ، نزل الى ساقيها وهو يتذكر قدمى ستهم المصابتين بالجرب وفى كل حول تكويه بالنار وزادت إبتسامته لها واتسعت · ها هى ست ستهم وتاج رأسها تبتسم له · ولم يرض عكاشة عن التحية الجافة التى لقنهـا له عبد الواحد أفندى ، فالتفت الى اليمين حيث تجلس سمو الاميرة شويكار رفقى ، وقال مغنيا فى طرب :

ـ بسم الله والصلاة عا النبى

أمرا بنات أمرا   وشموس جالسة على كراسى
نورت ليلنا   الاولة : أميرة وبنت بلدنا
والتانية : قمر اربعتاشر   والتالتة : نجمة منورة عالية
والصحبة · وردة ، وفلة   والكل على راسى ··

صفقت البنات طويلا ، وضحكت الاميرة جويدان وقد أعجبها هـذا الفلاح الذى ينطلق لسانه بالشعر ابن لحظتـه ، وابتسـمت الاميرة شويكار ابتسامة تنم عن شكرها للتحية ·

وانطلق عكاشة مغنيا :

يا وابور الساعة اتناشر   يا مقبل عا لصعيد
سـلم لى عا الحبايب   ومحمـد ولـدى
يا جريدة النخل العالى   طاطى ورد السـلام ·
سـلم لى عا الحبايب   يا غايب لك زمـان

وعندما وصل عكاشة الى الوصلة التى يقول فيها « تحسبنى اليـوم جفيتك دا البعد اللى جفاك » سحب اللبيس النـاى الصغير من داخل بزته ، وانطلق الشجن فى البداية خافتا : نواح من بعيد على المحبوب ، ولما وصل عكاشة الى الوصلة التى يقول فيها :

خايف أروح ؟ مزاته   ناعسة تتقل على
ضمينى وأنا اضمك   ليل الشقا طويل
شمس العصارى غابت ·   يا لى بلادك بعيد
فرش الحمام عا لمية   فرحوا له الصيادين

طوح بهم الناى بعيدا وحملهم الى مزاتة ، فى نغمات طويلة سارحة

ورعشاته كرجفات قلب عاشق ، تارة من قرار الناى ، من قاع القلب المجروح بالبعاد ، وتارة من النغمات العليا وكأنها فيض نعمة من السماء وعكاشة يعيد : شمس العصارى غابت يا لى بلادك بعيد . ولما قال : فرش الحمـــام عالمية ، كانت الطبلة قد أخذت تحاكي ضربات أجنحة الحمام ، وعلت مهتزة في دقات منتشية بالفرحة ، وعكاشة يتمـــايل قائلا :

ـ فرحوا له الصيادين .

ختم عكاشة الوصلة وهو يهز يديه داعيا الفتيات للغناء ، فانطلق صوتهن رقيقا عذبا : فلس الهمام آالمية فلهوا له الصيادين

وأعاد عكاشة الوصلة ، وصمت ، فانطلق صوت النسوة مغنيا :

فرش الحمام عالمية فرحوا له الصيادين .

وقد فارق الوصيفات خوفهن ، فحلت عقدة ألسنتهن ، وقد لمحن بأعينهن الاميرة شويكار هانم أفندى تدق بقدمها الارض دقات خفيفـة على صوت الطبلة ، وبان الفرح على وجهها واتسعت عينـاها ولمعتا وقد افتر فمها عن ابتسامة عريضة ، فأضاءت قسماته الجميلة .

وانتقل عكاشة الى موال آخر :

يا رايـح على مـــزاته حود عا لبلينا
تلقى بنات عبد الله ناصبين السلطنة
يا لى حبيت ولا طلتش صعبان على أنا

وسكرت ابنة مساعد الملحق البريطاني بالغناء ، فوقفت تتطـوح وهي تغنى مع عكاشة « يا لى حبيت ولا طلتش صـعبان على أنا » ففك عكاشة شاله ، ورماه عليها وسحبها اليه وهي تتمايل ، وحزمها ووضع يده على كتفها ، وأردافها تهتز على دقات الطبلـة ، وقد رفعت يديها وفردتهما ، واذا سكت عكاشة انطلق صوتها الرخيم :

يا لى هبيت ولا طلتش صآبان آلى آنا .

وقبل أن يفتح عكاشة فمه بالغنـاء وصلة جديدة ، قامت الاميرة فوقفت البنات لها ، وسلمت هي عليهن وهي تتمنى لهن سهرة طيبة، ولم تنس عكاشة وهي ذاهبة ، فتعطفت عليه قائلة :

ـ برافو عكاشة .

فانحنى قائلا لها :

ـ تشكرات واحترامات سمو الاميرة .

اطمأنت سمو الاميرة على ضـــيفات ابنتها ، وقد حرصت على أن تتوجه بكلمة طيبة لكل منهن على انفراد فأرسلت تمنياتهـــا الطيبـة

لوالدات البنات ، وخصت ابنة مساعد الملحق البريطاني بعناية خاصة فسألتها عن والدتها المحترمة ، وقالت لها مشجعة في كلمات ودودة :

ـ شتاء القاهرة هذه السنة ليس مريحا ، ولكن الربيع لحسن الحظ أصبح على الابواب ٠

فأجابتها الفتاة موافقة :

ـ نعم ٠ الشتاء هذه السنة صعب ٠

ومع ابنة الملحق الامريكي توقفت طويلا ، وسألتها عن أفرادالعائلة فردا فردا وأحوال كلبها بوسى الصغير الذى أصيب بنزلة برد فى الايام الماضية ٠

واستمعت الى الاميرة جويدان وهى تتقدم لها بقية البنات مصغية متمنية للجميع سهرة طيبة ٠ وفي طريقها الى خارج البهو أشارت الى قطامش وعبد الواحد أفندى بمغادرة الجناح فقد انتهت مهمتهما ولا داعى لوجودهما على مقربة من البنات ٠ لم تصرفهما ، لكنها طلبت منهما الابتعاد عن جناح ابنتها ، فنزلا خلفها وتوجها الى المطبخ مباشرة للعشاء ٠

وصفا الجو لهن ٠ أعدت الوصيفات الشمبانيا ، ودارت الكئوس وشربت أنخاب صداقات متينة ، لقد جمعت الجامعة الامريكية بين بنات من أصقاع الارض ، بنات الدبلوماسيين الذين رمت بهم الاقدار الى أرض الكنانة ٠

وانتحى عكاشة ركنا بعيدا يملس على قفطانه ويربت على جبته ويمسح العرق الذى تساقط على جبهته : نفسه فى كأس ليمون مثلج ـ بينما اللبيس الذى كان يعطيه الاوامر قد رق قلبه له وقد وحد بينهما الغناء وجمع بين روحيهما بوشائج من حرير ، وقد لمس عكاشة فيه رقة ووسامة ، فوجهه وجه تمثال أسمر ، عوده مثل عود الزان ، وعيناه مسحوبتان ، وسمرته مليحة ، فخاله من البلينا أو مزاته ، وقال له عكاشة مداعبا :

سلم لى عا لحبايب   آيا غايب من زمان

كلاهما فى غربة ، فهذا الفتى نوبى ، ودارا دورة حتى اقتربا من مائدة قصية ، ومد النوبى يده وتناول كوبا من عصير الليمون ، وقدمه فى ود الى عكاشة ٠ فأفرغه عكاشة فى جوفه مرة واحدة ، ومده طالبا المزيد ٠ وبعدها همس النوبى فى أذنه متسائلا :

ـ تشرب يا عكاشة ٠

فأجاب عكاشة بهزة من رأسه وقد فهم معنى الكلام ، فأشار

النوبى الى وصيفة قريبة كانت عائدة بصينية ، فأعدت له كأسا من الشمبانيا ، تناوله منها عكاشة فرحا • تذوقه ، عصير حلو ، مسكر • ودلقه فى فمه مرة واحدة وقد أسكرته الرائحة المنعشة : مشروب يختلف عن كل المشاريب التى سبق له تذوقها فى الافراح لو البارات هذه هى الشمبانيا التى يقولون عنها ، ويعبها الممثلون والممثلات فى الافلام • سوف يروى لام حبيبة هذه الليلة أنه قد شرب الشمبانيا فى قصر عويس باشا مع بنات الاكابر ومع الاميرة جويدان • وغمز الولد النوبى يسأله عن الضيفات ، فقال له :

ـ المودموذيل التى رقصت جولى ابنة موظف كبير فى السفارة البريطانية ، وعلى الناحية الثانية مارتا ابنة موظف كبير فى السفارة الامريكية ، والتى تلبس الفستان الاحمر ميلى اسبانية •

أما الاخريات فكان الفتى النوبى لا يعرفهن • والتقطت ذاكرة عكاشة أسماء البنات فى يسر ، فالفتاة ذات الساقين الجميلتين التى تضحك له عيناها هى مارتا ، أمريكية ، وجولى التى رقصت معه بريطانية ، وميلى التى غنت معه اسبانية •

وتناول عكاشة كأسا اخر ، ولم يدلقه فى فمه هذه المرة ، بل تناول منه عدة رشفات ، وأمسك به فى يده كما يفعلون فى الافلام ، ودار فى موضعه ولم يقف متخشبا كما فعل عند قدومه : الدفء يسرى فى جسده وقد سكر بالخمر وجمال البنات والفخامة والابهة • من حين الى اخر يلقى نظرة على الثريات المعلقة أو دواليب الفضية المليئة بالكئوس الذهبية أو الجدران المحلاة بالذهب • على الارض مجموعة من السجاجيد الملونة التى تغوص فيها قدمه : الود وده لو ينحنى عليها ويمسك بها ليعد عقدها فهذه سجاجيد لم تقع عليها عيناه من قبل وربما هى السجاجيد التى يسمونها العجمى •

والتفت عكاشة الى الخلف فوجد صديقته مارتا التى تضحك له بعينيها تضع ميكروفونات وتدير أجهزة فتأكد أنه سوف يغنى فى الراديو فزاد اعجابه بها وحبه لها • هذا هو الحب من أول نظرة • ساقاها جميلتان جميلتان ، وركبتاها مسحوبتان تلمعان ولم يضربهما الجرب • ود لو ينحنى ويدعكهما لها ليس بمرهم الجرب كما يفعل مع ستهم ، ولكن بعطر الشبراويشى الاصلى : عطر الثلاث خمسات ، الزجاجة بـ ١٥ قرشا ، وانتفض فى وقفته وكأس الشمبانيا فى يده أملس كالبشرة الناعمة الطرية •

على الجانب الآخر ، فى الناحية الاخرى من البهو الواسع ، الفتيات

يتجاذبن أطراف الحديث . ومن حين الى آخر يرفعن كئوسهن ويتبادلن الانخاب . وفعل مثلهن ، اذا ضبط واحدة تنظر اليه أو تتأمله من بعيد رفع لها كأسه مبتسما ، فترد عليه التحية بمثلها . وسار على هذا النهج ، حتى فاجأته صديقته مارتا ، فرفعت له كأسها ، وبيدها الاخرى أرسلت له قبلة فى الهواء ، وضعت يدها اليمنى على شفتيها وتناولت القبلة من على شفتيها الجميلتين ، وأرسلتها له .

قال عكاشة لنفسه وهو يهز رأسه متلقيا قبلتها :

ـ يا قوة الله .

وصمت اللبيس النوبى حتى عاد الى عكاشة ثباته الذى ضيعته البنت الامريكية بقبلتها وهمس فى أذنه مرغبا :

ـ انتظر . أنت لم تر شيئا .

دور عكاشة الكلام فى رأسه باحثا عن المعنى ، فلكل كلام معنى ، وقال عكاشة لنفسه وهو يتطوح : فتش عن البنت والمعنى .

غاية المرام من ستهم أن تسمح له بدعك حلمتيها وهى جالسة فى الطشت أو تتركه يلف قبضة يده فى قميصها الساتان الوردى ، وها هن بنات الحور يرسلن له القبل فى الهواء : قال لنفسه مرة ثانية وهو يغوص فى السجاد :

ـ يا قوة الله .

وتودد الى الفتى النوبى الذى يشبه غصن البان ، وسأله عن اسمه فقال له :

ـ أبيس .

فقال عكاشة مرددا الاسم فى دهشة :

ـ أبيس .

قال الفتى ضاحكا :

ـ هذا طبعا ليس اسمى ، وأنا عندى عامان كان اسمى محمد ، وخطفنى تجار العبيد من أهلى وأطلقوا على « أبيس » وعلمونى وباعونى للبكباشى على محمد باشا عويس الاعرج .

قال له عكاشة منفعلا بالقصة وحزينا له :

ـ أنت عبد .

قال له الفتى :

ـ كلا . لى أهل فى النوبة . بعد عشرين سنة عرفنى عليهم طنوشى آغا ، ودلهم على قبل موته بعدة سنوات ، وأنا أرسل لهم كل شهر ثلاثة جنيهات .

سأل عكاشة مستفسرا :

ـ من هو طنوشي أغا ؟!

قال له أبيس :

ـ ألست من عزبة عويس ؟! ألا تعرف طنوشى أغا الذى مات من عدة سنوات ؟!

أجاب عكاشة قائلا :

ـ فقط سمعت عنه ٠

لم يزد عكاشة ٠ فقد سمع حكايات عديدة عن طنوشى أغا وأنه حرمة مثل بغل ولا مؤاخذة لا ينط على بهيمة ولا يخلف ذرية ولكنه نحى هذه الحكايات عن فكره ، وسأل أبيس :

ـ وباعوك تجار العبيد لمحمد على باشا الاعرج وقبضوا الثمن عينى عينك !!

قال أبيس :

ـ كنت طفلا ، وتبنتنى فاطمة هانم زادة وعلمنى طنوشى أغا أصول الشغل ٠

قال عكاشة لنفسه :

ـ يا حول الله وخاين يا زمانى وديت حبايبى فين

الوصيفات يدرن فى ملابسهن الواسعة الزاهية وكلهن بدينات مثل مراتب القطن ويتحدثن فيما بينهن بالتركية ، وفى عودتهن بعد خدمة البنات يحتككن بعكاشة ويتغامزن له ويبدلن كأسه ، فشرب حتى ثمل ٠

وترك عكاشة البعيد وغرق ثانية فى اللحظة الحاضرة ، كالحلم ، وسأل أبيس قائلا :

ـ عندك صبا ٠

قال له أبيس :

ـ عندى زوج نايات صبا من شارع محمد على من أكبر ناياتى ٠

قال له عكاشة :

ـ دخله صبا ٠ الله ينور عليك وعلى أهلك ٠

قال له أبيس :

ـ تشكر يا معلم ، وسيد المغنواتية ٠

قال له عكاشة فرحا :

ـ بيتان من القلب لاجل خاطرك ٠ صبا معتبر من مغنى متقال القناوى ٠

قال له الفتى الذى ابيضت ذؤابات شعره الفاحم الاسود الغطيس فرحا بالتحية :

ـ كلنا غرباء فى هذه الدنيا ٠

جمعت الوصيفات الكئوس ، وبدأت الاستعدادات للغناء : أخرج أبيس مجموعة ناياته ، وملس عكاشة على بطنه البارز وعوج طقيته وقد ألف المكان ٠ وفى خطوات راسخة بدأ يتقدم متجها الى الميكروفون الذى أعدته له مارتا ٠ وتجمعت الوصيفات حوله وجلسن خلفه مباشرة وبينهن أبيس أيضا وقد فارقهن وجلهن وعلت أصواتهن رويدا رويدا واتخذت الفتيات أماكنهن وانشغلت عنه مارتا لعدة دقائق بتشغيل جهازها الذى يشبه الحقيبة ، فانتظر بينما انشغلت عنه جولى بالتقاط الصور لابيس من كافة الزوايا ٠ وحل صمت وترقب ، سكنت هفهفات ملابس الوصيفات ووشوشات أيديهن وهن يدعكن الدفوف والطبول ، وانطلقت نغمات الناى متقطعة فى البداية كصفير القطار وهو ينهب الارض ثم تلاحقت النغمات لاهثة فى نحيب مكتوم ٠ وحرك عكاشة اصبعه طالبا من أبيس الاعادة والتجويد ، فأعاد متجليا ٠

ورويدا رويدا انطلق صوت عكاشة بالموال الحزين الذى تعرفه برارى مصر :

على يوم ما رغبمونى لم كان لى مرام
وعطونى الثلثماية وقالوا لى كتبوك جمال ـ
وأنا كل ما أقول التوبة ترمينى المقادير
وعد ومكتوب على ومسطر عا لجبين

والوصيفات يرددن خلفه « وانا كل ما اقول التوبة ترمينى المقادير » ٠

بداية ناعمة حزينة كحزن العصارى قبل المأساة ،وانطلق صوت عكاشة مجللا بالسواد :

يا بهية خبرينى عا لى قتل ياسين
قتلوه السودانية من فوق ضهر الهجين
وخلفه الاعادة : وأنا كل ما أقول التوبة ترمينى المقادير

وأشار لهن عكاشة بالغناء فانطلق صوتهن مرددا مع الوصيفات وهن يصفقن ويتمايلن برؤوسهن : وأنا كل ما أقول التوبة ٠٠

وتسلطن عكاشة وهو يغنى :

وبهية فى المحاكم شدت واحد وكيل
أحكم بالعدل يا قاضى قدامك مظاليم

عوج الطربوش على شقه حكم باربع سنين
سنتين في السجن العالى سنتين في الزنازين

كانت دموع أبيس تنساب على وجنتيه مع نغمات الناى .. وخفت ضربات الطبلة حتى ماتت ولم يبق سوى صوت الشجن البايت في القلوب مختلطا بنغمات الناى .

والتقطت جولى صورة لابيس ودمعة غليظة على وجنته لم تسقط ، والناى في يده يهتز مع رعشات شفتيه ، دمعة ثقيلة كالحجر سقطت من عينيه والتصقت بوجنته اليمنى .

عكاشة اللعين لا تفوته فائته . لمحها على جانب وجهه ، فلصقت بذاكرته . وصمت ، وترك المغنى له ليجود ويخرج الحزن من قلبه ، وهو يتمايل حوله ويداه تضبطان ايقاع النغمات له في ضربات حنونة كهديل الحمام .

وجرد أبيس وحلق بعيدا وكأنه يطوف بالدنيا باحثا عن أهله مع نغمات النايات ودور النغمات ، وحور فيها مرة من القرار ومرة من الوسط ثم ينزل بها وكأنه يجهش بالبكاء . وبينما هو يختم الموال بالعودة الى قرار الصبا ، اندفعت جولى نحوه ، وقبلته في فمه قبلة طويلة : وقفت مقابلة له مباشرة ، وكبست فمها في فمه تقضم شفتيه وتضع لسانها في فمه وهى ترفع يديها تهز ردفيها على دقات الطبلة الخافتة وقد أعطت للجالسات ظهرها وأبيس ينفخ الناى بجانب فمه نفخات منقطعة وفمه في جانب فمها .

الاميرة جويدان ، سيدة البيت ، تجلس فرحة في مقعدها لفرح ضيوفها ، عيناها ساكنتان ، بسمتها لا تغيب عن فمها الصغير ولا تتسع . لا تعلق ، ابنة ذوات ، لا توجه نقدا الى ضيفة في بيتها ، ترحب ، ترحب بالجميع ، وعكاشة يحس بجولى وهى واقفة الى جواره تقضم شفتى أبيس ، ولا يعلق هو الآخر ، دفء جسدها ينتقل اليه ، فيغنى :

سودة وعجبانى عيون حبيبى يا ناس
يابو مقام عالى مرسى يا بو العباس

عينا عكاشة على سمو الاميرة جويدان ، يتابعها ، وجدها في غاية الانبساط ، الفرحة في عينيها ، وبسمة على شفتيها تضىء وجهها كفلة فتحها الربيع .

ومد شاله ورماه على أبيس وجولى فاخذا يرقصان متلاصقين كسمكتين في الشبكة ، وهو يجذبهما اليه ثم يترك لهما الشال

فيبتعدان ، والوصيفات دقاتهما على الطبلة والدفوف تشبه دقات الزار.
وعلت الدفوف وصخبت ، وفى دقة واحدة قوية توقفت : رمى طرف الشال ، وحل عقدتهما ، فتراجعت جولى بعيدا وأردافها تهتز . وصفقن لها فى حماس .
وهزت الاميرة جويدان رأسها ، فهبت الوصيفات واقفات . وأدرك عكاشة أن المولد قد أوشك على الانفضاض . وبينما الوصيفات يتجهن الى الخارج ، دخل مجموعة من السفرجية ، وشد السماط فى ثوان ، وفاحت رائحة الضانى والمحاشى والسلطات .
وانسحب أبيس وخلفه عكاشة ونزلا الدرج .
بعد العشاء اجتمع المغنى ثانية ، وكان عكاشة قد التهم فخذة ضأن زوده بها الطباخون فى المطبخ بأوامر من أبيس ، وشرب بعدها ابريقا من الجنزبيل ووضع فى فمه سكر نبات فصفا صوته وقويت نبراته وعلا قراره .
وأسر اليه أبيس على العشاء أن الفتيات سوف يلعبن استغماية ومن يهزم ينفذ الاوامر مهما كانت ، وهذه أسرار ، فسوف يسكرن وعليه أن يكون يقظا .
وعده عكاشة أن يضع عينيه وسط رأسه وأن لا يفتح فمه بكلمة ولا يخبر أم حبيبة بشيء . قال له أبيس :
ـ الباشا لا يرحم .
قال عكاشة مؤكدا :
ـ أعرف . أعرف .
وبعد وصلة من أغانى السبوع وليلة الدخلة والختان ، ومع دقات الساعة الثانية عشرة ، شربن جميعا أنخاب اليوم الجديد ، وانسحبت الوصيفات وعلى رأسهن زبيدة شمورجى كالفة ، وبدأت البنات فى لعبة الاستغماية وقد لعبت الخمر برؤوس الجميع .
ووقع اختيارهن على أبيس ليغمض عينيه بعصابة سوداء ووقف فى منتصف البهو .
توجهت اليه مارتا وربتت على وجهه ورأسه ربتات ناعمة خجولة ، وسألته وهى تبتعد عنه :
ـ من أنا ؟!
فأجاب أبيس وعيناه مغمضتان :
ـ الآنسة مارتا .
فصفقن له طويلا . واقتربت منه جولى ، وقبلته فى فمه قبلة طويلة وابتعدت عنه وهى تسأله :

ـ من أنا ؟!
فصمت الوغد برهة كأنه يفكر ، ثم صاح قائلا :
ـ عكاشة المغنواتي .
فأخذ عكاشة على غرة . وتغامزت الفتيات وهن يصرخن :«وقعت» الحكم . وفك أبيس رباط عينيه ووقف مستسلما والفرح يغرقه من أعلى راسه الى أخمص قدميه ، وتعجب عكاشة من هذه اللعبة ، ولهفة أبيس على الخسارة ، وأدرك أن هناك ملعوبا : تقبله جولى فى فمه ، شفتاها مثل الفراولة ، ونفسها فى نفسه . ويقول ابن الحرام المصفى عكاشة : هيء على هذه لعبة . هذا ملعوب يا عكاشة ولا ملاعيب ستهم احترس ، فهذا يوم ليس له نهاية . ثم ربطه مثل البهيمة وتجريسه فى العزبة من أولها الى آخرها وساقوه الى الذبح وهم يزفونه : من ده بكرة . والآن أبيس الملعون يعد له ملعوبا . ونظر الى البنات اللاتى يضحكن وخاف منهن فالليلة لن تنقضى الا بكويه بالملعقة الساخنة على قدمه أو خصيه مثل ذكر البط .
وضع عكاشة عينيه فى وسط رأسه ، وطرطق آذانه ووقف وحيدا خائف هو ، فالقصر به رحاية ودولاب مفرمة ، وربما يذبحونه ويشربون دمه طازجا لتتورد خدودهن أو يعجنون بدمه الدقيق ويصنعون الفطير المشلتت ، والعين لا تعلو على الحاجب أبدا ، وقد انتهى الشرب والمغنى وحلت الغمة ، ووقف منتظرا كالذبيحة .
وصاحت فتاة قائلة وهى تشير بيدها :
ـ أبيس . تعال هنا .
وأفسحت له مكانا الى جوارها على الكنبة ، وأيدتها أخرى وهى تصفق ، وجلس أبيس على الكنبة وسط بنتين مثل غصن البان ، ووقفت جولى قائلة :
ـ محكمة : الحكم .
قال عكاشة لنفسه :
ـ حلت ساعتك يا أبيس . لا أقل من الموت أو الجلد .
قالت مارتا وهى تخرج من حقيبتها حبلا :
ـ المتهم يقيد .
وبدأت فى ربطه : قيدت ذراعيه الى الخلف وربطت صدره ، فقال عكاشة لنفسه : بدأ الجد ووقعت يا أبيس .
وقامت اليه الاميرة جويدان فوقف لها عكاشة وعصبت عينيه وهى تداعبه قائلة :

ـ لا تخف فلاح عكاشة ، تعال معي ٠
وسار الى جوارها معصوب العينين ، قدماه تغوصان في السجاد العجمي ٠ صحبته الى نهاية البهو لتجلسه الى مقعد ، فتلمس المقعد بيديه في الظلام ، وعدل نفسه ووضع مقعدته وغاص ٠
سمع أصوات قدميها وهي تبتعد عنه وكأنها تسير على أطراف أصابعها الدقيقة ، وجلس كالمحكوم عليه بالموت ، يستمع الى وشوشات البنات وهن يبرطمن بلسان أعجمي غريب عليه ، لا يفهمه ، ورأى بخياله سمو الاميرة جويدان تعود الى مقعدها ، تبتسم ولا تعلق على همهمات البنات اللاتي بان السكر في أعينهن وقد تحولن الى لبؤات مفترسات أو ملكات النحل وهن يفترسن الذكور ٠
قالت جولي صائحة :
ـ جب ٠ جب ٠
فوقع قلب عكاشة ٠
وسمع أبيس معارضا ووقعت ضجة ، وهيصة ، وارتمت أجسادهن فوق بعضها ، وسمع عكاشة أبيس وهو يتمنع ، يقاوم مثل السمكة في الشبكة ويتدلل ويغنج مثل النسوة ٠ واختلط الامر عليه ، فهل يحلقن لابيس شعره أم ينتفن شواربه ؟! وتذكر عكاشة أن أبيس لا شوارب له وذقنه ملساء مثل ذقن بنت البنوت ، وغاص في مقعده صامتا ٠
كن يتحدثن باللسان الاعجمي وقد اختلطت أصواتهن وتداخلت ٠ وقال عكاشة لنفسه : هذا سوق خميس الخواجات ٠ ولم يبق سوى النداء على الخنازير بدلا من البقر ٠
ورأى عكاشة ومضات تضيء العتمة ، وسمع طرقعات خفيفة ، فأدرك أن جولي البريطانية تصور أبيس وهو مربوط على الكنبة كالبطة وأبيس يقاوم في كلمات خافتة كالهمس ، مسكين يا أبيس : ظلم النساء يعرفه عكاشة جيدا وقد عانى منه طويلا ، وحروق قدميه من تحت تشهد على ذلك ٠
وخفت الضجة رويدا رويدا ، وحل الصمت ، فقال عكاشة لنفسه:
ـ مات أبيس ٠ نفق ٠
وأمرت الاميرة جويدان عكاشة بأن يفك العصابة عن عينيه ،ويأتي البهن ، فرمى العصبة السوداء ، ووقف : حلم ولا علم ٠ أبيس يقف عاريا بينهن ويجمع خلقاته !! هل طلبن منه الاستحمام تحت الدش كما فعل هو في الاسطبل ؟ هذه ألغاز والله العظيم ولا يتسع لها عقله الناقص « تعليم » ، ليته كان صغيرا فدخل المدارس والوزير العظيم

يقول لهم فى الراديو : التعليم كالماء والهواء ٠

أبيس يستر نفسه باللباس التحتانى ٠ يضع البدلة المحزقة عليه ٠ يربط الحزام على وسطه ٠ يقف ٠ ماذا جرى لك يا أبيس ؟!

نادته مارتا قائلة :

ــ عكاشة ٠ تعال ٠

فتقدم اليها وهو خائف أن تطلب منه أن يخلع لباسه التحتانى ، لا مانع لديه أن تخلع هى لباسها التحتاني ومشد صدرها أيضا ٠ أما أن يخلع لباسه ويقف على مقربة منها ، فهذا حرام ، وعيب أيضا ٠ حتى الغجريات لا يفعلن ذلك : حكمتك يا سيد يا بدوى والفاتحة للسيدة نفيسة ٠

قالت له مارتا :

ــ أغانى السبوع لطيفة ٠ حلقاتك برجالاتك ٠ حلقة ذهب فى وداناتك ٠

قالت له جولى :

ــ جب ٠ جب ٠

لم يفهم عكاشة شيئا ، وبقى يحدق فيها ، وقد ارتسمت دهشة مرعبة على وجهه السمين ، وتهدلت وجناته ، ثم أحنى رأسه فى ذلة ٠

قالت له مارتا مطمئنة :

ــ عكاشة ٠ بعد أسبوع ٠ ولد ٠ لازم ختان ٠

قال لها عكاشة وهو يهز راسه وقد بدأ يفهم :

ــ ختان واجب ٠ بأمر الشرع ٠ أبو سريع الحلاق بالموس يقطع ولا مؤاخذة الغلفة ٠

سألته جولى قائلة :

ــ من يقطع الغلفة ــ عكاشة ٠

قال لها عكاشة مؤكدا كعليم بالامور :

ــ أبو سريع الحلاق ٠

قالت له مارتا :

ــ أبو سريع حلاق يعمل ختان ــ من يعمل جب ٠

وأشارت له بالاقتراب منها ، لينظر فى كتاب فيه صور ، فصاح عكاشة فرحا ، أبيس ، ببزته البنية وحزامه العريض ، وقلبت الفتاة الصفحة ، أبيس جالس على الكنبة ، وقد خلع بزته البنيـة ، وقلبت الفتاة الصفحة ، أبيس عاريا وفخذاه مفتوحان على آخرهما وبينهما أنبوب صغير بارز فى حجم حبة الفول وقد أزيلت محاشمه ــ وعبس عكاشة ودعك عينيه قائلا :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله ٠

ونقل عينيه بين الصورة وبين أبيس الواقف فى ركن البهو ، ولم تترك البنات له فرصة ليسترجع أفكاره ، وقالت له جولى وهى تشير بيدها الى الصورة وتضع أصبعها موضع محاشمه ، وسألت :

ـ حلاق أبو سريع يعمل جب للولد ٠

أجابها عكاشة بهزة من رأسه :

ـ لا ٠ لا ٠ والعياذ بالله ٠

لاحقته جولى بالسؤال :

ـ من فى عزبة عويس يعمل عملية جب ؟!

قال عكاشة :

ـ لا أحد ٠ هذا كفر ٠

والتفت الى أبيس يسأله فى حزن :

ـ من فعل بك هذا يا ولدى ؟!

فجذبته مارتا من طقيته فى عنف ، وسألته :

ـ من فلاح عكاشة يعمل جب ؟!

التفت مستنجدا بالاميرة جويدان التى تجلس صامتة فى مقعدها ولا تعلق وهو يردد لنفسه : يا حول الله ٠ يا حول الله ٠

ودار الحوار بينهن بلغة أجنبية ، ولم يفهم عكاشة شيئا وجلس كالاطرش فى الزفة ، وهن يقلبن فى أوراقهن ، وأخرجن كتبا كثيرة فيها تصاوير ، وكل منهن تكتب شيئا ، وأعدن سؤاله وهن يكتبن ٠ ودار بينهن نقاش ، قامت على أثره مارتا الى آلة وأدارت فيها شريطا ، وقالت له فى حزم :

ـ عكاشة ، اسمع ٠

عيناها مضمومتان وقد فارقت الابتسامة شفتيها ، وجهها يشبه وجه صبى أزعر ٠ وطرطق أذنيه خانعا وكأنه فى تحقيق ٠

دار الشريط ، فخرج منه صوت أبيس يروى حكايته ٠

(١٠)

استيقظ اللواء عويس باشا ، على عادته ، يوم الجمعة مبكـرا فى غاية الهمة والنشاط ، شرب الشاى على عجل فى غرفة نومه ثم توجه الى مكتبه وألقى نظرة فاحصة على الاوراق التى جلس يدبجها بالامس وأول أمس ٠

فور أن يفتح عينيه قبل الخامسة صباحا بقليل ويرفع الغطاء عنـه تعود اليه حيويته ويقظته ـ وهذه عادة ورثها عن المرحـوم أبيه على محمد عويس ، وصقلتها تربيته العسكرية الصـــارمة فى انجلترا ، وأصبحت لصيقة به ٠

قال لنفسه ضاحكا : التقرير لم يكتب فيه سوى فقرات قليلة !!

وفارقه الصداع النصفى الذى دهمه ليلة الامس ، وأخذ يغـالبه بتدخين لفائف الحشيش ٠ وانسابت الافكار من القلم طيعة وســهلة دون عناء أو تدبير ٠ وفى حوالى ساعة انتهى من تقريره حول الاحداث المرتقبة ، وقال لنفسه راضيا بنعمته : أنا لا أعمل الا صــباحا مثل الفلاحين البسطاء ، أما كبار القوم فلا يحلو لهم العمل الا بعد منتصف الليل ، وأنا لست من طينتهم وان كنت واحدا منهم ٠

وأمس كان متوعكا ،ويبدو أنه قد أكثر من تدخين لفائف الحشيش فعدد الكلمات التى خطها طوال الليل لا تزيد عن مائتى كلمة ٠ لقـد حملته الاوهام تحت وطأة القلق العام الى الماضى فالتقى بطيف المرحوم الامير رفقى خورشيد فأسر اليه بضرورة مسايرة الانجليز من أجل ابنته الاميرة شويكار وحفيدته جويدان ، ان قواتهم هى التى دعمت توفيق وثبتته على العرش ، وهم الذين خلعوا عباس حلمى الثانى ، فاســتمع اليه اللواء عويس باشا من قبيل المجاملة مقدرا ظروفه ، فسموه ، وقد مات منذ عشر سنوات ، لا يدرك أن قوة أخرى جبارة قد بزغت وأصبحت منافسة للانجليز فى المنطقة ، وأن مصير العالم بأسره قد أصبح معلقا بواشنطن ، كما أن الصراع الداخلى لم يعد قاصرا على الوفد بل نشأت قوى أخرى معادية للسراى فى أوساط الضباط والعمال ٠

اللواء عويس باشا هذا الصباح ليس متأكدا ان كان المرحـــوم رفقى خورشيد قد زاره فى المنام أم أتى اليه متجسدا كطيف فى غرفة مكتبه بالأمس ٠ وقال لنفسه وأشعة الشمس تتسلل اليه :

ـ هذه أوهام ٠

ونمت في أعماقه بذرة قلق ، فزيارة الموتى فأل سيىء ، وندم لتذكره لهذه الزيارة في الصباح المشرق ، خاصة أن الفلاحين يزعمون أن يوم الجمعة فيه ساعة نحس ٠

كان كبير التشريفاتية قد طلب منه بعد منتصف الليلة الماضية ضرورة التواجد في مكتبه اليوم الجمعة الساعة الحادية عشرة صباحا ، بناء على أوامر من جلالته ، كما أن حافظ عفيفي باشا دعاه للافطار في فندق شبرد في الساعة الثامنة صباحا ، فاتفقا على الذهاب معا الى السراى بعد افطارهما ٠

وضع اللواء عويس التقرير في حقيبته الجلدية بنفسه ، وهبط الدرج الداخلي على مهل ٠ لم يلق بصره على الحديقة من النافذة ، وقد سطعت شمس هذا النهار من يناير ١٩٥٢ ، وملأت الكون ، عفية وساخنة ، وتغرق أشعتها الصافية الذهبية الواجهة الخلفية للقصر وتخترق النوافذ الزجاجية الملونة ، فتبعث دفئا ، وترمي بظلال الأشكال المرسومة على الزجاج المعشق على الأثاث والسجاد والجدران ، فتضفي على هدوء القصر هيبة وعظمة ٠

اندفع الباشا صوب البهو مباشرة دون أن يلتفت يسارا أو يمينا واتجه الى مقعده مباشرة ، ومد ساقا واحدة على مقعد صغير أمامه ، وجلس منتصبا ، ظهره مفرود وقامته منتصبة ، مشدودة ، وقد ثبتت عيناه على نقطة لا تبارحها ، والسيجار في فمه يسحب منه الدخان وينفثه أمامه ٠ يقلقه اختفاء سائقي الشاحنات الخمس ومصادرة حمولتها من الطماطم والفاكهة بعد أن تعهد أعضاء جمعية اخوان الحرية باستلام البضاعة من السائقين قرب مشارف الزقازيق وارسالها الى المعسكرات بمعرفتهم ٠

هذه هي أول ضربة توجه اليه هو وشريكه عليوه بك بعد حل جمعية اخوان الحرية بتعليمات من عبد الفتاح باشا حسن وزير الشئون الاجتماعية فقد تمكن هذا الرجل الربعة الداهية من اقناع مجلس الوزراء بأن هذه الجمعية الثقافية وراء حرق كنيسة السويس لاثارة فتنة طائفية في البلاد بينما هي في حقيقة الأمر جمعية ثقافية لا شأن لها بالسياسة ، ومنذ حل الجمعية في يناير الماضي وقد ارتبكت خطوط الاتصالات مع المعسكرات البريطانية ، وجاءت مصادرة الشاحنات المحملة بخيرات عزبة عويس لطمة له ، فكأنه ليس له نفوذ أو سلطان في هذا البلد ، ولكنهم سوف يدفعون ثمنا غاليا لحماقاتهم ٠

أول أمس أخبره محمد ابراهيم امام رئيس القسم المخصوص بأن

مجلس الوزراء لم يصدر تعليماته بوقف تزويد القوات البريطانية بالمواد التموينية خوفا من قطع الانجليز لامدادات البنزين والكيروسين عن مدن القنال ، وان كانت الحكومة تتخذ العدة لتنفيذ قرارات المقاطعة التى اتخذتها سرا فى ٢١ اكتوبر الماضى ٠

وضحك اللواء عويس عاليا من قوله سرا ، فقد تسربت القرارات الى السراى بعد عدة ساعات ، وساور جلالته قلق خوفا من منع الانجليز للامدادات الغذائية والوقود عن مدن القنال ، وقال له جلالته يومها :

ـ هذا البلد ليس فيه أسرار ٠

واستشاط غضبا ، لكنه تريث ٠ فمن جانب آخر لن يسمح فؤاد سراج الدين باشا بهذه الفوضى ، فرجاله يوردون أيضا البضائع لهذه القوات ، ولابد أنه يقدر خطورة الموقف ٠

ما يضايقه فى الأيام القادمة ، ملاحقة عليوة بك له طالبا العون فى هذه المصيبة ، لكنه سوف يتنصل منه قائلا له :

ـ تضحية بسيطة من أجل الوطن ٠

شراهة هذا الرجل الخنزيرى الوجه لا حدود لها ، كون ثروة هائلة من تزويد القوات البريطانية باحتياجاتها ، فالأعيان وأقطاب الحكم ورجال الأحزاب لا يتعاملون مباشرة مع القوات البريطانية ، ويبيعون خيرات أراضيهم بتراب الفلوس لهذا الرجل ليساوم الانجليز عليها بأسعار خرافية ٠ وعليه أن يتحمل بعض الخسائر ، فلن تؤذيه مصادرة خمس شاحنات ، وعليه أن يقدر حساسية موقعه وهو على وشك دخول الوزارة الجديدة ، وليس من الصواب تلويث سمعته باشاعة تعاونه مع القوات البريطانية فى الوقت الذى تعتدى فيه هذه القوات على المواطنين بالقتل وهدم البيوت ٠

وعاد الى اللواء عويس ثباته ، وقد تخلص من شبح مقابلته مع الأمير رفقى خورشيد ، وعقد العزم على تأديب عليوه بك ، فقد أضحى أخطبوطا فى الأسواق المالية ، وأصبحت له كلمة ٠ وقرر مواجهته بالحزم والشدة اللتين تليقان بطبيعته الخنزيرية ٠

عويس باشا يعلم جيدا رأى جلالته فى قدراته السياسية ، فمن هذه الناحية لا تساوره أية هواجس ٠ ودائما يلومه على اندفاعه ٠ ويقرب منه فى أوقات الشدة الدكتور حافظ عفيفى باشا والياس أندراوس باشا ، ووطد العزم على التحلى بالصبر والهدوء ٠

مايضايقه فى هذه اللحظات المشرقة ، بعيدا عن هموم السراى ، هو جلده للولد كرامة بن سرحان السقا فى قسوة ٠ وقد ضايقه توسل

المزارعين ورجاؤهم له بالصفح عنه ، فضربه بقسوة كادت تقضي عليه ٠ لقد استفزته نطاعتهم ولجاجتهم الزائدة عن الحد ، فالعزبة بأكملها قد خرجت تطلب العفو عنه ، وهو الذي سبق له جلد عشرات المزارعين فلم ينبس أحدهم بكلمة ، فاندفع هائجا لسحق ارادتهم وتحديهم بضربه أمامهم جميعا مائة جلدة بدلا من أربعين ٠ وكان يهوى عليه بالسوط بوحشية ليكسرعظامه لا تمزيق جلده فقط ٠ والوضيع يلاحقه بتوسلاته فيزيد غضبه ٠

تجاسر هذا الفتى الأحمق وتحدث الى ابنته الأميرة جويدان وهي في رحلة مع رفيقاتها الى منطقة الاهرامات ، تودد اليها وقدم لها حصانا ، وركبته ابنته ، لكنه شغلها عن الحصان وأخذ يتحدث اليها مترثرا بترهات ، ولما سألته عن سبب اجادته اللغة الانجليزية ، أخبرها الملعون أنه طالب بالمدرسة السعيدية ، وأن الأدب الانجليزى بالنسبة اليه مثل الماء والهواء ، فوقعت والتوت قدمها ٠

هؤلاء الصبية هم وقود المظاهرات وعمليات الشغب ، وقد ضربه ليقضى على عمليات العنف ٠ والغريب أنه عندما أمر بربط هذا الولد الى الجميزة ، قامت العزبة طالبة السماح والعفو وكأن القيامة قامت ، وذلك بسبب الهوجة السارية في البلد بدعوى محاربة الانجليز ٠

بعدها قالت له زوجته غاضبة :

ــ يكفي بدراوى باشا واحد في البلد ٠

فنظر اليها مبتسما ، فهذه المرأة مثل أبيها المرحوم رفقي خورشيد لا تعرف شئون الدولة وقد ضيع والدها العرش من عباس حلمي الثاني باغرائه بالانحياز للباب العالى والالمان ٠٠ وقطع رنين التليفون الصمت الذى يسبح فيه القصر مكالمة قصيرة من تلك المكالمات التى ترسم كلماتها القليلة بشائر المستقبل :

ــ اللواء عويس باشا ؟!

ــ نعم ٠

ــ احترقت فجر اليوم أصابع فؤاد باشا ٠

ــ شكرا ٠

لم يشأ صاحبها أن يكشف عن هويته صراحة ، لكن اللواء عويس باشا يعرفه معرفة جيدة : ماذا حدث فى الاسماعيلية فجر اليوم ؟!

وهرول خارجا والحقيبة الجلدية الخاصة به فى يده وهو يقلب الأمر منطلقا الى موعده مع حافظ عفيفى باشا فى فندق شبرد ٠

انحشر فى السيارة وهو يجمع أطرافه ويقول للسائق :

ـ فندق شبرد ٠

الساعة لا تتجاوز السابعة والنصف ـ لابد أن الدكتـــور حافظ عفيفى باشا على معرفة بما يجرى حاليا فى الاسماعيلية ، عدوان جديد على قوات الدرك ثم تأديب كتـائب الطلبة كما وقع فى كفـر الدوار ٠ لكنه فى الأيام السابقة فهم الاشارات الصادرة عن البريطانيين على نحو آخر ، فهـل عدل الانجليز من خططهم ، أم أنهـا خطـة واحدة تبدأ فى الاسماعيلية لدعم الجالس على العرش فى القاهرة ٠

قال عويس باشا لنفسه والسيارة تنطلق به متجاوزة غيطـان عزبة عويس :

ـ انهم لملاعين هؤلاء الانجليز ٠

على مائدة منعزلة قليلا فى فندق شبرد ، روى كل منهما طرفا مما فى جعبته من أخبار فى ثنايا الحـديث ٠ وكان الدكتـور حافظ عفيفى باشا قلقا للغاية من تصرفات الانجليز الحمقـاء ، بينمـا اللواء عويس باشا يتعجل ازاحة حـكومة الوفد والضرب بيـد من حديد على مثيرى الشغب فى البلاد ، والسـياسى الداهيـة لا يوافقه على رأيه فى حنـكة ودهاء قائلا له : لتعبر سفينة العرش الأزمة فى ســلام ، يجب اعادة التوازنات فى المنطقة بين عدة قوى متصـارعة ، وان الصراع لم يعـد مقصورا على الانجليز وحكومة الوفد فقد برزت قوى وطنية عديدة أخرى وعلى السراى استقطاب تلك القوى الى جانبها فى صراعهـا مع الوفد ، واعادة ترتيب الاوضاع فى الشهور القادمة ٠

عويس باشا لا يعرف هذه المماحكات السياسية المعقدة ، وليسـت له قدرة على سبر أغوارها ٠ كانت الفرحة تعمـه لاحتراق أصابع عدوه اللدود فؤاد باشا فى الاسماعيلية ٠ وعرض على الدكتـور حافظ عفيفى باشا اقتراحا بضرورة اقالة حكومة مصـطفى النحاس باشـا ، وسرعة تشكيل حكومة من المستقلين ، فعارضه رفيقه بشدة قائلا :

ـ يجب أن تسقط حكومة الوفد لوحدها دون اقالة ٠

وسأله عويس باشا قائلا :

ـ كيف ؟!

فأجابه المرجل المحنك قائلا :

ـ هذا هو السؤال ؟!

لم يتفقا على رأى ٠ وتوجها الى السراى ، وكل منهما عازم على جمع الصفوف خلفه فقد حانت ساعة العمل والمواجهة ٠

(١١)

شمس الصباح العفية تبخ هبابا فى عينى كرامة ولد سرحان السقا وهو مكوم على شط الترعة على بعضه كشوال الجلة · أضاءت الدنيا ، ولمعت غيطان عزبة عويس ، وبلل الندى النباتات وأوراق الشجر فلمعت ، وعيناه · تريان سوادا ، ولسانه يلوك فقرات من قصيدة الأرض الخراب لاليوت فى لغتها الأصلية ، وقد خانته بعض المقاطع وحرف كلماتها فى مقاطع أخرى ·

جلده حمرته قانية بفعل الدماء التى انبثقت من شعيرات جسده تحت ضربات السوط · يداه ترتعشان وساقاه تخذلانه ، فتكوم فى مطرحه على طين الترعة والتصق بالشط كنتوء بارز مهمل وقد التصقت بساقيه وجلابيته الطحالب والأعشاب ·

نقطة هلامية معذبة فى الأرض الخراب ، وساد الظلم ولم يعد يسمع سوى خرير ساقية أبى جعفر وقواديسها الدوارة تنعى اليه الحياة ، وخلايا جسده أصابها الموات ، ونباح الكلاب الجائعة وسط الغيطان الواسعة ، وهمهمات فرح تستقبل بها مدينة الموتى فى ساعة قسوة ترسياس ·

« يناير » أقسى شهور السنة ·
ينبت الزنابق من الأرض الخراب ·
يخلط الذكرى بالشهوة ، يثير الجذور
الحزينة ، تحت أمطار الربيع ·
عربات الترام والأشجار متربة ·
قدماى فى قصرها ·
وقلبى أسفل قدمى ·
بعد الحادث بكى ·
ووعد ببداية جديدة ·
لم أعلق ·
فعلى أى شىء ألومها ·
واحد · عشرة · أربعون · خمسون · ستون ·· مائة ·
قال له : سيدى الباشا ، اننى خادمك المطيع الى الأبد ·

فلم يستمع الى توسله ، وأجابه بالسوط على جسده فى ضربة قوية وهو يزمجر ٠

مصلوبا الى الشجرة ، يداه وقدماه مقيدتان اليها بالحبال ، لم يتركوا له سوى لسانه يلوكه فى فمه وعينيه يحركهما فى محجريهما ٠ سلبوه كل شيء فيما عدا حرية الألم والعذاب ، فوسدوه النيران وحرموه من الاستعطاف أو الأنين ٠

أغمض عينيه ورأى سوادا خلف دموعه المنهمرة ٠

واحد ٠ عشرة ٠ عشرون ٠ ومع كل ضربة سوط يتساقط عضو منه ، وتقطع من جسده قطعة لحم ٠ يتأوه ، يضم بعضه الى بعضه ، وينخر الشجرة ليختبيء داخلها ، فتطرده وتصده عنها ٠

فى احدى المرات ود أن يخرج لسانه ويبصق على الباشا ، لكن لسانه تنكر له ، وخرجت من فمه كلمات استعطاف ذليلة ٠ ولما انتهى حفل عقابه ، وفيما كان المزارعون يفكون وثاقه ، رمى رأسه على شجرة الجميز التى خانته ، وانطلقت الكلمات من بين أسنانه تطلب العفو والغفران من اللاشيء ، فقد ابتعد موكب الباشا ، لكنه الرعب ٠

احتضنه عباس أبو حميدة ، وقال له مطيبا خاطره :

ــ صراع تاريخى يابنى ٠ احتمل ٠ النصر لنا ٠

لكنه لم يحتمل ، ووقع على الأرض ٠

حمله المزارعون الى بيت الحاج عمران ، غسلوه بالزيت وكبسوا تشققات جسده بالحنة ، وسقوه الماء بالسكر ٠ وسدوه فروة خروف وربطوا له رأسه بمنديل ووضعوا على جبهته خرقة مبللة ٠

انتظر الحمقى معجزة ، وبحثوا عن آية قرآنية على جسده الممزق ، لتؤكد لهم أن الله قادر على كل شيء ٠ نهرهم متبرما فأقوالهم الغبية تشكه فى رأسه وتزيد آلامه :

ــ الباشا قلبه كبير ٠ والد الكل ٠

لم ينقذه من الموت سوى عباس أبو حميدة : قدم نحو الباشا ، وتناول منه السوط وهو يقول له :

ــ سلمت يداك يا باشا لمحاربة الأعداء ٠

فترك له السوط ومضى ٠

أقبلت زهية ناحيته ٠ على رأسها زلعة وتحت ابطها لفة ٠ رمت عليه العوافى ، ووضعت الزلعة على الشط ، وجلست الى جواره وقد فردت جلابيتها حولها ٠ أعادت عليه العوافى ، وفتحت اللفة (رغيف ساخن به زبدة مرشوشة بالسكر الناعم) وجلست الى الخلف قليلا ، وأحاطته

بذراعها الفتية ومالت بفخذها الأيمن الى الخارج قليلا ، وبركبتها العفية أسندت ظهره اليها ، وقدمت له بيـدها الرغيف الساخن ، ودموعها تفيض على وجهها فحطت عليه تعاسة الدنيا ٠

بعد قليل قالت له :

ـ لقمة تسند طولك يا كرامة ٠

وضعت الرغيف الساخن على حجرها ، وقطعت منه لقمـة صغيرة وزقتها فى فمه بيدها اليسرى ، وتركت أصابعها على فمه حتى لا يبصق اللقمة ٠

صامت هو ٠

عينـاه مثبتتان على ميـاه الترعة الراكدة ، وفى داخله بركان يغلى لكنه لا ينفجر ٠ خواطره ميتة ، وقلبه ليس غاضـبا ٠ يلم بعضـه الى بعضه ، يضم أطرافه ويكومها كمـا يكوم السـبخ ، فقـد هامت روحه وأصبحت خارج المكان ، هرست ضلوعه وتمـزق جلده غدرا وغيلة ، وها هى روحه تجلس الى الترعة ٠

يومها حـذره رشـاد الترجمـان من الاقتراب من موكب الأميرة جويدان ، ونصحه بعدم التحرش بها ، فهـؤلاء الأكابر لا يؤمن جانبهم أبدا ، لكنها جذبته اليها كما تجذب النار الفراشات ٠

قدم لها الحصان وتحدث اليها ، وفجأة جمح بها الحصان فوقعت والتوت قدمها ٠ صرخت ٠ حملها على صدره فبقيت بين ذراعيه مستكنة كحمامة وديعة حتى عاد بها الى سيارتها ، فشكرته على عجل ، وصرفته بزجرة من عينيها فى قسوة وقد نسيت أنها كانت فى صدره منذ ثوان ٠

أنبه رشاد الترجمان ابن نزلة السمان بشـدة لسـقوط الأميرة ، قال له فزعا :

ـ ربنا يجعل العواقب سليمة ٠

لم يأخذ كرامة كلام رفيقه مأخذ الجد لحظتها ٠ كان يحس بها وهى مستكنة الى صدره كقطة ، ترمى رأسها على كتفه وشعرها يلامس شفتيه ويغطى وجهه ٠ صدرها المشدود العفى يضـغط على قلبه مباشرة ، ولم يبال بتحذيرات رفيقه ٠ غطت سعادته على مخـاوفه ، وهون من حادثة وقوعها ، فاصابتها بسيطة مثل قرصة نملة ضعيفة ٠ وانتشى نشـوة حلقت به ورفعته الى سماوات بعيدة ٠

الأميرة ملاك طاهر ، سليلة مجد ، ولن تخونه وتروى لأبيها واقعة جنوح الحصان بها ٠ نعم ٠ استكانتها فى صدره علامة رضا ومحبة ، وليته واتته الشجاعة ليمد شفتيه ويقربهما من ثغرها الصغير الوضاء ٠

لكنه رمح بها وهرول ، وضيع قبلة مضمونة ·
وكما يأتي الليل بعد النهار ، وقع المقدر والمكتوب ، سحبه الغفر وقادوه كالفرخة الى الجميزة ·
كان الباشا على حصانه الأشهب ، وأشار عليهم بصلبه على الجميزة ، بالمعدول رحمة به ، قائلا لهم :
ـ ابن المدارس لا يصلب بالمقلوب ·
عدل وحكمة !!
لم ترض نفسه بصلبه بالمقلوب ، وفضله على الفلاحين ، فصلبوه بالمعدول ، وضربه الباشا لتتجلى عظمة الخالق ، وتظهر آية قرآنية على جسده ، فيتطهر من ذنوبه ، واذا قضى غفرت له خطاياه ودخل الجنة ·
عاجلته ضربة سوط على وجهه عوجت فكه وأسكنت لسانه فى حلقه ، راوده حلم وصول الأميرة جويدان لتفك وثاقه وتنقذه من المذبحة التى أعدت له وتأخذه على جناحيها وتطير به الى بلاد بعيدة لا تعرف الظلم ويرفرف عليها الربيع طوال العام · ومع تعدد الضربات : واحد · عشرة · مائة · تبدد الحلم · اختبأت فى صدره ثم خانته · أنقذه من موت محقق قدوم عباس أبو حميدة ، وكتب له عمر جديد على يديه : هل بطلعته ، فالتفت الجميع اليه ، فرمى السلام على الباشا ومد يده وتناول السوط منه ، وقال الباشا لمن حوله :
ـ رحمته واسعة ·
ذاب السكر فى فم كرامة واهترأت اللقمة بين شفتيه وتغير طعم ريقه ، فبلعها نتفا ذائبة ، فألقمته غيرها : تدخلها فى فمه من فرجة بين أسنانه ، واذا قاومها ضغطت على فكيه · يفتح فمه مستسلما وتزقها لتلامس طرف لسانه ·
تزغطه زهية اللقمة مثل ذكر البط · الذى زاد وغطى جنون أبيه السقا : خلع جلابيته وسرواله ، وقال : يا دنيا خذينى · نعم الضنا غال · والباشا ليس له حق فى صلب كرامة ابن المدارس المتعلم ·· قطعت جويدان وأم جويدان ، والنبى ·· البلد لو كان بها رجال لكانوا رجموه بالطوب قبل أن يمد يده على كرامة ،فى الغد صورتك يا كرامة تطلع وتدور فى صندوق الدنيا ، ويقول المنادى : ولما مد عويس باشا يده على كرامة ، قام ولد سبع مجدع ، راضع من بز أمه ، وقال له : انزل يا باشا ·
يدور بينهما حوار صامت من خلال سريان النبض فى العروق والشعيرات ، فكل الكلمات عاجزة · فى ضغطة يدها على فمه وبلعه

اللقمة قبول ، وفى زمة شفتيه رفض ، وفى دفعة ركبتها لظهره عتاب ٠
الكون أخرس ، والحوار نوايا ، وقد نوت زهية على انتشاله من الموت ، وبقيت الى جواره تلقمه الرغيف لقمة لقمة ، وفى قلبها حسرة الدنيا ، فكيسها خال من النقود ٠ وتقول له :
ـ لو امتلك ثلاثة تعريفة كنت اشتريت لك كوكاكولا ٠
تحدثه فيزم شفتيه ويضيع منها وكأنها تذكره بضرب الباشا له ، فتصمت صابرة ٠ ويضيعان فى صمت الحقول وقد وقفت الشمس على رأسهما عفية ٠
زهية من ناحية البدرشين وتأتى الى عزبة عويس لتلتقط عيشها مثل العصافير ، تارة بالعمل فى الحقول وتارة بالخدمة فى البيوت ٠
وتقول عن نفسها دوما أنها حرمة ضعيفة ٠ وتصف المعيشة فى الأرياف بأنها مثل المعيشة فى الغابة وسط الذئاب ٠ ولا تعتبر نفسها واحدة من بنات عزبة عويس ، وتفخر بأنها من بنات ساقية مكى ٠
حميت الشمس ، ودفعت بسخونتها الى الغيطان ٠ قالت له :
ـ والنبى رد على ٠
وأضافت تذكره بوجودها الى جانبه :
ـ أنا زهية ٠
كثيرا ما عاكسها كرامة وجرى خلفها فى الحقول أو تعرض لها ليلا على السكة : كانت تصده فى ود ، وتفلت منه فى اللحظة الحاسمة قبل أن يضع يده عليها ، فقد وعت الدرس مبكرا ، وأدركت أن جسدها هو أرضها التى تحرص عليها وعزبتها التى تحرسها ، وأن نهاية العشق بهدلة وجرسة ٠ لكنها هذه المرة لم تكن حريصة على شىء ، قالت له :
ـ هات بوسة ٠
كان كرامة بين يديها وبعيدا عنها ، هائما فى عذاباته ، فقالت لتجذبه اليها فى صراحة بنات البلد :
ـ والنبى اذا كان لك غرض منى أنا تحت أمرك ٠
حتى ان فض بكارتها هذه اللحظة ، فسوف تسامحه ولن تلح عليه بالزواج والمتعلمون فى المدارس لا يتزوجون من الفلاحات ٠ لن تندم ، واذا حملت منه فسوف لا تسقط الجنين ، سوف تحمله على صدرها ، وتذهب بعيدا الى القاهرة وتتسول به فالتى مثلها لا تقوى طويلا على الدفاع عن نفسها ، وفى ساعة شؤم سوف ترضخ كما رضخت غيرها من البنات ، بالقوة أو بالاغراء ٠ والبنت التى ليست لها عزوة نبتة ضعيفة ، وجسدها الفائر أرض بلا أسوار تحميها ٠ وقالت :

ـ يوه ٠
وبعدها آكملت :
ـ أنا زهية يا كرامة ٠
قصائد الحب والغزل أفسدت لبه ، جعلتـه يتفـوه بذليل الكلام : خادمك المطيع الى الأبد يا سيدى ، فيصده الباشا عنه ، ويرفض العفو عنه ، ويعاجله بضربة تشـل جسده وتفلت لسـانه ٠ وكلما حميت الشمس وسخن صهدها ، أحس كرامة بالعرى ٠ وماذا يفعل ؟! وكيف ينتقم لنفسه ؟ هل يرقد للباشا فى الذرة ؟! أم يحرق له الزرع ؟!
فى بيت الحاج عمران المقاول ، فى العشـية ، خلع أبوه قفطانه وطوح به فوق الرؤوس ورماه ٠٠ قال لهم :
ـ هذا ظلم ٠
ثم جذب فانلته الى اعلى وسرواله الى أسفل وأضحى عاريا كما ولدته أمه ، وقال لهم :
ـ عليه العوض !!
الرجل يتلقى الضربات رافعا رأسـه حتى اذا جز عنقه ٠ أما أن يستعطف الباشا بذليل الكلام ، فقد أمات نفسه مرتين ، مرة بيد الباشا ومرة أخرى بلسانه ٠
قتلته نظرة أبيه ، ومات مرة ثالثـة ، وشـيعه أبوه ودفنـه فى كلمتين : عليه العوض !!
طابت جروح كرامة ، لـكن روحه احترقت ، وفارقته أوهـامه فى القرب من الأميرة جويدان ٠ وفقد الأمل فى موته ، فعظامه لم تتحطم ٠ وترك السكر يذوب فى فمه ، وبدأ فى بلع اللقيمات واحدة تلو الأخرى، وهمس لنفسه مرددا كلمات فقيه الجامع :
« خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها » ٠
لم تسبر زهية تماما معنى كلامه ، وان كانت قد خمنت مقصده ، انه يعزى نفسه قائلا : مقدر ومكتوب ٠ وتقول له وهى تقربه منها :
ـ ربنا يعلى مراتبك ٠
وتخففت من حزنها وكفكفت دموعهـا ، وان كان ما فى القـلب فى القلب ، وقالت هى الأخرى لنفسها : علقة تفوت ولا حد يموت ٠ وبدأت فى تقطيع الرغيف أربعا ، يمسك بالربع ويقضمه والكلمات تنساب من فمه :
ـ خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها ٠
فى لحظة وهو يقضم الرغيف، برق خاطر فى ذهنه كالشهاب وأحس

به نبراسا يضيء عقله ، فاسترجع كلمات عباس أبو حميدة له :
ـ هذا صراع تاريخي ٠
ودور الكلمات :
« هذا سحق تاريخي » ٠

والتفت اليها راميا رأسه على ركبتها ، ومد فمه لها مستعطفا ، فمالت عليه بجذعها كله ، وكبست فمها في فمه وقد تحاشت أن تلامسه بصدرها أو تترك شعرها يسقط عليه ٠

شد كرامة جسده وانتفض ٠ فك بعضه عن بعضه وتمدد في قعدته وفرد طوله ، وقرر أن يترك معسكر المسحوقين الى الأبد ٠ اشتعل ذهنه وتوهج ، على الرغم من أن الأوجاع العظيمة لا تطرح جانبا بسهولة ولا تفرط فيها النفس البشرية عن طيب خاطر بل تضيفها الى مآسي الحياة ٠

رفع رأسه ورمى بصره بعيدا الى حدائق المانجو ، اهتز قلبه ، ورف رمش عينه وهو يتذكر الأميرة جويدان ٠

سألته الفتاة ، وهي تخفي وجهها بالطرحة خجلة :
ـ متى نتقابل ثانية ؟!
قال لها وجسده كله ينتفض :
ـ عالسكة القبلية بعد العشا ٠

قرب ضحى يوم الجمعة كانت أخبار المعركة الدائرة بين بلوكات النظام وقوات الاحتلال فى مدينة الاسماعيلية قد ذاعت ، ووضع الناس آذانهم قرب أجهزة الراديو ، وقد قطعت الاذاعة برامجها وأخذت فى بث الأناشيد الوطنية •

هاجمت قوات الاحتلال بقيادة الجنرال آكسهام مبنى المحافظة فى الاسماعيلية فى الساعة السادسة صباحا والناس نيام ، وقدمت انذارا لقوات البوليس وبلوكات النظام تطالبها فيه بضرورة الانسحاب واخلاء المبنى وتسليم الاسلحة لقوات الاحتلال • لكن اليوزباشى مصطفى رفعت رفض الانذار ، وأصدر وزير الداخلية فؤاد باشا سراج الدين أوامره لقوات بلوكات النظام بالمقاومة وعدم الاستسلام •

دارت معركة ضارية على أبواب المحافظة بين قوات بلوكات النظام المسلحة بالبنادق القديمة وبين قوات الاحتلال التى نصبت ونشرت مدافعها ونشرت دباباتها •

وبين خبر وخبر نشيد وموسيقى عسكرية ـ فهذه المرة المعركة وليست عملية فدائية قوامها عدة أفراد من المتطوعين ، وهيبة حكومة الوفد أصبحت رهينة بنتيجة المعركة غير المتكافئة •

الدوائر الحكومية ـ يوم الجمعة ـ فى عطلة ، والمدارس أبوابها مغلقة ، والموظفون والطلبة فى بيوتهم ، ولا توجد نقاط تجمع للناس للتنفيس عن الغضب المتصاعد فى الصدور سوى الأسواق ومقار الأحزاب والمقاهى والمساجد • أما أولئك الذين اختاروا بذل أرواحهم فداء للوطن فكانت تجمعهم معسكرات التدريب فى جامعتى فؤاد الأول وابراهيم باشا وبعض النقابات العمالية •

واهتزت الطرقات والأزقة ، وأضحت القاهرة كوتر مشدود ، وانتقل الغضب المكتوم رويدا رويدا الى أطراف البلاد فى موجات متتالية مع تصاعد قرص الشمس فى طريقه الى منتصف السماء •

غابت زهية فترة لقضاء شئونها ، وعادت الى الترعة لتجد كرامة مكوما كما تركته ، فقالت له غاضبة :

ـ أنت مرمى هنا ، والاسماعيلية تغلى ، والحرب قامت ؟!

التفت اليها كرامة متعجبا ، وسألها :
ـ ماذا حدث ؟
قالت له ساخطة :
ـ الحرب قامت يا كرامة ، والملاعين في الاسماعيلية ..
فقاطعها طالبا منها أن تجلس الى جواره وتحكى له ما سمعت ، ففرشت جلابيتها الواسعة تحتها وجلست وهى تضم ركبتيها تروى له . واستمع اليها كرامة وقد راودته رغبة فى السفر الى مدن القنال والانضمام الى فرق المقاومة ، فالموت أفضل من هذه الحياة فى عزبة عويس . وقد جن والده وأضحى أضحوكة : على جسده آثار الضرب وقد تمزقت روحه بين كونه متدلما وبين حقيقة وضعه كعبد لدى جناب الباشا . رغبتان تتنازعانه ، احداهما تشده الى أسفل وتزين له الموت كمدا ، والاخرى تدفعه للانتقام وكراهية البشر . وبين الرغبتين يجلس حائرا على شط الترعة . ولا من أنيس حوله سوى أنفاس زهية ونبرات صوتها الحانية وهى تتردد حوله وتلفه بهالة من الحنان البشرى والتواصل الانسانى .
روت له زهية أن الشيخ سلامة أبو حجازى قد جمع الشباب حوله وحرضهم على الانتقام والثأر لعساكر بلوكات النظام ، وأن العائدين من البدرشين يقولون ان مظاهرة ضخمة سوف تخرج غدا للتنديد بالانجليز ، بينما فقيه جامع عزبة عويس فى حاله ويطلب من الله هداية أولى الأمر . والناس منقسمة بين الشيخ سلامة أبو حجازى نقيه البدرشين والشيخ لهيطة فقيه عزبة عويس ، وأبو جعفر شيخ الغفر دائر فى العزبة مثل الكلب السعران يبرطم ويرغى ويزبد .
وبدأت الحياة تدب فى جسد كرامة رويدا رويدا ، مد يده الى جسد زهية يلتمس منها القوة : ذراعها القوية المرنة مليئة بالرغبة فى الحياة ، وقلبها الكبير يتسع للكون ، ونفسها الأبية لا تعرف الكراهية أو اليأس .
أمسكت بيده وأنزلتها عن كتفها ووضعتها على فخذها وضغطت عليها حتى تظل ساكنة لا تعابثها وقالت له :
ـ هه يا كرامة . البلد فى حرب ، قم ...
العجز الذى يمنعه من الاقتراب من الموت أو الانتقام من الباشا يمنعه أيضا من القيام للحرب ومشاركة الرجال جلسات الصخب والسخط على الانجليز . يسمعها وهى تدفعه للقيام : قم . وكأنها

تنادى عليه من بعيد وليست جالسة الى جواره (ففي أذنيه همهمات الرجال وهم يحيطون به ساعة ضربه بالسوط ووجوههم جامدة والباشا يرفع يده بالسوط وينزل به على جسده) ٠

قالت له زهية :

ـ والنبى البركة فى سيدنا الحسين ، قم ٠

لكن سيدنا الحسين لم ينقذه من الضرب ، ولم تظهر الآية على جسده لتطهره من الذنوب ، وظلت الأميرة جويدان فى قصرها ولم تقرصها عقرب ، وغربت الشمس وطلعت وعادت للغروب والطلوع ، ولم تحترق حقول عزبة عويس أو تجف مياه الترعة ، وبقيت الحياة على حالها ، وظلت الاصوات الجافة حينما تتهامس هادئة خالية من المعنى ، كالريح فى الحشائش الجافة ويناير ينبت الزنابق من الأرض الميتة خالطا الذكرى بالرغبة تحت أمطار الشتاء ٠

واهتزت يده على فخذها وقد اختلطت الذكرى الحزينة بالرغبة الشبقية ، وحشيت رأسه بالقش ، فسرحت أصابعه الرفيعة وامتدت الى باطن فخذها ، فصدته فى ود قائلة :

ـ يا ندامتى !

ورفعت يده عن فخذها ووضعتها الى جانبها على العشب الذابل ، قائلة فى دلال :

ـ اصبر للعشية ٠

وبعدها أضافت قائلة :

ـ الساعة قلبى مقبوض يا كرامة ٠

كرامة مشغول بمعركته التى خسرها ، وقد تقوقعت روحه فى هذه القعدة على الترعة منذ تعليقه الى الجميزة ، وتكلمت مشاعره فلم تعد تطوف حول قصر الباشا أو الأميرة جويدان ٠ ومد يده ثانية الى الجسد الأنثوى الفائر ، وأراح راحته على بطنها تحت السرة ، فقالت له ضاحكة :

ـ هذا بطنى يابنى ، والنبى من الجوع والشقاء نشفنا ٠

وامسكت بيده فوق الجلابية ومررتها على بطنها وقالت :

ـ ولا حزام دهن ٠

ثم رفعتها عن جسدها ووضعتها الى جانبها واستعدت للقيام ٠

قال لها فى صوت يقطر حزنا وأسى :

ـ هدنى الملعون ٠

قالت له الفتاة مواسية :
ـ والنبى أنت كالجمل .
لسعات الصوت وهى ترتطم بجسده العارى مثل النيران التى تأخذ الروح وتغوص بها فى أعماق الأرض .
قالت زهية وهى تقوم وتعدل جلابيتها عليها :
ـ فى العشية .
وفى الطريق قالت لنفسها باكية :
ـ ماتوا الغلابة فى الاسماعيلية ساعة الفجرية .
وانطلق صوتها الشجى بالموال الحزين لترددده الغيطان حولها ، وكأنها تفرش بصوتها الكون شاكية من الظلم الأبدى :
يا بهية خبرينى
عا لى قتل ياسين
وعد ومكتوب على
ومسطر على الجبين
وغابت عنه وصوتها يأتى اليه واضحا :
وانا كل ما اقول التوبة
ترمينى المقادير
ومع صدى صوتها الحنون الملىء بالأنوثة تهتز عضلات جسده ، ويفارقه خوفه للحظة . ولما غاب صوتها عنه ، وحل سكون الترعة عليه وجد السكون ثقيلا ، واشتاق للناس ، للزحام ، لدفء السلام ، لضربة الفاس فى الحقول ، لصوت الشاى يغلى على الراكية ، لصوت أمه وحضنها ، وللهفة عمته عليه وهى تقول له :
ـ يامتعلم يا غالى .

دار عكاشة في العزبة مرتديا الجبة الجديدة والقفطـان وقد ربط وسطه بشال من الحرير الشاهي · قدماه في حذاء من الجلد اللميع · دس في مقدمته حشية صغيرة حتى لا يجرح أصابعه المعطـوبة · واذا رفع الجبة والقفطان ليعبر حفرة بان جوربه الصوف الجديد وهو يلف قدميه في حنية ·

العصا في يده والطاقية فوق رأسه وخلية نحـل تطن في أذنيه · يقول لنفسه :

ـ دبور يا عكاشة وزن على خراب عشه !!

يسير لوحده في تؤدة ووقار ، لا يهرول خلف العمدة حمادة أبوجبل أو شيخ الغفر أبو جعفر ، ويعيد ويزيد في حكايات الامس قائلا لنفسه : حـلم ولا علم ؟! الحـلم هو غنـاؤه أمام بنـات الأكابر أمس ومداعبـة مارتا له وتناوله العشاء في قصر الباشا أما العلم فهو أنه يغطي جسـده من أول الفانلة واللبـاس التحتـاني حتى الجبـة والقفطـان والحذاء والطاقية التي تغطي رأسـه والنقـود المستقرة في قعر سيالته في الصديري ·

عكاشة يسير في أزقة العزبة هذا الصـباح كواحد من الأعيـان ، والأعيان لابد لهم من مريدين يتحـدثون اليهم ، فالأعيـان لا يـكونون أعيانا بحق الا اذا استمع لهم الناس · وكلمـا فتـح عكاشـة فمه هذا الصباح وأدلى بعدة كلمات ، غمره الندم من أخمص قدميه الى قمة رأسه وقال لنفسه مرددا في أسى :

ـ دبور وزن على خراب عشه !!

خانته فطنته وفضـحه لسانه وتغلبت حمـاقته على مكره فاضـحى اضحوكة بين أهالي العزبة بين ليلة وضـحاها ـ أمس غادر القصر بعد منتصف الليل بقليل واتجه كالسهم لدكان المراكبي ، دق بابه ونادى عليه وأيقظه في غلظة بعد منتصف الليـل ليفتـح له الدكان ويبيع له القميص الساتان والجلابية الكستور والملابس التحتـانية والطـرحة السوداء لأم حبيبة ـ زوجته ـ أيقظه من النوم وهو يسبه ويلعنه وقـد

لعبت الشمبانيا برأسه ودغدغت حواسه النقود القابعة في سيالته وقد فارقه النوم واستيقظت عواطفه وتفجرت رأسه بالشهوة ٠

غضب المراكبى ودعا الله أن ياخذ عمره ويريح العزبة منه ووعد أن يتبرع ببفتة الكفن بالمجان وقال له وهو يشعل اللمبة الجاز :

ـ ان شاء الله أغسلك بيدى وألفك بالبفتة البيضاء وأكبس القطنة فى مؤخرتك واحط الحجر على الحفرة ـ يا كافر يا قليل الاصل ، عاوز قميص ساتان وردى بعد منتصف الليل والفجر داخل والناس بدأت تستعد للصلاة ؟!

ويكمل المراكبى غاضبا :

ـ ملابس تحتانية لأم حبيبة فى الفجر ـ هدومها سرقت والليلة دخلتها ؟!

عكاشة لا يشغل نفسه بالرد عليه ، ويقف مائلا بجسده وقد حنى رأسه وسط المحل وفى يده حزمة من النقود يحركها تحت اللمبة الجاز فتلمع أوراقها والمراكبى يتناول الملابس المعلقة بالخطاف ولسانه يدور فى فمه ٠

يسأله فى سخرية قائلا :

ـ حلفت عليك أم حبيبة بالطلاق أن تأتى لها الليلة بملابس جديدة يا عكاشة ؟!

عكاشة يقلب فى البضاعة صامتا ٠ القميص الساتان « المنديل بأويه » اختار لونهما ورديا أما الجلابية فلونها أحمر ٠

عاد عكاشة الى أم حبيبة وتحت ابطه لفة كبيرة ٠ أيقظها من سابع نومة وفتح اللفة وأخرج الملابس ووضعها الى جوارها على السرير وفوق اللحاف ، والمرأة تفتح عينيها وتغمضها وتغيب عنه وهو يحوم حولها كما حومت جولى حول أبيس وقد تلعثم لسانه واختلطت الكلمات فى حلقه ببعضها وقد نعمت لمسات يده وفارقت أنامله خشونتها ٠

قرب اللمبة الجاز من السرير وفرد الملابس أمام عينيها قطعة قطعة وهو يقول لها :

ـ هذا لك ٠

وقبل أن يتمدد جوارها دس فى يدها عدة جنيهات صحيحة قائلا :

ـ هذه لمواجهة تصرفات الزمان ٠

عدتها المرأة وهى مستلقية على ظهرها وربطتها فى منديل ، بيد واحدة ، تحت اللحاف ، وأخفته فى سابع أرض ٠ عيناها تضحكان من

الفرحة وصدرها الناهد يهتز . صوتها خفت وضاع فى حلقهـا ، واذا فتحت فمها غنجت ونطقت بفحيح مكتوم .

قفز عكاشة الى السرير وتمدد جوارها ، ومد يده وخلع عنها ملابسها الخشنة وتلمس جسدها ونزل بيده الى فخذيها وربت عليهما وفتحهما قليلا ، وتخلص من سرواله بيد واحدة ، ورفع فخذيها الى أعلى ، جذبها تحته ، واندس داخلها كطلوقة هائجة » .

وفى الصباح رشت أم حبيبة صفيحة مياه ساخنة أمام البيت وكأنها عروسة فى صباحيتها وداعبته قائلة :

ــ قتلتنى .

ينظر اليها صامتا وتضحك عيناه ويهز رأسه فرحا ، لقد فكت النقود ربطته وعادت اليه رجولته دون حاجة الى حجاب أو رمى قرموط سمك فى النيل .

ملست أم حبيبة على بطنها بعد الفجر بيدها مدعية الخوف من الحمل ولم تعد فيها صحة للرضاعة وكفاها متاعب أولاد وبنات ابنتها حبيبة ، فجذبها اليه وكبس فمه فى فمها كما فعلت جولى مع أبيس أمامه .

بدأ فى معابثتها من جديد وقد شقشق الصباح وعلا صياح الديكة . وقد أهاجته الأشواق الى طراوة جسدها وليونته ورغب فى معاودة الوصال ، لكنها صدته عنها فى رقة وتملصت من بين يده ، قائلة له :

ــ فى العشية .

أفطر عكاشة هذا الصباح على راحته وهو يحلم بدعوة مماثلة لدعوة الأمس عند أناس أكابر ينفحونه من النقود ما يفك ربطته وعجزه ، وارتدى الملابس الجديدة التى زوده بها أبيس أمس وخرج الى حاله ليدور فى العزبة بعيدا عن دوار العمدة ، موزعا أحاديثه وأغانيه على كل من يصادفه من المزارعين والأجراء وهو يروى لهم طرفا من أخبار ليلة أمس التى قضاها فى قصر الباشا فى جناح الأميرة الصغيرة .

عكاشة ليس ساذجا فيروى كل شىء للفلاحين ، فهناك أمور لا يصح قولها ، فالبيوت أسرار ، والعين لا تعلو على الحاجب ــ ولكن لا بأس من أن يقول ، انهم أكرموه : أناس أكابر بحق .

يستهل حديثه بوصف مائدة الطعام وأنواع اللحوم والسلاطات والفاكهة والمطبخ وأنواع الحلل والاوانى والأطباق والأكواب وبعد ذلك ينتقل الى جناح الأميرة جويدان وضيوفها .

يجرجرونه فى الكلام فلا يترك شيئا الا ويصفه لهم وقد تملكه

احساس بأنه ينتمي الى أولئك القوم وقد أصبح واحدا منهم ، وأنهم سوف يدعونه كل ليلة للغناء في القصر .

بعد الحديث حول الغناء وملابس « جولى » و « مارتا » القصيرة يحرقه الاستفسار عما حل بأبيس المسكين ، فيسأل القوم عمن سمع عن عملية الجب . ويشرح لهم الموضوع قائلا :

ـ هذه ليست طهارة .

يستمعون اليه ويضحكون ، فيشرح لهم بيديه ولكنهم لا يفيدونه فيتوجه الى دكان أبو سريع الحلاق . يستمع اليه الرجل الخبيث ، ويسأله ساخرا :

ـ من خصاك يا عكاشة ؟!

فيلعن له سنسفيل جده ، ويعاود شرح الأمر له ، فيقول له الحلاق :

ـ نعم . فهمت . المحاشم كلها . وليس الخصيتان فقط .

وعندما يروى لهم عكاشة شيئا عن الأنبوب الصغير الذى يقارب في حجمه حبة الفول يضحكون منه قائلين أنه قد جن ، فهذه أمور ربما تقع في النار لعقاب الفاسقين .

ويدورون كلامه قائلين :

ـ من يدخل القصر ، يقطع جناب الباشا محاشمه بالموسى .

ويعاودون سؤاله :

ـ قطامش وعبد الواحد أفندى ؟!!

فيقول لهم هامسا :

ـ كلا ، آبيس .

فيصدقون على كلامه :

ـ « خنتى » مثل المرحوم طنوشي أغا .

ودار عكاشة هذا الصباح في العزبة ولم يجد من يريحه ويدله على حلاق يقوم بعملية الجب . الجميع يتحدثون عما وقع في الاسماعيلية فاذا عرج بالحديث الى القصر أسكتوه بالقوة وطردوه وطلبوا منه خلع الجبة والقفطان وسحبوا الشال الشاهي منه وأوقعوا طاقيته على الأرض .

يحقدون عليه لدخوله القصر ، فاذا صادفه أبو جعفر شيخ الغفر جرى خلفه بالعصا وهو يهدده بقطع لسانه ومحاشمه ، ويطلق عليه الغفر لسحبه الى دوار العمدة ، فيراوغهم عكاشة ويهرب منهم .

هائما على وجهه في الغيطان يغنى الموال وقد طردته العزبة . وشاعت حوله الحكايات وأصبحت قصة شرائه للقميص الساتان الوردى

لام حبيبة في الفجر على كل لسان • وقد فضحه المراكبي وروى حكايته• قال لهم :

ـ جاءني عكاشة قبل الفجر • سكران ومعه نقود كثيرة • طلب مني فتح الدكان لأن أم حبيبة في حاجة للملابس تحتانية • شتمته • طردته • وبعدها قلبي حن عليه ، وفتحت الدكان • خفت تكون الحرمة نزلت الترعة وهدومها سرقت • قلت في نفسي سترة الولايا واجب •

وكلما سار عكاشة أوجع الحذاء الجديد قدميه المفلطحتين ، واذا صادفته حفرة أو قطعة أرض أغرقتها المياه رفع جبته وقفطانه وشلحهما على كتفه في ضيق وهو يقول لنفسه غاضبا منها :

ـ دبور زن على خراب عشه •

في قلبه خوف عظيم من الباشا والعمدة • أبو جعفر شيخ الغفر أقسم أن يخصيه ويقطع لسانه بسبب حكاياته التى شاعت على ألسنة المزارعين حتى وصلت الى ستهم والعمدة •

سألته مارتا الامريكية غاضبة أمس قائلة :

ـ فلاح عكاشة • جب • جب •

هددته بقطع محاشمه وتعليقها فوق الباب وأخذت أبيس أمامه في حضنها وفتحت له فخذيه والمسكين يتململ بين يديها كالفرخة المذبوحة • فوعدها بسؤال أبو سريع الحلاق • وهو يخشى أن تمسكه مثل أبيس وتقطع محاشمه وتحوله الى حرمة •

قال عكاشة لنفسه منكسرا •

ـ خلصنا من الرجال طلعت لنا البنات •

في حضن زوجته أم حبيبة كان بالأمس مثل الحصان • ذهنه يقظ وفي عضلاته قوة والنقود في قعر سيالته زادت من رجولته وحلت عقدته وقد ألهب القميص الساتان الوردى خياله وجعله ينقض على أم حبيبة ويتخيل نفسه ممتطيا « ستهم » زوجة العمدة ، فاذا تأوهت ضغط على رقبتها وهو يغمض عينيه •

قال لنفسه معجبا بزوجته :

ـ والله امرأة •

غاص داخلها وارتمى عليها بجسده الثقيل فتحملته ولم تصده عنها لكنها فتحت له فخذيها عن آخرهما وأحاطته بيديها وهي تسنده بكوعها اذا خانته قواه فأين مارتا أو جولى من هذه المرأة ؟! والله لو وقع على واحدة منهما أو مال عليها بجسده لتكسرت ضلوعها وصرخت • ويردد لنفسه :

- بنات بلدنا قوة وعافية ومعرفة بأصول الزوجية ٠

وقال لنفسه وهو يغوص فى الطين بالحذاء الجديد وقد لحق الوحل بطرف قفطانه :

- قبحها الله تلك المارتا ، مثلها مثل صبى أزعر ، كالجدى الشارد ، لا شعر لها ولا صدر ولا عجيزة ٠ هو ، امرأة ، الصبى ٠٠ جولى لا بأس بها ، ردفاها ممتلئان ربما من حبها للرقص البلدى ، وساقاها جميلتان، ولا ينقصها سوى أكل المفتقة بالعسل الأسود والسمسم ليستوى جسدها ويخرطها خراط البنات وينصلح حالها ٠

هددته مارتا بقطع محاشمه ، فقال لنفسه :

- خيبها الله ٠ ظلمها من ظلم ستهم ، وقسوة قلبها من قسوة قلب أبى جعفر ٠

منحته كل واحدة من البنات ورقتين بعشرة جنيهات ، ووعدنه باستدعائه مرة أخرى لاستكمال بحثهن حول الختان والطهارة وتقاليدها وأغانيها ٠ كل منهن شكرته على غنائه فى رقة فيما عدا مارتا : منحته نقودها بيدها اليسرى وهددته بقطع محاشمه بيدها اليمنى ٠ وقال لنفسه خائفا :

- هى أمريكية !

المعارك فى الاسماعيلية اشتعلت ٠ والقادمون من البندر معهم الأخبار ٠ يستمع اليهم وهو يسب الامريكان والانجليز قائلا :

- يا عزيز يا عزيز كبة تاخذ الانجليز ٠

ويعود اليه حماسه فيخلع الحذاء الذى يضايق قدميه المفلطحتين ، ويضع الشراب الصوف بداخله ويربطه بسعف النخل ويرميه على كتفه ويسير حافيا ٠

لن يخلصه من عذاباته سوى طرد الانجليز الملاعين ، ويسأل نفسه متعجبا : كيف يسكت عنهم معالى عويس باشا ؟! لكنه سرعان ما يدور المسألة فى رأسه قائلا : كلهن من طينة واحدة ٠ فقد تخلت عنه الاميرة جويدان فى محنته أمس وتركته فريسة لمارتا وجولى ويرد على نفسه :

- كلهن طينة واحدة ٠

وبعدها ينطلق صوته مجودا فى طرب :

- اللى بنى مصر كان فى الأصل حلوانى ٠

كلهم طينة واحدة وقد عجن بمياه العفاريت ٠ لا فرق بين مارتا الامريكية أو جولى الانجليزية والاميرة جويدان ابنة معالى الباشا أو ستهم

زوجة العمـــدة · الظلم فيهن طبع وهواية ، وعزهن من كد الفـلاحين وعرقهم ، وحروق كعبية ، من الملعقة الساخنة التي تكويه بها ستهم فى كل حول حتى لا تتلبسه العفاريت ، شاهد على الظلم ·

سال عرق غزير على وجهه السمين ، وأسرعت دقات قلبه من المشى ، ولفحته الشمس ، وضايقت قبة القفطان رقبته فخلعـه ورماه على كتفه وسار بالجبة ·

اتجه بعيدا عن عزبة عويس فى اتجـاه البحر الأعظم قرب الجيزة بحثـا عن الرزق وليتلمس أخبـار معـركة الاسـماعيلية فى المقـاهى والدكاكين ·

قادته قدماه الى دكان ترزى الامراء قرب كوبرى عبـاس بالجيزة ، فعمدة عزبة عويس حمـادة أبو جبل وشـيخ الغفـر أبو جعفر وعباس أبو حميدة يأتون لهذا الترزى لتفصـيل ملابسـهم · ووضـع عكاشة قفطانه على كرسى وخلع جبته وشاله وعرضها كلها للبيع قائلا :

ــ جديدة والله ·

قضى عكاشـة الصـباح مع الترزى يسـتمعان الى أخبـار معـركة الاسماعيلية من المذياع ويسبان الانجليز والملك والباشـوات ، وبعد مسـاومات شـاقة مع الترزى حصـل عكاشـة على ستة جنيهات ثمنا للقفطان والجبة والشال الحرير الشاهى ·

وفى طريق عودته الى عزبة عويس اشـترى مركوبا مريحا لقدميه وقرر الاحتفاظ بالحذاء الجديد اللميع سترة لوقت الحاجة فربما يدعى لاحياء حفل لدى بعض الأكابر ويحتاج اليه · ودخل عكاشة العزبة بعد صلاة الجمعة مرتديا الفـانلة والسروال الطـويل وكأنه قائم لتـوه من الغيط وحذاؤه مربوط بسعف النخل يتدلى على كتفه · والتف حوله من لقوه صباحا وهو يسير كالاعيان فى الجبة والقفطان يسألونه عن حاله وعما جرى له ، وهو يجيبهم بهزة من رأسه قائلا لهم :

ــ ان شاء الله مسافر الى الاسماعيلية فى العشية ·

يسخرون منه ، ويضربون كفا بكف ولا يعلمون سببا لخلعه الجبة والقفطان وسفره الى الاسـماعيلية فى العشية ، ويحذرونه من السِفر قائلين له :

ــ خل بالك فيه حرب فى الاسماعيلية ·

واذا اثقلوا عليـه بالسـؤال عن سـبب شرائه الملابس التحتـانية لزوجته أم حبيبة قبـل الفجر ، سـبهم وأطلق لسـانه بالموال يهجوهم ويلعن جدودهم ونسوتهم وبنـاتهن بكلمـات موزونة ، فيبتعـدون عنه اتقاء لشره وطول لسانه وخوفا من الفضائح ·

(١٤)

غرقت عزبة عويس والنـواحى المجـاورة لها فى موجة من الغضب والسخط على الانجليز بسبب مذبحة الاسماعيلية وقد شـاعت أخبارها وعرفت تفاصيلها ، وطوال اليوم أخذ الغفر يجـوبون العزبة كالمجانين بحثا عن المهيجين بناء على أوامر اللواء عويس باشا لحضرة العمدة ٠ وقد سرت اشاعات بأن مديرية الجيزة من امبابة الى مشارف بنى سويف قد امتلأت بمخازن السلاح ٠

توافد الناس على دوار جناب العمدة لسماع الاخبار وهو يقوم ويقعد بينهم طالبا الهداية من الله فقد فاقت مجزرة اليوم معـركة كفر الدوار والضحايا كلهم من رجال الأمن الغلابة ٠

وفى المساجد استمع الناس الى خطبة الجمعة ٠ ففى زاوية الشيخ سلامة أبو حجازى بالبدرشـين غمر الناس حمـاس جارف وقد طالبهم الشيخ بالخروج فى مظاهرات والثـأر من الانجليز أما الشـيخ لهيطـة ربيب اللواء عويس باشا وفقيه عزبة عويس فقـد اقتصرت خطبته على نصح الناس بضرورة اطاعة أولى الأمر والدعاء لهم بالرشاد ٠

علق بعضهم همسا على خطبة الشيخ لهيطة :

ـ هذا الملعون لا يعبد الله ، لكنه يعبد الباشا ٠

فيجىء الرد جاهزا :

ـ لحم اكتافه من خيره ٠

ويضرب المزارعون الأرض بفؤوسهم ويثرثرون ويقلبون الكلام وما فى القلب فى القلب ٠ وفى دوار العمدة ومندرته لها آذان وشعاره هذه الأيام :

دار على شمعتك تقيد ٠

واذا تحرش به واحد من الأعيان أو كبار التجار ، قال له :

« الحكم لأهل الحكم » ٠

تساورهم الشكوك فى مسلكه وصمته ، فعباس أبو حميدة لايجلس كالاطرش فى الزفة الا لغرض فى نفسـه أو لأمر يتـدبره ، فهو الذى يتطاول على الباشا وأعوانه فى الفاضية والمليانة ٠ ويوم جلد الباشـا كرامة وبخه بصريح العبارة وأخذ السوط من يده ٠

جناب العمدة يزجرهم ويطلب منهم ترك ولد عمه في حاله ، فقد طلق السياسة بالثلاثة على يده وتاب عنها ٠

الحاج علوان ، أكبر مقاول في المنطقة والنواحي القريبة ، لا يصدق جناب العمدة ، ويقول لهم :

« يموت الزمار واصبعه يلعب » ٠

فيرد جناب العمدة عليه موبخا :

« زمر على قدك يا علوان » ٠

فينزوى الحاج علوان متراجعا بين ضحكات الجالسين قائلا :

« وجب يا جناب العمدة » ٠

عباس أبو حميدة يجلس بينهم صامتا لكنه يقظ كالثعلب ، اذا رن جرس التليفون طرطق آذانه ، والخوف خوفه أن تشن مديرية الأمن بالجيزة حملة على المنطقة بحثا عن الاسلحة والهاربين ، وقد قامت في اليومين الماضيين بحملات تفتيش واسعة في الدقى والزمالك بحثا عن الدكتورة صباح ٠ وقد وعد محمد ابراهيم امام دوائر القصر والانجليز أنه سوف يصل اليها حية أو ميتة ٠

لقد ارتكب أمس أكبر حماقة في حياته عندما طلب من الدكتورة صباح توقيع الكشف على ابنة عمه ستهم ٠ خالف أوامر الرفاق وعرض حياتها للخطر ٠ ويخشى أن يسأله العمدة فجأة عن الطبيب الذى داوى ستهم أمس ووصف لها الدواء وعن سبب وجوده في عزبة عويس ليلا ، لكنه أخذ يطمئن نفسه :

اذا كانت زوجتى نفوسة بنت الشامي قد كشفت سرها وأيقنت أنها طبيبة وليست فلاحة هاربة من غيط العنب ــ فلا أحد يعرف اسمها الحقيقى وأنها ابنة أحمد باشا السيد ٠

حمادة أبو جبل عيناه على التليفون انتظارا للمكالمة الموعودة من المديرية بتعيينه عمدة على عزبة عويس والنواحى القريبة منها ، وقد وعده اللواء عويس باشا بالمنصب ٠ والاحمق يعتقد أن الحكومة مشغولة بأمره في هذه الظروف الصعبة : منع زوجته من زيارة طبيب في المديرية خوفا من تسرب أخبار مرضها فتتعطل تعيينه ، فلا يصح أن تمرض زوجة جناب العمدة بمرض أيوب شديد العدوى ٠ وترك المرأة تتعذب وقد أوشك الدود على أن يسرى في لحمها وضربها المرض من تحت الى فوق والعياذ بالله ٠

استأذن عباس أبو حميدة من حضرة العمدة طالبا زيارة الجماعة ،

ففتح له الباب المؤدي الى صحن الدار وهو يتعجل السؤال :
ـ هل تصدر حركة تعيينات العمد هذا الأسبوع ؟!
فأجابه عباس أبو حميدة فى قرف :
ـ ان شاء الله ٠
استقبلته ستهم بالفرح والترحاب ، وعلى وجهها ابتسامة واسعة ، عيناها مفتوحتان ، واسعتان ، وفيهمـــا لمعـة الرضا ، وغمازة الحسن تتراقص على وجنتها الوردية ٠ قالت له :
ـ بارك الله في الدكتور ٠ لم أعد أحك جلدى والبثور خفت ٠
وبعدها قالت له وهى تسير أمامه بقامتها الفارعة :
ـ لأول مرة يا ولد عمى تغمض عيناى فى الليـل ـ أخذت الحقنة ونمت ٠
قال لها سعيدا لسعادتها :
ـ بالشفاء ان شاء الله ٠
وعرجت ستهم للحـديث عن الطبيب وعنـوان عيـادته كمـا توقع عباس أبو حميدة ، فقال لها ضاحكا :
ـ هذا طبيبى يا بنت عمي ، فأين عكاشة طبيب جناب العمدة ؟!
فقالت له ضاحكة هى الأخرى وهى تعصب رأسـها أمامه بمنـديل بأوية كاشفة عن شعرها الطويل المسترسل كموج البحر :
ـ هرب الملعون ٠ قال راح يحارب فى القنال ٠ والنبى لأكويه ٠٠٠
قاطعها عباس أبو حميدة غاضبا :
ـ كفى ياستهم كى المساكين ٠ كفانا جناب اللواء ٠
قالت له المرأة فى شراسة :
ـ هذا نجس ٠
النساءالغاز ٠ كيف يتسنى لهذه المرأة أن تحـرق الرجال وتكويهم بالمعلقـة الساخنة بيـــدها ولا يهتز لها رمش لقـد جمعت بين الحســن والقسوة وكأنه لا قلب لها أو كأنها تمثال من الحجر ٠ وقال لها محذرا :
ـ الحكومة لن ترضى بكي الناس والعمدة ٠٠٠
ستهم فى قرارة نفسها لا تصدقه ، فالحكومة لا تتدخل فى شئون الناس ، والباشا يجلد المزارعين بالسوط السوداني والحكومة لا تتدخل، وعكاشة واحد من جماعة العمـدة وهى التى زوجتـه من أم حبيبـة بعد مقتل زوجها وترملهـا ، وهى التى تتكفـل بنفقـــات معيشتهم وتكويه بالملعقة كل حول لتبعد عنه الشـــيطان النجس الذى يتلبسـه ويدفعه

للهرب من العزبة ليلوطه الرجال ، لكن عباس أبو حميدة يخرج الكلام من فمه بميزان ، وزوجها ينتظر العمدية ٠ ودورت كلماته فى راسها ، وقالت له :

ـ حاضر يا ولد عمى ٠

فاجابها قائلا :

ـ يحضر لك الخير يا ستهم ٠

ستهم لا تقوى على مخالفة أمر لعباس أبو حميدة ٠ وهى اذا كانت فى عصمة حمادة أبو جبل من الناحية الشرعية فهى تجد نفسها مدفوعة لاطاعة عباس أبو حميدة وكأن روحها فى يده وليس عصمتها فقط ٠

وصرحت له بمخاوف العمدة هذه الأيام وأفضت له بأسراره :

ـ الاشارات نازلة ترف على حمادة تحذره من وجود أغراب فى العزبة والنواحى القريبة من حوض الشيخ سلامة أبو حجازى فى البدرشين ٠

قال لها مهونا الامر عليها ومستدرجا اياها فى الكلام :

ـ الناس تسعى لأكل العيش

قالت له وهى تعدل قصتها ضاحكة فى خبث :

ـ والدكتور ؟!!!

كاد يسبها وهو يقول لنفسه ضعت يا عباس ٠ وظل صامتا ٠ وأحست المرأة الذكية أنها أغضبته ، فقالت له ساخطة على تهورها واندفاعها الأهوج :

ـ والنبى هذا ظلم ٠ يتركون الناس تحارب الانجليز ٠

قالتها من قلبها وهى تسوى منديلها وتغطى رأسها ٠ فقال لها ضاحكا :

ـ البركة فى عكاشة ٠

قالت له جادة وقد عاد لها صوابها وتخلت عن جبروتها :

ـ والنبى لازفه وأوزع شربات لما يرجع بالسلامة !

واستاذن عباس أبو حميدة مغادرا قبل أن يشرب الشاى ، فحملته السلام الى زوجته نفوسة بنت الشامى والبنتين ٠

قلق هو ولا يقوى على البقاء فى موضع واحد ، فقد صعد الانجليز من عملياتهم العسكرية ضد المدنيين فى منطقة القنال ، والحكومة حائرة ، تحمس الناس فى الاذاعة والصحف ، ومن جانب آخر يطارد رجال القسم المخصوص كافة القيادات الوطنية ويضيقون الخناق على المتطوعين فتصلهم الذخائر بالقطارة ، واذا ضبطت ، صادرتها قوات الامن وقبضت على أصحابها ٠

تضايق عباس أبو حميدة لسماعه أن مديرية الامن مهتمة بما يدور في عزبة عويس والنواحي القريبة • وقد أخفى عنه حمادة أبو جبل أخبار هذه الاشارات وهو الذى يستشيره فى أمور أقل أهمية •

وقرر التوجه الى الجيزة لمقابلة بعض الرفاق لسؤالهم عما يفعل بشأن الدكتورة صباح اذا دهمت قوات الأمن العزبة ، ولوضع الترتيبات النهائية لاستضافة مندوبى عمال وجه قبلى فى المؤتمر التأسيسى لاتحاد العمال المزمع عقده بعد غد الاحد •

وفى طريقه الى البندر ، التقى عباس أبو حميدة بكرامة ولد السقا على الطريق العمومى فوقفا يتحادثان • سأله عباس أبو حميدة عن والده ، فأجابه كرامة حزينا وآثار الجلد باقية على جسده •

ـ يغيب ويظهر وفى يده حمامة •

قال له عباس أبو حميدة مواسيا :

ـ صدمة عصبية ، والزمن كاف بمداواة كل جراح •

وبعدها قال له موبخا :

ـ سمعت أنك تركت المدرسة •

تململ الفتى فى وقفته لا يدرى ماذا يقول له ؟! هل يصارحه بأنه فقد الرغبة فى الحياة وليس الدراسة فقط منذ تعليقه الى شجرة الجميزة ؟!

وأحنى كرامة رأسه فى وقفته ونور الطريق الخافت يضىء وجهه ، فقال له الرجل المحنك :

ـ هذا صراع طويل منذ أيام عرابى وليست المعركة معركتك لوحدك وعلى كل حال الغلط يركبك من رأسك الى قدميك لانك غازلت الاميرة ورفيقاتها •

اقسم كرامة له أنه لم يغازلها وأنه عاونها فى ركوب الحصان لكنه هو الذى جنح بها فوقعت على الأرض • فقال له عباس أبو حميدة ضاحكا :

ـ يا بختك أخذتها فى حضنك وشيلتها حتى السيارة •

عادت البسمة الى شفتى كرامة وقد ذكره عباس أبو حميدة بالاميرة وهى ساكنة فى حضنه وصدرها الى صدره وشعرها فى فمه • جسدها لدن ناعم ، حتى ملابسها ناعمة ملساء وليست مثل ملابس بقية النساء الخشنة •

العربات رائحة وغادية على الطريق • تارة تضىء أنوارها وجه

كرامة وتارة تضيء وجه عباس أبو حميدة • يقفان معا وفجوة واسعة تفصل بينهما ليس بسبب فارق العمر ولكن بسبب اللامبالاة التي يتناول بها كرامة القضية الوطنية في حين ان عباس ابو حميدة منغمس فيها حتى شوشته ـ وعباس أبو حميدة ليس ساذجا ويدرك أن الفتى غرر به ، فسأله :

ـ ما هي آخر اخبار بيت السناري ؟!

قال كرامة في فخر :

ـ انتهيت من دراسة قصيدة باللغة الانجليزية اسمها « الأرض الخراب » على يد أستاذ انجليزي •

فقال له عباس أبو حميدة مدعيا الغضب والسذاجة :

ـ الأرض عامرة بناسها وليست خرابا •

كلمات القصيدة تدور في رأس كرامة وتقف على طرف لسانه ، لكنه لا ينطق بها خوفا من مضايقة عباس أبو حميدة ، فمن أين لهذا المزارع البسيط معرفة شاعر انجليزي مثل اليوت واهتماماته كلها محصورة في مشاكل الأرض واخراج الانجليز من مصر ؟!

وعلى حين كان كرامة ولد السقا يقف مدعيا التواضع والشفقة وفي داخله احساس بالكبرياء لمعرفته هذا الشاعر الذي لم يسمع به رجل مثل عباس أبو حميدة ، كان الرجل الواقف في مواجهته يطوح راسه الى الخلف كمن يتطلع الى النجوم ، ويتذكر أياما سوداء قضاها في الهاكستب ، ويجهد ذهنه مسترجعا كلمات متناثرة غابت عنه • وقال له وهو يسترجع الفقرات من حنايا الذاكرة :

ـ أليس شاعرك يا كرامة هو الذي قال : نحن الرجال الجوف ، بالقش حشينا ، نميل معا ، وقد حشيت بالقش رؤوسنا ، فوا أسفاه •

أخذ كرامة على غرة ، وغرق في العتمة • انكمش في وقفته تحت عمود النور • طالت قامة عباس أبو حميدة وتجاوزت قامة الاستاذ ستيف الذي يشرح لهم أبيات قصيدة الأرض الخراب في بيت السناري مرة كل أسبوعين •

عباس أبو حميدة ليس فلاحا فقط ولكنه فيلسوف أيضا • حكيم من حكماء الزمان • انقذه من يد الباشا ، ويعرف شعر اليوت ، ويسير في العزبة يوزع بركاته • وغالبه الفضول لمعرفة سبب حفظه لكلمات هذه القصيدة التي كان يعتقد أن أحدا في بر مصر لم يسمع بها سواه

والمترددين على بيت السنارى وطلبة قسم اللغة الانجليزية الذين يدرس لهم مستر ستيف ـ فكيف وصلت له ؟!

الحف كرامة عليه بالسؤال ، فأجاب الرجل عن طيب خاطر قائلا :

ـ فى سجن الهاكستب سنة ١٩٤٦ فى عهد اسماعيل صدقى ، كان معنا أستاذان فى الجامعة ، أحدهما من الصعيد الجوانى ومشغول بشاعرك الانجليزى والآخر مشغول بأشعار عبد الله نديم كانا على طرفى نقيض ، كان هذا الاستاذ يردد علينا : نحن الرجال الجوف ، فنغنى له : يا وابور الساعة اتناشر يا مقبل عالصعيد ٠

كان كلاهما على عجل ، عباس أبو حميدة يود اللحاق برفاق له فى بندر الجيزة لتسوية بعض المسائل الخاصة بالعمال القادمين من الصعيد ، وكرامة يتعجل الذهاب للقاء زهية وقد حطت العتمة ودخل المغرب ٠ ولم يخبره عباس أبو حميدة سبب دخوله الى معتقل الهاكستب سنة ١٩٤٦ بعد أن أثار فضوله ، وكان الود وده أن يروى له سبب مواجهتهم أستاذ الجامعة الصعيدى بأغنية يا وابور الساعة اتناشر : على الرغم من تعلم هذا الدكتور الصعيدى القادم من قنا لغة الخواجات وسبره أغوارها عجز عن تعلم لغة البندر حتى أصبح نطقه للكلمات مثيرا للسخرية وكان يخلط اللغتين الانجليزية والعربية قائلا فى صعيدية محببة : جل لى يا مستر ٠

يغنون له ويصفقون فيفرح كالاطفال قائلا لهم : والله زمان ٠

حكايات كثيرة يود عباس أبو حميدة أن يرويها لكرامة لكنه على عجل من أمره هذه العشية ، فأجل حديثه معه وافترقا ٠

انطلق كرامة عائدا على الطريق العمومى حتى انقطعت الرجل ثم انحرف الى مدق ترابى مهجور وسط الغيطان يقوده الى الترعة بعيدا عن العيون ٠

اندفع وسط الغيطان مثل قطاع الطرق ، واذا سمع حركة بالقرب منه غاص فى الذرة ٠

أضاءت كلمات عباس أبو حميدة شمعة فى رأسه ، وفتحت أمامه طاقة واسعة للخروج من محنته ٠ وفارقته آلام الجسد من جراء الضرب ، وحلقت روحه فى سماوات الرجل المحدث بخبراته فانتعشت ٠ استمع اليه مبهورا بخلقه وعلمه وكأنه يستمع الى الاستاذ ستيف الذى يأتى اليه المثقفون والمعيدون للاستفادة من علمه فى بيت السنارى ٠ وعلى الرغم من متاعب الذهاب من عزبة عويس الى بيت السنارى فى السيدة

زينب ، فانه في تلك الحلقات كان يحس بآدميته التي يفتقدها في عزبة عويس ، وتتفتح أمامه مجالات المعرفة الرحبة ٠

ويتوغل كرامة في الغيطان ٠ عيناه يقظتان ٠ أذناه مرهفتان لالتقاط نأمة الاعشاب وهي تتكسر تحت قدميه أو حفيف أوراق الذرة وهو يزيحها ليمر بين العيدان التي ترمي أوراقها على المدق ٠

زهية جسدها عفي ٠ شابة مليحة ٠ روحها صافية مثل صفاء السماء ٠ عطفت عليه في محنته وتولته برعايتها ٠ غسلت له جروحه وضمدتها في بيت عمته وأسندته اليها وصحبته ليتمشى في العصرية لما أفاق من غيبوبته ودبت الحياة في عروقه ٠

تحضر له لفة الطعام على الترعة ساعة الظهرية ، وفي العصرية تصحبه لدار الحاج عمران عند عمته ، تحادثه علانية ، لكنه هذه المرة يتسلل اليها سرا بعيدا عن العيون لسبب في نفسه ٠ عقد عزمه على امتلاكها ودغدغة عظامها لتعود اليه حيويته ويحس بانسانيته ، ويأكل من طبقها حتى يشبع ٠ وطوال الطريق يحس بنفسه سائرا على أرض صلبة ، وتتنازعه رغبتان : التحليق في سماوات الفكر أو النزول الى أرض الواقع ٠

كرامة يدرك أنه يقابل جميلها بالجحود ، لكنه لايجد أمامه طريقا آخر يحقق له انسانيته ، وقد أعمت قلبه الشهوة ، وتذكر قول أحدهم في ندوة بيت السناري ٠ ان الانسان في مقدوره مضاجعة أمه اذا أعوزته الحاجة ، فأحس براحة وأسرع الخطو ٠

كان كرامة وسيما وكل صبية في العزبة تتمنى وصاله ، لكنه كان عزوفا عن بنات العزبة والنواحي القريبة وقد تعلق قلبه ببنات البندر : بنات المدارس والجامعة المثقفات اللاتي يحضرن ندوة الشعر الانجليزي في بيت السناري ٠

وقال لنفسه وهو يخترق المدق كجرذ : للتحليق في السماوات يتعين الوقوف على الأرض ٠

كما أنه ، منذ تعليقه الى الجميزة ، لا يود تذكر بنات بيت السناري ولا مقابلتهن أيضا بعد جلده ، فكيف يقبلن التحدث اليه بعد تعليقه وضربه كطفل صغير وهو مربوط بعد أن كان يقف اليهن ويحادثهن ورأسه مرفوع وقامته منتصبة ٠

في حضن زهية سوف يغتسل من أحزانه : انتشلته من بئر الموت ، وها هي تمنحه الحياة مرة ثانية ٠

كانت أمه تحذره دائما من البنات اللاتى يكبرنه عمرا خوفا من اتلاف شبابه وتغريرهن به واجباره على الزواج منهن وهو المتعلم ابن المدارس _ لكنه هذه الليلة سوف يضرب بتحذيراتها عرض الحائط .

زهية واحدة من اللاتى يعشن حياتهن يوما بيوم ، لا تمتلك أرضا أو ماشية وان كانت تعد فى زمرة الفلاحات ، تكفيها عدة لقيمات وقطعة جبن وفحل بصل لتسد غائلة الجوع ، وجسدها تكفيه خرقة قماش ملونة لستره ، دعته لولوج جنتها الخاصة الليلة ولن يرفض دعوتها ، ويتخيل جسدها فى العتمة . ويشتد عوده وترتفع قامته وقد عاودته الحمية ونسمة باردة تهز عيدان الذرة فتهتز أوراقها وتتراقص حوله فى فرح .

فى الأيام السابقة كان لا يستمع الى نباح الكلاب ولا يلفت نظره نهيق الحمير ، كان ميتا وجثته طوح بها فى أرض خراب ، فغابت الاصوات عن دنياه وغمره الصمت .. وتنامى اليه نباح الكلاب من بعيد وهى تتعارك ، فأحس بثقل جسده وقوته وهو يزيح أوراق الذرة عن طريقه ، فيداه ليستا مقيدتين ، ورئتاه تتنفسان هواء الليل المنعش بعمق ، ومنخاراه يستنشقان أريج كيزان الذرة .

فى عشة مهجورة على مبعدة عدة أمتار من ساقية عباس أبو حميدة كانت زهية جالسة على حصيرة ممزقة والى جوارها زوادتها . ارتدت جلابية نظيفة ملونة وجلست تنتظر وقد انعكست على وجهها أضواء الترعة .

أحست به وهو يخترق عيدان الذرة ، فتنحنحت وسعلت سعلة خفيفة ، وبصوت خافت نادت عليه ، فأقبل عليها منطلقا كالرمح .

على الحشية التى أعدتها له جلس ، ومال عليها بجسده فتلقفته بيديها وأسندته قائلة فى ود :

_ كل لقمة .

فتحت الزوادة . بها فردة حمام محشية بالفريك وعدة فطائر بالزبدة وقطعة جبنة قريش وحزمة فجل « وراور » . فرشت قطعة حرام ممزقة ، وكلما أخرجت شيئا من الزوادة وضعته على الحرام أمامه قائلة :

_ بصحة وعافية !

جاء اليها ويداه خاليتان مثل التلميذ الخائب : يد الى الخلف ويد قدام . كان فى مقدوره أن يحضر لها خاتما أو عقدا من تلك البضائع

التى يسرح بها تحت الأهرامات يوم الجمعة وأيام المظاهرات لبيعها للسياح ، فكيف فاتته هذه الفكرة ؟!

ذات مرة استعار كتابا من ايناس فأعاده اليها فى المرة التالية وفى داخله فلة ، فكيف نسى زهية الى هذا الحد ؟! لكنه تماسك فى قعدته ، فهذه ليلته ، وأبعد عنه كل ما يشعره بالندم أو الخطيئة أو الذلة ٠

ناولته فردة الحمام قائلة :

ــ امسح ريقك !

اقتسمها معها فأقسمت أنها نصيبه وحده ٠ وتناولت الحمامة ومزقتها وأخذت تلقمها له قطعة قطعة وهو يفتح فمه ويهرس اللحم بالعظم ويبلعه ٠

من حين الى آخر يترك لها نصيبه لتضعه فى فمها وتمضغه فى بطء وتلقمه هى فى مقابل نصيبها نصيبين أو ثلاثة ٠ تلقمه الطعام بيديها ويداه خاليتان فيضمها الى صدره وفكاه دائران كالطاحونة فى فمه ، فتطلب منه الصبر قائلة :

ــ ابلع أولا ٠

ينزل يده عنها ويطعمها الفطير المشلتت وتلقمه الحمام فى قسمة غير عادلة ولكن مرضية ٠ كانت تود أن تعد له خمسة أزواج حمام لكن يدها قصيرة ، وقد منحتها زوجة الحاج عمران المقاول فردة الحمام على سبيل السلف والدين وزودتها بالفطير المشلتت والجبنة من قبيل الشهامة والمحبة وقد أدركت أن الصبية ذاهبة للقاء كرامة من وراء ظهر ضرتها زوجة الحاج عمران القديمة ٠

بعدما انتهى الباشا من جلد كرامة ، سأل الفلاحون عباس أبو حميدة أين يحملوه ، فأشار عليهم بنقله الى بيت عمته زوجة الحاج عمران القديمة حتى تخف جروحه ٠

وفى بيت الحاج عمران تعرف كرامة على زهية التى تخدم عمته عزيزة وفهيمة زوجة الحاج الجديدة ، تسهر على راحتهما ، وتكرمها عمته عزيزة وتنزلها منزلة ابنتها وقد حرمت من الخلفة ، ولكن كان قلب زهية يميل دائما الى الزوجة الجديدة فهيمة التى تقاربها فى السن٠

انتهى كرامة من تناول فردة الحمام ولم يسألها عن مصدرها فوفر عليها الحرج وأعفاها من الكذب ، وعلى كل حال طعم الفطير يذكره بفطير عمته التى اشتهرت بصنعه على مر السنين ٠

مال عليها وأحاط كتفها بيده اليمنى ، وبركبته أسند ظهرها اليه

فاستكنت بين فخذيه ، وبيده الاخرى حرر الثدى المقابل له من مشد صدرها واخرجه من فتحة الجلابية الواسعة رجراجا كطبق القشطة ٠
ساقه المفرودة لصيقة بفخذها ، وأصابع قدميه تعابث سمانة رجلها وبشفتيه يقضم حلمة اذنها ٠ قبل مجيئه كانت خائفة أن يرتمي عليها مثل الحمار الهائج فتصده عنها صارخة وتقع الفضيحة ، لكنها وجدت نفسها مستقرة بين يديه تكاد تسمع دقات قلبه وقالت متعجبة :
ـ والنبي أنت لك مائة يد ومائة فم ٠
شجعته كلماتها فضمها اليه بقوة ، واستجابت لضمته تود الاختباء بين ضلوعه ٠ يداها مستكنتان لا تتململ الا اذا عضها في شراسة أو ضغط على صدرها بقوة ٠
سلمته نفسها راضية ليدخل بها ، وفي قرارة نفسها احساس بالندم لأنها تكبره بعامين وتغتصبه باستكانتها : وسوف تقوم ضدها العزبة اذا ادعت أنه خدعها أو اغتصبها عنوة ٠
زهية ليست ساذجة ، فقد لطمتها الأيام منذ طفولتها ، وعلى يقين من أن كرامة لا يحبها وانما هى نزوة عابرة ٠ ومن نظراته التى يصوبها الى قصر الباشا تدرك أن قلبه متعلق بالأميرة جويدان ٠ وهو ليس من نصيبها ، لكنها تمنحه الليلة جسدها لتخرجه من ورطته ، فجسدها ليس ملكا لها ، هو ملك من يملكون الأرض والمال ، وهى لا تزيد عن نورية كانت في صغرها تجرى وراء الماعز من عزبة الى أخرى تسوقها في مقابل ثلاثة تعريفة فى الأسبوع ، فلما كبرت على الجرى وراء الماعز بدأت الخدمة فى الحقول والبيوت ـ واذا كانت قد احتفظت بعذارتها حتى هذه اللحظة ومنعت الرجال عنها ، فانها سوف تفقدها غصبا عنها فى يوم قريب ، وقالت لنفسها راضية : طظ ٠
قال لها :
ـ أحبك يا زهية ٠
عرت فخذه وجذبت عنها فستانها ولصقت فخذها بفخذه وغطتهما وهى تحس بانتصابه فى جنبها ٠ مالت بجسدها اليه ومدت يدها اليه خجلة فى البداية ، يدها ترتعش ، وبعدها لم تحس بشيء ، أراحت رأسها على صدره وغابت ٠
وكان القمر قد صعد الى قبة السماء ، وكان نقيق الضفادع يدفعها لطلب المزيد من المتعة ٠
ولما انتهيا ٠ جلسا متقاربين وليسا متلاصقين ٠ أحست بألم خفيف

فى بطنها وقدمت اليه المنديل وعليه قطرات من الدماء وقالت له فى حسرة :

ـ كان نفسى فى زفة مثل البنات !!

غنت بصوت خفيض : « قولوا لأبوها يروح يتعشى ... »

ثم توقفت عن الغناء وطلبت منه أن يدير وجهه عنها ، وأدخلت فصا من الملح الرشيدى فى جسدها وغسلت نفسها بالشبة وضمت فخذيها وجلست على الحرام الى جواره تتأوه . قالت وهى تكاد تصرخ والدموع تفر من عينيها :

ـ نار !

اقترب منها ، فأخفت عنه ما يؤلمها . هؤلاء التلاميذ ليست لهم خبرة بالوصفات البلدية ـ وهذه وصفة مؤكدة تمنع عنها الحمل : الشر بره وبعيد .

استكنت فى جلستها وفخذاها مضمومتان ليمتص جسدها فى الملح وكأنها تتعبد فى ضوء القمر .

قالت له من قلبها قبل ان تغادره :

ـ ان شاء الله وزير ولا سفير يا كرامة يا ابن سرحان السقا .

كرامة مستلق على العشب يرقبها وهى تجمع حاجاتها . صامت . حاضر معها وغائب عنها . عاجز عن التعليق أو الشكر . الكلمات تخونه . فى داخله مشاعر متضاربة تتراءى فى ضوء القمر كالأطياف حوله وتجذبه بعيدا عن بئر العذابات الذى رماه فيه اللواء عويس باشا عن قصد .

(١٥)

الليل والنهار متصـلان بخيط رقيـق من الضـوء الأحمر . ينعس ويقوم والشفق الكابى فى عينيه . فى النهـار يحث الخطـو هائما فى الطرقات وفى الليل يرقد سـاكنا فى المسـاجد وعلى الأرصـفة ، وعلى لسانه فى وحدته كلمتـان : عليه العوض !! بهـاتين الكلمتين البليغتين يوجز مأساة حياته ويربط بين شقاء الدنيـا ونعيم الآخرة . كلمتـان فيهما البركة كلها ، فاذا كان الشقاء رفيقه فى عزبة عويس ، فالعـوض على صاحب العوض الذى سوف يعوضه عن شقاء الدنيـا بنعيم الآخرة الأبدى .

الحمامة المستكنة على صدره مربوطة بسلسلة حديدية الى معصمه . يقدم لها حبات الفول على كفه ولا يعجز عن سقيها قطرات الماء وهو السقا الذى أفنى عمره فى سقى سكان عزبة عويس الماء من قربته .

« درويش فى أرض الله ومجذوب الى نوره . »

سمعها فى جنبات سيدنا الحسين فعلقت بذهنه وأصبحت نبراسا له وشعار حياته ، حررته من القربة الثقيلة التى كان يحملهـا على كتفه أثناء دورانه كالنحلة فى الأزقة المتربة ، عزلته عن أهله وناسه فى عزبة عويس ، لكنها ربطته بكل الناس بوشـائج من الحـرير ، فخسر الجزء وكسب الكل ، وأصبحت هويته من هوية النـاس بعد فقدانه هويته ، ومات سرحان السقا وولد الدرويش فى داخله .

منحه الشيخ سلامة أبو حجـازى السر ومنحـه بركته وأخذ عليه العهد وتركه يضرب فى أنحاء المدينة فى ملابسه الزاهية الملونة يلتقط رزقه مثل العصافير .

قال له :

ـ سبح باسمه ياسرحان فى كل مكان وزمان ، فلا فرق بين مكان وآخر فأرض الله مستوية ، وغطاؤها السماء ، وبرها موصول بالبحر ، وليلها موصول بنهارها وساعاتها مواقيت عبادة .

ذهب اليه سرحان السقا عاريا كما ولدته أمه وقد ترك خلقاته الرثة في بيت الحاج عمران المقاول ، فاستقبله مهللا وقال له :
ـ حسنا فعلت • خلعت رداء الدنيا وارتديت رداء الآخرة •
ومنحه كسوة الدراويش ، وقال له :
ـ هذه كسوة الرحيل من الدنيا الى الآخرة • ضعها على جسدك حتى يحين موعد تسليم الأمانة •
قال له سرحان السقا :
ـ جلد ابنى وحيدى وأود الاذن بطخه •
قال له الشيخ سلامة أبو حجازى :
ـ انس الدنيا •
كرر سرحان السقا قوله ، فأجابه الرجل مهدئا :
ـ جئتنى لمناقشة أمور الدنيا أم الاخرة •
قال السقا :
ـ جئت أبحث عن الراحة •
وأجاب الرجل :
ـ اذن سر على طريق الآخرة وتوكل عليه •
وخرج سرحان السقا من زاويته في البدرشين وقد ترك الدنيا خلفه ونسى اسمه وتخلص من هويته وذاب بين البشر • ومن ينس هويته ينس همومه • أرض الله ملكه ، ومن يمتلك أرض الله لا يبحث عن شيء آخر ليمتلكه ، فمن يملك الكل لا يبحث عن الفتات !

كل الناس أبناؤه وبناته ومن يتبن البشر لا يحزن لفقدان ابن واحد أو امرأة واحدة • الشعاع الأحمر الذى يربط النهار بالليل في عينيه ، في النهار يربطه بقرص الشمس وفي الليل يربطه بالقمر ، والنهار موصول بليل ويأكل أحدهما الآخر ثم يلفظه ليولد من جديد •

في غفوته تأتيه الهداية والبشرى فيرى فيما يرى النائم أحوال الناس وترتسم أمامه مصائرهم ، يرقبهم وهم يتصارعون فيضحك منهم، وفي بعض الليالى يرى نفسه ممسكا بالجمر في يديه ولا يحترق جلده ، ويفتح عينيه فيرى فيهما الشعاع الأحمر الذى يربط الشمس بالقمر والنهار بالليل •

هى الصاعقة تنزل من السماء فتقضى على الأخضر واليابس • قال لنفسه :
« عليه العوض » •

يضرب في أنحاء المدينة التى تحترق وهو يمسك بكرات النار بيديه ويرمى بها ولا تحترقان وقد تحققت نبوءته ونزلت الصاعقة من السماء لتأكل الاخضر واليابس • الصبية • البنات • المسئولين • المزارعين • الجائعين • البلهاء • العقلاء • العمال • الطلبة • والود وده أن تنحرف الصاعقة قليلا عن شارع الأهرامات وتميل الى اليمين لتلحق بعزبة عويس وتنقض على القصر فتحوله الى رماد أغبر ـ لكن الأمر لصاحب الأمر وكل شيء بمشيئته • ويسير وسط الزحام مندفعا مهللا :

« درويش فى أرض الله ومجذوب الى نوره » •

الشعاع الأحمر فى عينيه ، والليل يأكل النهار ، والناس أشباح ورائحة الدخان عطرة ولا ينقصها سوى البخور والدعاء لتكمل الحضرة • يسير ويتعثر فى مشيته وقبضتاه القويتان اللتان عرفتا توزيع الماء على الدور من بزبوز القربة ينفثان نيرانا حارقة • يكور الحجارة فى خرق مغموسة فى الجاز ويقذف بها على واجهات الملاهى والمحلات والعربات فتنزل عليها نزول الصواعق •

مات السقا موزع الماء الزلال وولد الدرويش مشعل النيران • ناداه المنادى فلبى النداء •

مأخوذ بالحرائق • يشعلها ويقتحمها ويتفرج عليها • يقترب منها حتى ترفرف الحمامة وتضربه بجناحيها فى وجهه وتنقره فى رأسه فيبتعد • أشعة الظهيرة تغرق الكون بنورها ، والعتمة تنتشر فى عينيه والشعاع الأحمر يربط بين النور والظلام ، فاصلا بين النهار والليل وواصلا بينهما ، والنيران نورها من نور الغسق الكابى •

ساعاتها مواقيت عبادة • ويسال الرجال عن دخول المغرب وقد فارقه صمته وجرى الكلام على لسانه مع كل جذوة نار يشعلها ، فيقولون له حل الظهر ودخل العصر ، فيسبح فى بحر الزمان وقد اختلط النهار بالليل فى عينيه وأصابه ذهول •

فى بيت الحاج عمران كان ابنه كرامة ممددا على فروة خروف ـ وعمته عزيزة تطيب له جروحه بالزيت ـ راقدا كالفرخة المذبوحة مستسلما • نظر اليه نظرة غضب انفجرت لها عروق رأسه واشتعلت لها جبهته بالصهد وضربه سيخ من النار فى عينيه من الداخل ، واحدة بعد الأخرى ، فقال لهم من شدة الألم :

ـ عليه العوض •

توسل ابنه الى الباشا وطلب منه العفو ولم يواجهه مرفوع القامة

شامخ الرأس مثـل الرجال الذين سبق جلدهم · نطـق بذليـل الكلام قامات نفسه · رآه مذبوحا على الحشية وقد شـقه الشعاع الأحمر الى نصفين :

رأسه فى ناحية ، وقدماه فى ناحية وقد بقرت بطنه وسـالت منها الدماء · وزاد الصهد وتفصد عرقه وسال ورأى اللون الأحمر فى ملابسه وقد سخن جسمه فخلع خلقاته ليطفىء النيران التى لحقت به وفر هاربا من العزبة ·

رمى نفسه فى الترعة وغاص فيها برأسه والنيران لا تزال مشتعلة فى جسده ، وملس على جلده فوجده سليما فأدرك السقا أن النيران قد اشتعلت فى داخله ، وجرى وجرى وجرى حتى وجد نفسه تحت قدمى الشـيخ سـلامة أبو حجـازى راكعـا ، طلب منه أن يبعـد النيران عن جسده ، ويريحه من عذاب عينيه ·

وكما اختبأ آدم من وجه الرب الاله فى وسط شجر الجنة قائلا له :

« سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لأنى عريان فاختبأت » ، إخفى سرحان السقا عورته أمام الشيخ سلامة أبو حجازى قائلا :

ـ عريان كما ولدتنى أمى ، وملابسى لحقت بها النيران ·

يده فيها بركة وفمه ينطق بالحق · خلصه من عذابات الدنيا ودله على طريق الأبدية ، قال له :

ـ سبح باسمه ياسرحان فى كل مكان وزمان ·

وها هو يشعل النيران فى أماكن اللهو والفساد وقد جاءته الرؤية فى المنام فلبى النداء وخرج الى المدينة ليحرقها بيديه الضعيفتين لتتحقق مشيئته · ورأى نفسه مكتسيا كسوة الآخرة تحيطها هالة من الضـوء الأحمر الكابى كلون الشفق ·

أيامه قضاها سـائرا من عزبة عويس الى سـيدنا الحسين · ذاهبا وعائدا على الطرقات المتربة والمعبـدة ، طعـامه لقيمـات ، وأهل الخير يتباركون به ويطعمون حمامته الزغلولة المستكنة فى الدفء الى صدره ، واذا راق باله قال لهم مشيرا الى الحمامة فى صدره :

ـ شوى عويس باشا البغبغان وأعاده من يعيد الحياة ·

أطلق عليه المتظاهرون : « مولانا » ، يأتمـرون بأمره ، يسـيرون خلفه ، يقطعون الخرق له ويحملون له قطع الحجارة وصـفائح الجاز ، فيشعل أول كرة ويقذف بها ، فيهللون ، ويتبعـونه فى القـاء الكرات المشتعلة ، حتى تتصاعد النيران ويتكاثف الدخان وتوشوش له الحمامة

وتضربه بجناحيها فى وجهه ، يستمع اليها طائعا ، تهمس له فياتمر : الطيور ملائكة الله على أرضه · يسبحون له نهارا وليلا ويعلمون مشيئته ، وحمامته مرفوع عنها الحجاب ، اذا وشوشت له بالتوقف توقف ، واذا أمرته بالاستدارة الى الخلف استدار ، واذا أمرته بالهجوم هجم ، من منقارها الصغير الأخضر يتلقى الوحى من السماء ، لقد وضع سبحانه وتعالى سره فى أضعف خلقه وجعل لكل شىء أسبابه ·

جلد اللواء عويس باشا ابنه بالسوط عدلا وحكمة ، بمشيئته تعالى جلده ، وما كان باستطاعته رفع يده بالسوط وضربه الا باذنه ، وهذا كله ، كى يخلع عنه رداء الدنيا ويرتدى رداء الآخرة ·

جاءته البشارة مرات عديدة فى الماضى لكنه لم يفهم · أغواه الشيطان فسار على دربه : يحمل قربته على كتفه ، ويدخل الدور ويلتقى بالنساء ، يغازلنه ويغازلهن ، بطلعته على أسرارهن ، يعابثنه ويعابثهن ، يلاعبنه ويلاعبهن · أستار الدور مكشوفة لديه · انه السقا ، يدخل الدور ، قربته على كتفه ، طويل القامة مثل النخلة ، عوده مشدود ونحيف مثل عمود الخشب ، عيناه حادتان مثل صقر · والنسوة ألغاز ، يسترنه ويسترهن ، ومن تمنعت عليه فى شبابها نالها بعد زواجها أو طلاقها ·

فى كل بيت له عشيقة متيمة بحبه ، ودور الفلاحين فى النهار خالية من الرجال وكما يوزع عليهن الماء بالدور يمنحهن شيئا من رجولته ·

نوادره معروفة وفسقه شائع ، ولا أحد يأخذه مأخذ جد سوى حضرة العمدة حمادة أبو جبل الذى حرم عليه الاقتراب من داره ، وكانت أخبار غزواته لا تغيب عن بال ستهم ـ وعندما غادر العزبة عاريا كما ولدته أمه قرب العشية ، قال أبو جعفر شيخ الغفر للعمدة :

ـ النسوة لحسن عقله ·

فقال له العمدة :

ـ ورث الفسق عن أبيه السقا الكبير ·

النور الأحمر الذى يضىء عينيه يخفت وتزحف العتمة وتأكل النور وتضيع أشكال الناس والحمامة على صدره ترفرف وتضربه بجناحيها وجسده قد أنهكه الجرى والكر والفر بين الزحام من موضع الى آخر ، وملمس أجساد النسوة وصوتهن فارقه واشتاق اليه فى ذلك النهار وقد أرهقت أنفه كرات الجاز ورائحة الدخان واشتاق الى رائحة البخور فى

سيدنا الحسين وحن الى بائعة الحمـام فى الدراسـة وهى تأخـذه الى حضنها فى الليل وتوسده لحمها الغنى ٠

ضاجعها طوال الليل ٠ وفى الصباح منحته حمامة زغلولة علقتهـا الى معصـمه لتفتـح أمامه باب الرزق ، وطلبت منه الرجوع اليهـا اذا أعوزته الحاجة فودعها متكلا على الله ضاربا فى المدينة من سيدنا الحسين الى ضواحى الجيزة ممتلكا المدينة قائلا لنفسـه : للشـحاذ نصف البلد وللدرويش البلد بأكملها ٠

اشتعلت النيران على طول طريق الأهرامات بفضـله ، وها هو قد مل رائحة الدخان ولم تعد صيحات المشـاغبين حوله تروقه : انتقم من الجميع ، الباشـا ، والعمـدة ، وشـيخ الغفر ، وابنه كرامة ، وزوجته خديجة ، وبدأ يتلمس طريقه فى العتمة ، لا يرى من يخاطبونه ، يحرك يده فى الهواء ليتناول الخرقة ليلفها حول الحجر ٠

صاحوا : مولانا ، ماذا أصابك ؟!

قال لهم وقد بدأ ضياء الحقيقة يسطع فى رأسه :

ـ أكل الليل النهار ٠

قال بعضهم :

ـ مولانا يهذى ٠

وقال آخرون :

ـ هذا مجنون أعمى ٠

وتعجب الناس من شراسته وحبه للنيران ـ أحرق نصـف المحلات بمفرده وهو أعمى ٠ قال بعضهم آسفا :

ـ كل أعمى بصير ٠

يتجمعـون ويتفـرقون ، وفى وقت الغمـة كل معلق من عرقوبه ، يسمعون ، يثرثرون ، ينصرفون ، وبدأ السقا يتعثر فى خطوه ، يقـع ويقف ٠ وحيدا لفته العتمة ، وأدرك أنه مهما نادى « درويش فى أرض الله ومجذوب الى نوره » لن يهتم به أحد ٠ لقد تفرق الناس ٠

خرج من العـزبة مبصرا وها هو يقف على جانب من الطـريق وقد فارقه بصره ، والفرق بين الليل والنهار لا يزيد على أسـبوعين ، وقال لنفسه حزينا :

ـ هذه لعنة وقد حلت ٠

(١٦)

غادر عباس أبو حميدة العزبة قبل الضحى متوجها الى بندر الجيزة للقاء محصل ترام يعمل على خط ١٤ الذى يربط منطقة الأهرامات بالجيزة ٠

يضرب الطريق الترابى بقدميه ويطوح رأسه الى الخلف وعيناه ترميان البصر الى مدينة القاهرة فى ود ، ففى هذه اللحظات يتفاوض أحمد طه سكرتير اللجنة التحضيرية مع المسئولين فى مصلحة العمل لوضع الترتيبات النهائية لعقد المؤتمر ٠

المدقات الضيقة التى تربط عزبة عويس بالطريق العمومي تغطيها سحابة هشة من الغبار الدافىء ، وحدائق المانجو الباسقة الى يمينه تحيطها أسوار عالية لها بوابات حديدية صدئة ٠

الرخاء داخل أسوار الحديقة التى مدها عويس باشا حتى ترعة المريوطية أسفل الهرم ، أما الشقاء والقحط وقلة المياه فهى من نصيب الفلاحين أمثاله ٠

مات جده وأبوه فى صراع مع الباشا الكبير وأولاده حول هذه الأرض ـ فمياه النيل تمتد مباشرة الى أرض العزبة أما أراضيهم فتروى بعد أن تأخذ أرض الباشا كفايتها من الماء ، وفى الرية الشتوية تباع لهم المياه بالمتر من الوابور ٠

ولما كبر عباس أبو حميدة أدرك فى وقت مبكر من العمر أن الصراع بينهما ليس متكافئا ، أن محله ليس عزبة عويس ، وأعد نفسه للمواجهة سرا ، فأعلن استسلامه لارادة الباشا وانكفأ على فدانين خارج زمام أراضى الأبعادية يزرعها راضيا بقدره ، وربط نفسه بجماعة سرية فى العاصمة ٠

يعرف عباس أبو حميدة تاريخ الناحية حوضا حوضا ، ويعرف أن الباشا لا يمتلك العزبة ولكنه أضافها عنوة الى الأبعادية التى حصل عليها جده الاميرالاى عويس الكبير من الخديو اسماعيل بعد عودته من حملة

السودان ، ورفض التنــــازل له عن الفــدانين مثلمــا رفض جده وأبوه محاولات الاميرالاى عويس الكبير وولده وأبنائه من بعده • ولما قتلا على يد أنصار الباشا واحدا بعد الآخر فى أقل من خمس سنوات ، دانت له المنطقة وبقيت معروفة بعزبة عويس •

فى طفولته كانت الناحية تفخر بأن عائلتى أبى حميدة وأبى جبـل تتصديان للباشا ، لكنه وقد سمع الطلق النارى الذى مزق جسد أبيـه أدرك الأخطار التى تتربص به فى وقت مبكر ، فأعلن خنـوعه مؤقتا ، فالصراع بينهما يتطلب ضرب رأس الحية فى قصر عابدين •

وقال عباس أبو حميدة لنفسه ساخطا وهو ينهب المدق المترب فى طريقه الى البندر هذا الصباح : النار تخلف رمادا يا أبا جبل ، أصـبح ابنك حمادة أجيرا عند عويس باشا بعد أن كنت لوالده ندا • ضـحك عليه بتنصـيبه عمدة دون أوراق رسـمية ودون علم المديرية ، عمـدة لا يجوز له الحل أو الربط ووعده بالمنصب الرسمى وأخضعه لنفوذه •

تربى عباس أبو حميدة على الحذر والحيطة منذ الصغر ، وكان من حين الى آخر يتوقف ويسوى جبته وينفضها بالعصا ، ويلقى نظرة على المنطقة خلفه ثم يتابع طريقه آمنا •

فى شبابه كان يسعى للانتقام من الباشا ، لكنه بمرور السـنوات فارقته شهوة الانتقام ، وصقلت مداركه الأيام ، فأصبحت قضية توزيع الأرض على الفــلاحين شـاغله الأول والاخير ، وأصـبح على قنـاعة بأن القضية الوطنية ليست قضية هدم ولكنها قضية بناء ، وحلم بتأميم قناة السويس وتحرير الأرض والغاء معاهدة ١٩٣٦ ، ومحاربة الامية •

ومنذ اعلان مصطفى النحـاس باشـا الغاء المعـاهدة فى الثامن من أكتوبر الماضى وهو مشغول بما يجرى من أعمال نضالية فى مدن القناة وقد تمكن من تجنيد مجموعات من الشباب من خارج العزبة فى نواحى سقارة والبدرشـين والعيـاط وقد انقطعت أخبـارهم عنه منـذ فترة ، ويود فى الأيام المقبلة بعد الانتهـاء من قضـية تأسيس اتحـاد العمـال السؤال عنهم لطمأنة أهاليهم •

هذه هى مشاغل عباس أبو حميدة وهو متجه الى البندر • وقد وعده رفيق له بمده بمنشور عن تذمر فى الجيش • وقال عباس أبو حميـدة لنفسه : اذا انضم الجيش الى الشعب فى جبهة واحدة ، فلن يسـتغرق طرد الملك سوى عدة ساعات •

ولم يكمل عباس أبو حميدة جملته خوفا على الحلم أن يتبدد ، وقال لنفسه وهو يكتم الفرحة فى نفسه : اللهم اجعله خيرا ٠

قلبه مفعم بالأمل ، فلم يعد وحيدا فى صراعه مع الباشا ، ولكنه أصبح جنديا في فرقة ، لقد هزم الملك حيث هزم مرشحه اللواء حسين سرى عامر فى انتخابات نادى الضباط فى ٣ يناير الماضى ٠

وقال لنفسه : اذا كان ٨ أكتوبر بداية المعركة ضد الانجليز فان ٣ يناير بداية المعركة ضد الملك والعمل على تقويض عرشه بشكل سافر وعلنى ٠

وبعدها قال لنفسه :

« وقريبا تبدأ المعركة ضد عويس باشا » ٠

واذا كان في القلب نشوة وقد اهتزت الأرض تحت الطغاة على عدة جبهات ، ففي القلب لمسة حزن دفين لاصابة ستهم بالمرض وتخثر جلدها ، وكما ضاعت الأرض واستولى عليها الاميرالاى عويس الكبير ضاعت ستهم منه بزواجها من حمادة أبو جبل ، وان ظلت صلات القرابة والنسب على حالها طيبة ، وتزوج هو من ابنة خالتها نفوسة بنت الشامى ٠

ضاعت هوجة الحب الجارف وبقى الحنين فى القلب مثل الجمرة المتوهجة بالدفء والحنان ٠ وجهها المشرق مثل قرص القمر ينير لياليه المعتمة ، واذا صادفته بغتة بعودها الطويل الفارع الممشوق اضطرب خطوه قبل أن يبادلها الحديث كواحدة من بنات عمومته ـ وقالت له الدكتورة صباح بالامس أن اصابتها حادة وزوجها العمدة بالنيابة يرفض علاجها خشية الفضيحة أفلا يستحق هذا النذل ضرب النار ٠

فى الليل قالت له الدكتورة صباح أنها خائفة ليس لأنها وقعت الكشف على ستهم ولكن بسبب ما حدث فى الاسماعيلية ، وأخبرته هذا الصباح أنها متشائمة اليوم ، وأن أحداثه لن تمر على خير ، وأن المأدبة الملكية العامرة فى قصر عابدين ظهر اليوم السبت تخفى وراءها مؤامرة ، فما حدث فى الاسماعيلية بالامس ليس صدفة ٠

فخالفها الرأى ونصحها بالصبر وهو يقول لها :

ـ البذرة صحت والشجرة طرحت ٠

أطرقت برأسها قليلا ، وأجابته غاضبة :

ـ لا صدف فى السياسة ٠ تصور مذبحة فى الاسماعيلية لبلوكات النظام بالأمس واليوم مأدبة ملكية لقيادات الجيش والبوليس فى قصر

عابدين على شرف ولى العهد ، فهل يعقل تأسيس أول اتحاد للعمال غدا الأحد ؟!

وأضافت قائلة فى ثقة :

ـ أحداث الجمعة سوف تجهض ما سيأتى به الأحد ٠

قال لها مطمئنا :

ـ غدا الأحد سنرى ٠

وغادرها ضاحكا وهو يقول لنفسه :

ـ هؤلاء الرفاق من كثرة العلم تساورهم الشكوك ٠

فرحته بهذا الصباح لا تسعها الدنيا ، وان كانت مذبحة الامس قد هزته ، فقد قاوم عساكر بلوكات النظام دبابات الجيش الانجليزى بصدورهم ورفضوا التسليم حتى نفدت ذخيرتهم ، وبدأ يتململ فى مشيته ، ويطوح رأسه الى الخلف ويرمى البصر بعيدا فيرى سماء صافية ٠

ابتعد عباس أبو حميدة عن المدقات المتربة واتجه الى الطريق المؤدى الى طريق الأهرامات ، والذى يربط العزبة بالعمران ، وبعد سيره عدة دقائق على الطريق المعبد ، توقفت سيارة أجرة قادمة من الجيزة ، ونزل منها حسنين سلامة المحامى واندفع نحوه محذرا من الذهاب الى البندر : فالقاهرة تحترق ٠

والحف عليه عباس أبو حميدة بالأسئلة : متى ؟ أين ؟ كيف ؟ من الذى يحرق القاهرة ؟!

طلب منه حسنين سلامة أن يرفع رأسه الى السماء لينظر سحابات الدخان الأسود التى تتصاعد من مواضع مختلفة وسط البلد ، وقال له أنه شاهد الحرائق تأتى على عمر أفندى وكلوب محمد على وفندق شبرد٠

من يحرق القاهرة ؟! هذا هو السؤال ، وتوقفت الدماء فى عروق عباس أبو حميدة وتابع طريقه حزينا ، فاذا كانت الاكزيما الحادة قد أصابت زينة نسوة المنطقة ، هاهى الحرائق تلتهم القاهرة لحظة صحوتها ٠

أسرع يحث الخطو نحو المدينة التى لحقت بها النيران ٠

زادت سحابات الدخان كثافة وغطت مساحة واسعة من السماء ، والعائدون من القاهرة يروون الحكايات ٠ قال الشيخ علام ربيب الشيخ لهيطة فقيه جامع عزبة عويس وأحد المقربين الى الباشا :

ـ احترقت الكازينوهات · نزلت الصواعق عليها من السماء ·
ها قد تحققت نبوءة الدكتورة صباح ، ووجد عربات الترام متوقفة عند الطالبية وقد طالتها الحرائق وتكسر زجاجها والنـاس يهرعون فى فزع هنا وهناك ، وقد انتشرت الحكايات حول زجاجات الويسكى التى انسـكبت وعمليـات النهب التى تمت وكـأن القـاهرة مدينـة مليئـة باللصوص وقطاع الطرق ·
بحث عباس أبو حميدة عن رفيقه محصل الترام فوجده مشغولا فى مناقشة مع العمال حول ضرورة التصـدى بالقوة لمشـعلى الحرائق وهو يذكرهم بتصـدى جنـود بلوكات النظـام فى الاسـماعيلية للدبابات بصدورهم ·
أقام عمـال الترام حلقات حول العـربات المتوقفة ، وسـلمه رفيقه المنشور وطلب منه تمزيقه بعد قراءته ، وكل منهما يحس بالضياع فقد اهتزت الأرض وضاعت منهم المبادرة ، وسبقتهم الاحداث الى المجهول ·
وقال له أحد المحصلين الشباب يائسا :
ـ فعلوها وانتهى الامر ·
أحس عباس أبو حميدة بالتحدى ، وتعلق بعربة نقل فى طريقهـا الى ميدان الجيزة ، وعند كوبرى نصر الدين نزل منها واتجه الى الشركة الشرقية للدخان ، وقد خرج الطلبة من مدارسهم والعمال من مصانعهم ، وهاصت الطرقات وارتبك المرور ·
تسلل وسط الزحام على مقـربة من الشركة فى حذر · وأمام مبنى صغير وقف ، فأقبل عليه عجوز من القيادات العمالية ، وقال له حزينا :
ـ القاهرة تحترق · وفى مصلحة العمل يطالبون أحمد طه بتأجيـل المؤتمر الى أجل غير مسمى ، وتعليمات الرفاق تقضى بضرورة التصدى للخونة ووقف الحرائق ·
وسأل عباس أبو حميدة قائلا :
ـ والبوليس ؟!
قال له العجوز غاضبا :
ـ البوليس مشغول بالمأدبة الملكية ، والمظاهرات سايرة فى البلد من العباسية حتى مجلس الوزراء فى القصر العينى ·
كل ثانية يفرش العمـال الأرض فى موجات ثم يغـادرون المنطقـة ويذوبون فى الطرقات الجانبية ، وقلة منهم استجابت للنداءات وتجمعت فى صفوف لحمـاية المصـنع · ومدت خراطيم الميـاه وتسـلح بعضهم

بالهراوات والعصي والقضبان ، همهم حماية المصنع ولا شأن لهم بما يجرى في البلد وكأن كل فرد معلق من عرقوبه !

عباس أبو حميدة فلاح ابن فلاح وليست له قدرة على الخطابة أو قيادة مظاهرات ، فغادر المنطقة كالاطرش في الزفة وقد اختلط عليه الامر وغابت عنه صورة ما يجرى في القاهرة ، فتوجه الى المندوبين الذين ينتظرونه في منطقة أبي أتاتا ليتشاور معهم عما يجب عمله ، فهؤلاء مناضلون منظمون ولهم خبرة ، فمهمته الاصلية كانت تدبير أماكن سرية لهؤلاء المندوبين واصطحابهم الى مقر المؤتمر في اللحظة المناسبة ، وها هي أحداث يوم الجمعة تجهض المؤتمر كما قالت له الدكتورة صباح ، ولعل وزارة الداخلية مشغولة حاليا باعداد قوائم الاعتقالات ..

وزعت المنشورات التي طبعها العمال على وجه السرعة لوقف الحرائق ومناشدة المواطنين التصدى للخونة ـ حملها مندوبو العمال وداروا بها على التجمعات العمالية · وكانت الحرائق قد بدأت تتركز في شارع الهرم بعد أن قضت على المواقع الحيوية وسط البلد ·

انطلق المندوبون في جماعات سيرا على الاقدام ، ودون سيارات ، ينصحون وقد امتدت الحرائق الى الملاهي الليلية التي نهبت وبعثرت محتوياتها وسرقت مخازنها ·

ووصلت جماعة منهم الى ملهى الديك الذهبي قبل أن تلحق به النيران ، وكان هم عباس أبو حميدة حماية المركبات العامة وسيارات النقل · وقد وقف حولها عمال النقل كالسوار يمنعون المتظاهرين من الاقتراب منها بالقوة بعد أن طالت الحرائق بعد مركبات الترام · أما حماية الملاهي فقد كانت في المرتبة التالية من اهتماماته في هذه الساعات الحرجة · لكنه وجد نفسه فجأة أمام ملهى الهدهد بالقرب من ترعة المريوطية وعشرات من الشباب والصبية والصغار المسلحين بالحجارة والفئوس يرشقون الملهى بالحجارة وقد تعالت أصواتهم في جنون :

« الله اكبر » ·

فتصدى لهم بالقوة هو ومن معه من عمال · وشجع الجرسونات على المقاومة وعدم الاستسلام · حتى الراقصات أخذن يطاردن المخربين وتفرقت المظاهرة أخيرا وقد أصيبت واجهة المحل بعدة تلفيات من رشق الحجارة ·

وابتعدت المظاهرة وتفرقت في الأزقة والغيطان القريبة من ترعة

المريوطية لكنها عادت ثانية وقد انضم اليها عشرات من عمال التراحيل والاجراء والصبايا ، واقتحمت الملهى من الخلف وأشعلت النيران ٠

كانت معركة أصيب فيها عباس أبو حميدة بحجر فى رأسه ، وكذلك عدد من العمال ، وقد تمت السيطرة على النيران بصعوبة بالغة وقد انهمرت عليهم كرات النيران المشتعلة من كل جانب ٠

قلة من الاهالى عاونتهم فى اطفاء النيران ٠ وقد تجمهر الناس حول الملهى وكأنهم فى زفة يهللون لاشتعال النيران ويهللون ويكبرون ٠

راقصتان أجنبيتان تجيدان العربية كانتا داخل الملهى وقت الحريق ٠ وقد أدرك عباس أبو حميدة أنهما ان خرجتا فسوف يفتك بهما الصبية دون روية وقد سيطرت روح الفتنة على الجميع ، فطلب منهما البقاء داخل الملهى وأقفل باب الادارة عليهما ٠

ضمن المهاجمين شباب وصبية من النواحى القريبة من عزبة عويس ونزلة السمان ، فوبخهم عباس أبو حميدة بشدة وهو يذكرهم بأهاليهم، فتوقفوا عن التحطيم ، وطلب منهم وقف أعمال الشغب والمعاونة فى نقل الماء لاطفاء الحرائق التى لحقت بالكراسى والموائد ومواقد الطبيخ ٠

بعدها سأل عباس أبو حميدة كرامة بن سرحان السقا وقد لمحه يقود عمليات التخريب :

ـ من الذى جمع هؤلاء الصبية يا كرامة ؟!

قال له الفتى خجلا :

ـ الشيخ سلامة أبو حجازى ٠

سأله عباس أبو حميدة :

ـ لماذا ؟!

قال كرامة فى حماس :

« من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه » ٠٠

قال له عباس أبو حميدة موبخا :

ـ وحرق الناس أحياء يا كرامة !!

قال الفتى مبتئسا :

ـ أرض خراب ونحن الرجال الجوف بالقش حشيت رؤوسنا ٠

صفعه عباس أبو حميدة على صدغه بقوة ، فمضى الفتى بعيدا مطأطئا رأسه ٠٠

من ير صباح وهى جالسة أمام الفرن تقلب النار تحتهـا وتمسـك بالمطرحة وترمى أقراص العجين وقد احمر وجهها لا يصدق أنها الدكتورة أوديت ابنة أحمد باشا السـيد • كانت فى الصـباح قد عجنت العجين كما علمتها نفوسة بنت الشامى ـ وها هى مشغولة بالخبيز •

ولما وصلت الاخبار عن الحرائق التى اشتعلت فى شارع الهرم هبت واقفـة ، ونحت عنهـا ملابس العجين وارتدت جلابيـة طـويلة نظيفـة ووضعت عليها طرحة حمراء مزينة بالترتر ، وقالت أنها ذاهبة •

لم تترك فرصة لنفوسة لتناقشها ، فقد تعودت الخـروج والعودة كما يحلو لها فى الليل أو النهار •

انطلقت صباح الى شارع الهرم سيرا على الأقدام ووجدت سـيارة قادمة من الحوامدية فى طريقها الى الجيزة فاستقلتها ـ وسمعت أخبارا متناثرة عن الحرائق : الغضب والثورة والشـماتة على وجوه الفـلاحين البسطاء وهم يخلطون بين حرق الملاهى ونهبهـا ومعركة الاسـماعيلية بالامس •

غادرت العربة عند محطة اسباتس • عربة ترام مقلوبة وقد اشتعلت فيها النيران وزحام شديد حول صيدلية وقد أصيبت سائحتان بحروق شديدة • واندفعت صباح داخل الصيدلية لتجد سائحة ثالثة رأسـها مصاب بجروح وقد جاءها المخاض ، والصيدلى حائر بين اسعافها وطلب النجدة ، ولا مجيب •

شمرت عن ذراعيها ، وقد قررت الكشف عن شخصيتها ، وقالت :

ـ طبيبة •

نظر اليها العجوز فى دهشة : طبيبة فى ملابس الفلاحات ، جلابية فلاحة طويلة وطرحة حمراء على رأسها ، لكن انجليزتها ومعرفتها بفنـون الطب لم تترك له فرصة لمراجعتها • يوم أغبر من ساعة طلوع الشمس وكل شىء أصبح جائزا •

واختارت صباح واحدة من الفـلاحات لتعـاونها ، سيدة توسمت فيها النجابة والشهامة بينما تسمر الصـيدلى وقد الجمه هول الاحداث لا يترك قرص التليفون •

الصياح خارج الصيدلية يتعالى : سائحة تلد ٠ الله معها ٠ وبعضهن يصرخن فى الشباب :

ـ يا عيب الشوم ٠ ابعدوا ٠

الشباب يتغامزون وفى أيديهم بقايا بدل الرقص التى تمزقت ، وبعضهم يخرج زجاجة ويسكى ويرتشف رشفة فرحا بالغنيمة ، أما اللصوص فكانت عيونهم قد تركزت على الخزائن ٠ ومن لم يفز بشىء أحس بالحسرة على فوات الفرصة وجرى طالبا العون من الله ليفتحها عليه بخزينة مليانة ٠

وبعيدا عن الصيدلية ، النسوة يلطمن خدودهن خوفا من الحرائق ، طالبات السلامة للصبية والرجال الذين حكمت عليهم الظروف بالخروج للقاهرة فى هذا الصباح الأسود ٠

ودار حوار بين صباح والسائحة وقد استسلمت ليديها المدربتين ففتحت فخذيها على آخرهما والطلق يعاودها وقد أعدت لها الفلاحة أطباق البلاستيك المليئة بالمياه الساخنة ، زودهم الصيدلى بلفافات القطن الطبى والشاش ٠

ساندرا ستروهولم عالمة آثار سويدية ٠ دفعها حظها العاثر لزيارة الأهرامات فى هذا الصباح الذى لم تشهد له القاهرة مثيلا من قبل ٠ فلما سمعت بأخبار المظاهرات والحرائق ، توجهت الى فندقها فى شارع الهرم سيرا على الاقدام فأصيبت بحجر فى رأسها وسقطت وجاءها المخاض !

السيدة ستروهولم ليست ساذجة أو غبية ، ولها معرفة بمصر ، وتفهم أن الطبيبات لا يرتدين ملابس الفلاحات الطويلة الا لسبب ما ٠ وأيقنت أنها فى رعاية زعيمة سياسية وليست طبيبة عادية وقد اضطربت أحوال البلاد ، فأسلمت نفسها راضية بقدرها وغير خائفة ، لقد ساقتها الظروف اليها لتنقذها من هذه الورطة ٠

آهات الوجع على الوجه المتورد ٠ العينان الواسعتان الخضراوان فيهما قلق ٠ وصباح هادئة فتستمد السيدة من حركاتها وبريق عينيها شجاعة ٠

وسحبت صباح المولود من رأسه فى ولادة طبيعية للغاية ، وقالت فرحة :

ـ ذكر ٠

ابتسمت ساندرا وصدرها يرتفع وينخفض ومدت يدها لتلمسه فى دمائه ، وانطلقت من الفلاحة زغرودة هزت أركان الصيدلية ٠

(١٨)

في غرفة واسعة أسدلت ستائر قاتمة على نوافذها فيما عدا نافذة واحدة تطل على الحديقة وتتسلل منها اضاءة خافتة مرتعشة بالطابق الثاني من مستشفى الانجلو بالجزيرة ، كانت مارجريت سنكلير راقدة وقد أحاطت الضمادات بجسدها كله وذراعاها المستقرتان على الفراش عاجزتان عن الحركة ٠

عيناها متعبتان ومضمومتان وتواجهان الاضاءة الخافتة المرتعشة في صعوبة ، تفتحهما للحظات وتتأمل خيالات أوراق الشجرة على الحائط أمامها ثم تغلقهما ثانية ٠

الألم يعتصرها في موجات متتالية فتغيض روحها وتسقط في غياهب الظلمات ٠ وتبلغ أوجاعها ذروتها ، وتغيب ، ثم يصفو ذهنها صفاء الهيا ويفارقها الاحساس الدوني بالجسد ، وتشف روحها وتصبح كقبس من نور رباني ٠

وفي لحظة من لحظات الصفاء ، رأت مارجريت سنكلير نفسها ترفرف حول السرير ٠ ألقت نظرة على وجهها الجميل الذي لم تطله الحروق ٠ وشعرها الذهبي حوله كرقائق الذهب وبسمة على شفتيها المضمومتين ٠ عيناها مسدلتان وجسدها ملفوف بملاءة بيضاء ، وكأنها تنتظر ملاك الموت وقد حانت ساعة الرحيل الأبدي ، فأشفقت على هذا الجسد الجميل الذي سوف يواريه التراب بعد قليل ٠

ضربها الألم في بطنها ، ففاقت من ظنونها ٠ جمرة مشتعلة فوق السرة تتدحرج الى أعلى فتطول ثدييها ثم تسقط حتى الفخذين ٠ وخرجت من فمها آهة مكتومة ٠ آهة استغاثة ملهوفة من أوجاع الجسد المحروق ٠

أقبلت عليها رئيسة العنبر ٠ ربتت على وجهها ، ثم مسحته بقطعة قطن مبللة بعطر خفيف ووقفت قبالتها تنظر اليها في ود ٠ لم تحدثها ولكنها أفصحت لها عن تفهمها لعذاباتها وهزت رأسها تطلب منها الصبر ، فقد قربت ساعة الخلاص من العذاب بعد نجاتها من الصدمة

العصبية التي تصيب المحروقين فتقضى عليهم ، وبقى مداواة الجروح من آثار الحريق ·

نظرت رئيسة العنبر في ساعتها ، وتناولت زجاجة صغيرة وملعقة وأفرغت فيها عشرين نقطة من الدواء المخـدر ، ونقطة نقطة سـقتها لها ومسحت لها شفتيها ووقفت الى جوارها ·

بعينيها توسلت مارجريت سـنكلير الى رئيسـة العنبر لتبقى معها ، لتحادثها وقد شلت حبال صوتها بفعل الحريق الذى دهمها وهى جالسة فى كلوب محمد على · وجهها ساكن · وقد سكنت آلامها بفعـل المخدر القوى : تحرك حدقتيها وتفتح شفتيها وتضمهما وتدير لسانهـا ولا يصدر عنها سوى آهات الرعب ، واذا تحـاملت على نفسـها ودفعت الهواء فى صدرها اهتزت ضلوعها وآلمتها ، فتتوقف عن الهمس والتنفس

طوفت مارجريت سنكلير فى بلدان كثيرة وشاهدت لحظات ميلاد · فى الهند كانت أشـد اللحظـات اثارة لهـا هى لحظـة تنـازل الحـاكم البريطانى ورفع العلم الهندى · وفى مصر كانت ترقب لحظة انسـحاب القوات البريطانية من القنـال ، وحين اقتربت اللحظـة وأوشـكت أن تمسك بها أفلتت منها واشتعلت الحرائق فى جسدها، فاذا ماتت ستظل روحها تحوم حول فوانيس النور ·

وتجهم وجه مارجريت سـنكلير · وبالبقيـة القليلـة من العافية المتبقية فى جهازها العصبى الذى أتلفته الحرائق وقنابل الدخان قطبت وجهها · جعدت جبهتها الناصعة الجميلة وزمت وجنتيها ·

ها هى الأقدار تلعب لعبتها غير الشريفة معها وتعابثها وتحكم عليها بالموت محروقة فى كلوب محمد على فى لحظة حاسمة حبلى بالتوقعات ـ انفجرت قنبلتان فى بهو النادى فاشتعلت الارضـية وامسكت النيران بملابسها · أغلقت الأبواب عليهن فجأة ولم يجد صراخها وسط سحابات الدخان ، فاقتحمت النيران وتسلقت أحد الدواليب ، وبقيت فوقه تمزق ملابسها وترمى بها للنيران ·

سبع عجائز احترقن وسط الدخان · كانت تسـمع أنينهـن وهى واقفة على الدولاب · اتسعت النيران وغطت الارضية بأكملهـا ولم يكن فى مقدورها مساعدتهن ·

وتقلصت عضلات قلبها بقوة ـ جبانة ·

ثم أشارت مارجريت سنكلير الى رئيسـة العنبر بعينيهـا لتقترب منها فتبتعد عنها هذه الأفكار السوداء ، وقالت لها : ت · ل · ف ·

أخرجت رئيسة العنبر ورقة صغيرة من مريلتهـا ، وكتبت الارقام من واحد الى تسعة ثم كتبت الصفر ، وأمسـكت بالقـلم وحركته بين الارقام من اليسار الى اليمين ، وهي ترد عليها بهزة من رأسها وتفصـح لها عن الرقم المطلوب بعينها ، وقد أثلج صدرها الحوار الصامت مع هذه الراهبة الشابة ٠

وكتبت رئيسـة العنبر التى ترتدى رداء الراهبـات رقم التليفون وتوجهت الى الخارج فشيعتها مارجريت سنكلير بنظرة امتنان ، فبعـد لحظات يقدم اللواء عويس باشا لزيارتها ـ تودعه قبل أن تقضى وتوصى له بأوراقها الخاصة ٠ لقد زاد طنين ملائكة الموت حولها وصارت تسمعهم بوضوح والمخدر يسرى فى عروقها ٠

زارتها أمس زوجة السفير البريطانى ٠ قبلتهـا ، وسـمعتها وهى نصف نائمة تتحدث عن الحريق الذى دهم القاهرة وقضى على متاجرها وقالت احداهن معلقة : يوم السبت الأسود ٠

ماذا حدث ؟!

من رمى القنابل على كلوب محمـد على فى تلك السـاعة من النهـار وبينما جلالته مشغول بالمأدبة الملكية فى قصر عابدين على مبعدة أقل من كيلو متر واحد ٠

وعدها اللواء عويس باشـا بالمرور عليهـا فى النـادى فور انتهاء المادبة الملكية فى الساعة الخامسة من بعد الظهر ليتناولا العشاء معا فى شقتها فى الزمالك ، فحضرت مبـكرة فى الحـادية عشرة وانتحت ركنا قصيا لتراجع مسودات كتابها عن الهند ٠

أغمضت مارجريت عينيها وقد فارقتها حدة الألم قليـلا فأصبحت كنغزات تنطلق فى بطنها من وقت الى آخر ٠ ومالت بجسدها الى اليمين بعد أن كانت متخشبة فى نومتها حتى لا تزيد من عذاباتهـا باحتـكاك المرتبة بجسدها الملفوف بالضـمادات وقد سلخ جلده وسـاحت دهونه وبرزت العظام منه فى بعض المواضع ، وبين اغفـاءة ويقظـة على طنين فى رأسها همسات ملائكة الموت ووشوشات أجنحتهم تمر أمام عينيهـا أحداث الايام الثلاثة الماضية متلاحقة كومض النجوم ٠

أمس دك الجنرال أرسكين مبانى محـافظة الاسماعيلية على رءوس الرجال ، وخرجت البقية التى كتبت لها النجاة مرفوعة الرأس لتشـهد العالم على همجية قوات الاحتلال التى توجه دانات مدافعها الى عسـاكر درك فى أيديهم بنادق !! كانت المذبحـة حديث العالم فى الليل ٠ وفى

نادى الجزيرة سمعت صيحات الاستنكار من أكثر الناس حيادا ورزانة حتى خجلت من كونها انجليزية ·

لابد أن أصابع الجنرال أرسكين وراء حريق القاهرة ، وقطبت وجهها تقطيبة مرة حزينة ـ الايدى الآثمة قد اصطادتها كجرذانة لا حول لها ولا قوة فى كلوب محمد على · وبكل قوة فيها بصقت ، وبحذر شديد حركت أطراف أصابعها لتضغط على الجرس وتهرع اليها الممرضة ·

فى ساعة الاحتضار تفارق القلب مشاعر الكراهية ، ويتخفف الجسد من معاناته ومطامعه ، لكن كراهية مس سنكلير لقوات الاحتلال لا تسعها الدنيا وسوف تحملها معها الى الآخرة · وحاولت القيام ، وهمهمت غاضبة · وأخذت الممرضة تمنعها من القيام فى حنان وتحاول تهدئتها وتطلب منها السكينة ، ولما عجزت طلبت العون من زميلة لها ·

تعاونتا فى تهدئتها · أسنداها فى رقة وأجلساها ، فسعلت بشدة وصدرها كله يهتز ، وبصقت الماء كثيراً من جوفها · وكلما تخلصت من المياه أحست براحة وكأنها تتخلص من بقايا الحريق الذى خلفته النيران فى جوفها · وبدأت فى استنشاق الهواء وقد اتسع صدرها للدنيا وان كانت جروحها المفتوحة تحرقها : وخزات الألم تشكها فى البداية شكات خفيفة متتالية فى مواضع مختلفة ، ثم فجأة تغوص الابر فى جسدها حتى تصل الى أطراف أعصابها فتنتفض وكأن ملايين العقارب تلدغها مرة واحدة ، ومن قسوة الألم تغيب للحظات فى اغماءة قصيرة لتعود ثانية وتفيق ·

قدمت لها احداهما المخدر وسقته لها نقطة نقطة ـ فاسترخت وهى مغمضة ، تسعى للنوم وتقاومه وقد اختلطت وقائع أيامها بين نيودلهى والقاهرة ، وصورة اللواء عويس الذى غاب عنها تؤرقها ، فقد تخلى عنها فى اللحظة الحرجة وتركها فريسة للكولونيل سفينكس عميل المخابرات البريطانية ورفاقه ليقضوا عليها ·

لا تدرى مارجريت سنكلير لماذا عبر فى خيالها فى تلك اللحظات مستر ستيف أستاذ الأدب الانجليزى فى جامعة فؤاد الأول وأحد أعضاء جماعة اخوان الحرية البارزين ، رأته أمامها فى شارع سليمان باشا أول أمس قادما من ميدان الاسماعيلية ومتجها الى جروبى · رأته بسحنته البيضاء المشربة بالحمرة وشاربه الصغير وقامته الفارعة يهتز فى مشيته كعود أخضر ويميل يمينا ويسارا ويتلفت حواليه متطلعا الى

الناس والبضائع والصحف المفروشة على الأرصفة ويتوقف أمام الواجهات فى دهشة كأنه طفل قدم الى المدينة لاول مرة ٠

قالت لنفسها متعجبة نحظتها ، ساعة وله من تلك الساعات التى تأخذ بلب محبي الشعر ونقاده ، وفارقها غيظها منه وأحست نحوه بتعاطف وقد رأته مندمجا بكل حواسه فيما حوله يتلمسه بعينيه ويعيش لحظة الضحى بجوارحه فرحا بالدفء ، وفارقتها تلك الصورة التى رسمتها له فى السابق كواحد من رجال القش الذين يتحدث عنهم اليوت فى قصيدته التى ذاعت وروج لها الموتورون حتى شاعت بين طلبة المدارس الثانوية ٠

تقدمت اليه وهو واقف أمام شركة الطيران يتفرج على نماذج الطائرات فى سعادة طفل قروى ، وقالت له :

« نحن الرجال الجوف ، وقد حشيت بالقش رؤوسنا ، فو أسفاه !! »

فالتفت اليها وقبلها على وجهها قائلا :

ـ آه ٠ مس سنكلير ٠ أسعدت صباحا ٠

وتحادثا ٠

أخبرها مستر ستيف أنه يهوى لعب الاطفال والنماذج المجسمة ، ففى داخله طفل كبير مشاكس يعشق اللعب ٠

قالت له ساخرة وهى تسأله :

ـ وهل يحب الطفل الكبير أيضا اليوت ويردد فى وقت فراغه « أصواتنا الجافة حينما تتهامس ، هادئة خالية من المعنى ، كالريح فى الحشائش الجافة » ؟!

ضحك طويلا ، واهتز جسده الفارع ٠ وبعد فترة صمت ، قال لها فى نبرة جادة :

ـ اليوت يخاطب فينا الانسانية عندما تبلغ أعلى مراحلها حينما تنضج وتعرف وحدة المعاناة والتفرد وتكف عن اللعب ، يخاطب العقل الرصين عندما يصيبه الشلل ويعجز عن الفعل ، أما القلب فتهزه قبلة على وجنة فتاة حسناء مثل التى تفضلت وسمحت لى بها هذا الصباح ٠ وعقل الأستاذ أكبر من قلب الطفل ، ولهذا فان فى قبونا الجاف ، حيث تخزن المؤن ، شكل بلا قالب ، ظل بلا لون ، قوة مشلولة ، اشارة بلا حركة ٠

قالت له ساخرة :

ـ الحمد الله ! فى القاهرة ليس لنا قبـاب جافة أو رطبة ، وفى

الطرقات حركة لهـا قوة دفع لا نهـاية لها ، والطـاقة الروحية هنا لها قالب ٠

قال لها موافقا لينهى النقاش :

ـ نعم ٠ نعم ٠ لهذا لن يعرف هذا البلد عقلية عظيمة مثل اليوت ، فهذه المشاعر العميقة هى مشاعر الشـيخوخة فى نضـجها ، وهنا كل الكائنات شباب ، انظرى حولك ، كلهم شباب وصبية ، أطفال ٠

قالت له ساخرة :

ـ اذن أنا آسفة على القبلة التى ضيعتها ، فشابة مليحة مثلى لا تمنح قبلاتها للعواجيز الذين ينتظرون الموت !

أجابها ساخرا :

ـ هذا هو طيش الشباب بعينه ٠

وافترقا ٠

فى هذه اللحظات التى تعانى فيها مارجريت سـنكلير من حروقها منتظـرة الموت ، يراودها يقين بأن رجل القش هو الذى رمى على نادى محمد على القنابل الحارقة : بالقش حشيت رأسه ، همساته خالية من المعنى ، وليس له قالب ، يندفع ويلقى بالقنبلة الاولى والثانية ثم يرش بودرة ويغلق عليهن الباب ، ويفر كالريح فى الحشائش الجافة ٠

سعلت وهى تحس بعطش فظيع ٠ وتدفقت سـوائل صـفراء من جوفها فأكملتها ببصقة تود أن تشيعهـا الى مستر سـتيف ٠ ومسحت الممرضة الواقفة الى جوارها وجهها وقد تناثر الرذاذ على رقبتها ٠

معركة خاسرة دخلتها ضد رجال القش ، فقـد احترق جسـدها ، وملائكة الموت أصبحت توشوش لها لتصـحبها على طريق الأبدية ، ولم يبق لها سوى ساعات تقضيها وهى تتقلب على الجمر ٠ كتابها لن يجد من يكمله ٠ مذكراتها سوف تعبث بها الأيدى ، وربما يتخلى عنها اللواء عويس باشا بسبب مشاغله الكثيرة هذه الأيام فلا يأتى لوداعها ٠

بدأت تشم رائحة تخثر جروحها وقيحها ٠ الهدوء المستقر فى عينى الممرضة التى تمسح لها وجهها بالقطن من نوع ذلك الهدوء الذى يسبق العاصفة ، فبعد قليل يضـعونها عارية فى صـندوق زجاجى لمكـافحة تقيحاتها ويقتربون منها والكمامات فوق أنوفهن ٠

وفى ثانية من تلك الثوانى القليلة التى تفيض فيها روحها وتفارقها آلامها دهمتها موجة هائلة من الشجاعة وسرت فى عروقها مثل موجات البحر الهادر ، فرفعت ذراعها الأيمن وحركت أصابعها وهى تتغلب على الألم وتقهره ٠

وانطلق صـوتها المحبـوس وتمتمت بعدة صـلوات بالأردية كانت تؤديها في الهند ، وثبتت عينيها على الجدار وظلال الاشـجار تتراقص أمامها ـ في البداية همهمت ، واستمدت شجاعة فنطقت ، وقالت :

ـ أود كتابة وصيتى ٠

كانت على يقين من أنها مقضى عليها ، وأن هذه هى الافاقة الاخيرة لها قبل حشرجات الموت ، فقالت لنفسها : لن أرحل مثل رجال الفش ، شكلا بل قالب وظلا بلا لون ، قوة مشلولة واشـارة بلا حركة ، كلا ٠ وتحاملت على نفسها وهى ترتب أفكارها ٠

خرجت الممرضة وعادت بكاهن بروتسـتانتى وموثق من السـفارة كانت زوجة السفير قد أمرته بالبقاء فى المستشفى الى جانب المحروقين الانجليز لانهاء اجراءات دفن الموتى تمهيدا لترحيل نعوشهم الى بريطانيا العظمى ٠

رفضت مارجريت سنكلير الصلاة خلف الكاهن ، وقالت له أنهـا تركت المسيحية منذ زمن طويل ٠ وقال لها الرجل حانيا : نهر الأبدية يتسع للجميع دون تفرقة بين جنس ودين ٠ قالت له : أحببت الجميـع فيما عدا الرجال الجوف ٠ أكرههم ٠ أكرههم ٠

وتوقف القس عن الكلام وهو يطلب أن يتـولاها الله برحمته وأن يخفف آلامهـا ، وانتحى فى ركن للصـلاة ورفع يديه فى خشـوع الى السماء ٠

لم تشغل مارجريت نفسها بالقس أو بصلاته ، وقالت :

ـ وصيتى ٠

اقترب الموثق من سريرها وقد ضايقه زجرها للقس وبدأ يكتب فى برود : مسودات كتبى ومذكراتى تسلم الى اللواء عويس باشـا ليعمل على نشرها بمعرفته ، ويكون عائدها لعائلات ضحايا مجزرة الاسماعيلية٠ أموالى ومجوهراتى وكافة ممتلكاتى فى مصر تمنح لخـادمتى صفية أبو دراع ، أموالى فى كاسل فى بريطانيا تمنح لجمعية الدراسات الروحية فى لندن ، وجمعيات مكافحة الاستعمار فى أفريقيـا وآسيا ، مناصـفة فيما بينها ، هذه وصيتى أنا مارجريت سنكلير بتاريخ ٢٧ يناير ١٩٥٢ ـ القاهرة ٠

مدت ذراعها لتتناول القلم وتوقع على الوصية ، لكن رأسـها سقط فجأة على المخدة وانقلبت عيناها لامعتين مثل قطعتى زجاج ٠

قال القس وهو يرفع يديه بالشكر لله طالبا لها الغفران : « انتهت عذابات ابنتك البارة مارجريت سنكلير فتغمدها برحمتك » ٠

(١٩)

قضى اللـواء عويس ليلة السـبت بين قواته فى القشـلاق المواجه لقصر عابدين ، وكان جلالته منزعجا طوال الليل بسبب شدة الحرائق واقترابها من القصر ٠

كان موعده أمس مع مارجريت سـنكلير فى كلوب محمـد على بعد انتهاء المأدبة الملكية فى حوالى الساعة الخامسة ٠ لكن الامور تطورت على نحو لم يتوقعه اللواء ، فقد اشتعلت النيران فى كازينو أوبرا فى حوالى الساعة الثانية عشرة ونصف ، وأحاطت بالقصر مظـاهرة ضخمة وهى تهتف بسقوط الملك ٠

بقى الى جانب صغار الضباط والجنود وقد أعد العدة لمواجهة أعمال الشغب والحرائق ٠ زودهم بخراطيم المياه بناء على نصـيحة الكولونيل سفينكس ، لكنه لم يتصور أن تتسع الحـرائق الى هذا الحـد الخطر ، وأن تزمجر البلد بهذا القدر من الغضـب : غوغاء ، وقد سـاير الوزراء فوقف عبد الفتـاح باشـا حسن فى شرفة مجـلس الوزراء يهتف فى الجماهير ويشجعها على الفوضى ، وهذه هى النتيجة ٠

اقالة حكومة مصطفى النحاس باشا أصبحت مؤكدة ٠ وقد صـدق حافظ باشا عفيفى فى توقعاته ، لفت حكومة الوفد الحبل حول رقبتها ، وسقطت ، وسوف يوجه رجال القسم المخصـوص الاتهامات لرجالاتهـا بالفساد والفوضى وخيانة العرش ، ولن تجـد من يدافع عنهـا بعد هذا الحريق المروع ٠

هذه خطة جهنمية ، بلع النحاس باشا الطعم ، وقضى على سمعته الى الأبد ، فقد احترقت القاهرة على يديه ، وسوف تذكر كتب التاريخ هذا اليوم كيوم أسود ٠

قضى جناب اللواء عويس ليلته فى اتصـالات مسـتمرة مع قيـادة الجيش وأركان الحرب وحيدر باشا وحسن باشا يوسف وكيل الديوان الملكى وحاشية الملك وعلى رأسهم بولى ٠

كان من وقت الى آخر يحاول الاتصال بمارجريت سنكلير فى شقتها

فى الزمالك ولا مجيب ، وافتقدها في ليلته التى طالت وقد عاد الى القاهرة الهدوء بعد نزول الجيش الى المدينة والقبض على المشاغبين من الشيوعيين وحزب مصر الفتاة والاخوان المسلمين ٠

أخبره الداهية حافظ عفيفى باشا ضاحكا بعد نزول الجيش أن مرسوم اقالة الحكومة سوف يعلن غدا بعد أن تنشر صحف الصباح اعلان الاحكام العرفية وحظر التجول بناء على طلب وزير الداخلية فؤاد باشا سراج الدين ، فتختتم الحكومة التى طالما تغنت برعاية الحريات والدفاع عن الديموقراطية آخر ساعة لها بفرض الاحكام العرفية ، وتمهد الطريق للحكومة الجديدة للبطش بكل القوى المناوئة مرة واحدة

حكومة انتقالية تعيد ترتيب البيت من الداخل قبل اتخاذ خطوات اخرى أكثر حزما لفتح باب المفاوضات مع الانجليز على أسس معقولة ٠

لهذا بقى اللواء عويس باشا فى القشلاق مطمئنا ، وقد فهم رسالة الدكتور حافظ عفيفى باشا على وجهها الصحيح ، فاذا فاته قطار هذه الوزارة التى جرى التباحث حولها على عجل فى الليل ، فالفرصة قادمة ، والمهم حاليا تثبيت ركائز الحكم والاعداد لانتخابات جديدة ٠

دق جرس التليفون ٠ سمع صوتا نسائيا يخاطبه بالانجليزية فى نبرة واضحة رقيقة :

ـ هنا مستشفى الانجلو بالجزيرة ٠ طلبت مس سنكلير مارجريت الاتصال بهذا الرقم ٠ وهى موجودة حاليا فى المستشفى بسبب اصابتها بحروق فى حريق القاهرة ٠ هى للاسف لا تقوى على الكلام حاليا وان كانت غير غائبة عن الوعى تماما على الرغم من المخدرات القوية التى تحتاجها لتخفيف آلامها ، فاذا كان الأمر يهمك رجاء الحضور الى المستشفى على عجل ٠

تساءل اللواء عويس قائلا :

ـ هل هى فى خطر ؟!

وتلاحقت أسئلة اللواء عويس وهو لا يصدق أذنيه ، والمرأة تحاول أن تنقل له صورة صادقة عن حالتها فى هدوء ، فربما تكون هذه آخر رغبة للفتاة سيئة الحظ ٠ وقالت له عبر الهاتف :

ـ حروقها خطيرة ، من الدرجة الثالثة ويحسن القدوم فورا ٠

وأجاب اللواء عويس وهو يضع السماعة :

ـ قادم فورا ٠

دارت الدنيا به وهو يهرع مغادرا قصر عابدين ٠ انبثقت فى نفسه

تلك التفاصيل الدقيقة لعلاقتهما منذ تعرف عليهـا فى العام الماضى وقد توطدت علاقتها به الى درجة العشق ٠

كانت تقول له ضاحكا : نهر الحياة له منبعان : الولادة ، والموت ٠ فهل تقضى محروقة وحيدة فى القاهرة ؟!

لم ينس موعدها أمس ، وقضى ليلتـه بين قصر عابدين والقشـلاق متابعا لاخبار الحرائق وحوادث الشغب وقد نزل الجيش الى الشوارع واقتربت النيران من القصر ، لكنه لم يدر بخلده وهو يبحث عنها طوال الليل أن الحرائق قد طالتها ٠

حقيقة صدق أولئك الحكمـاء الذين قالوا ان الطـاعون اذا ضرب النجوع والكفور فلابد أن يطول ساكنى القصور ، وها هى النيران قد لحقت برفيقته الجميلة مارجريت الدفقة الحية التى حركت مياه حياته الراكدة ودفعته للتنفس والصحيان والقيام والقعود ٠

السـيارة تنهب به الطـريق الى المسـتشفى وهو قابع فى مقعـده الخلفى ، وقال لنفسه : أحرقت القاهرة فاحترقت أصـابع فؤاد باشـا سراج الدين ، لكن حريق القاهرة قضى على مارجريت ، يا للاسف !!

تذكر لقاءه مع الكولونيل سفينكس فى النادى الكشفى للعاملين فى شركة شل منذ عدة أسابيع ، وغمره الندم لانه لم يوقفه وتستر عليه ٠

والنيران لم تلحق السراى والجـالس على العـرش حقا ، الا انهـا أصابته فى مقتل باحتراق مارجريت ٠ توقفت به حينئذ سيارة الخاصة الملكية الليموزين السوداء التى استقلها بناء على أمر شخصى من جلالته بالتوجه لمقابلة شخصية عسكرية انجليزية هامة بعيـدا عن العيـون ، وتوقفت به السيارة أمام مبنى منعـزل خلف ربوة عاليـة فى صـحراء الهاكستب ، فانقبض قلبه واحس بالخوف ووحشة الصحراء ٠

ألقى نظرة سريعـة على المبنى وملحقـاته من الخـارج وهو ينحنى بجسده الضخم ليترجل من السيارة ، وقد داعبت أنفـه رائحـة بارود وعبوات رصاص فارغة ، فأيقن أنه على مقربة من تبة سرية لضرب النار٠

بطريقة عفوية تحسس مسدسه والتفت الى سائق الخاصـة الملكية مستنجدا ومتوجسا شرا ، وفجأة خرج رجل من البوابة يصيح به :

ــ أهلا وسهلا ٠

وبعدها أكمل مضيفا :

ــ كولونيل سفينكس ٠

لم يترك له فرصة لتأمل المكان ، قاده الى حجرة منعزلة وهو يقول :
ـ هذا معسكر كشفى للعاملين بشركة شل .
وجلسا الى طاولة عليها خريطة مجسمة لمدينة القاهرة ووضح منطقة عابدين والطرقات المحيطة بالقصر الملكى ـ وبدأ الكولونيل سفينكس حديثه باللهجة المصرية قائلا :
ـ لا شك أن القوات البريطانية فى منطقة قناة السويس تعانى من مشاكل كثيرة بسبب عدم تعاون قوات البوليس ورجال الادارة معها ، لكن هذه المشاكل ليست مقصورة على قوات الجيش البريطانى، فالحكومة المصرية قد أصبحت هى الاخرى ضحية للخطوات الفوغائية التى اتخذتها بالغاء معاهدة ١٩٣٦ ووقف المفاوضات من طرف واحد لأغراض حزبية تحت تأثير من الدكتور صلاح الدين وزير الخارجية .
وأضاف الكولونيل سفينكس قائلا :
ـ وقد علمت الحكومة البريطانية أن مظاهرات دموية سوف تخرج الى الشوارع بقيادة أحمد حسين والشيوعيين والاخوان المسلمين للتنديد بحكومة الوفد لاحساسهم أن الحكومة لا تدعمهم فى حملتهم ضد القوات البريطانية ، وتكون الحكومة البريطانية سعيدة اذا توافرت لجلالته الحماية الكافية فى أثناء الهوجة .
بعدها توقف الكولونيل سفينكس عن الحديث ، وعرض عليه القيام بجولة فى أنحاء المعسكر الكشفى ، فوافقه دون تردد .
خرجا الى الساحة الخلفية الممتدة فى الصحراء ، فرأى عجبا . مجموعات من الرجال تتسلق حوائط وتقتحم موانع جدارية وحواجز ، وقبل أن ينطق بكلمة واحدة ، قال مصطحبه :
ـ النظم الكشفية تقدمت فى العالم كله . وفرق الكشافة بشركة شل لا تقل كفاءة وخبرة عن الفرق الكشفية البريطانية .
استمع اللواء عويس اليه مغيظا ، فهذه تدريبات لقوات خاصة ، مصطحبه لا يقدر معرفته بالفنون العسكرية ، وخفف من حنقه على أندراوس باشا وكريم ثابت باشا قليلا ، وتبين أن مهمته شاقة حيث يتعين عليه حماية السراى من الوفد والانجليز معا .
فتح الكولونيل غرفة ، فلمعت أسلحة عشرات من الفؤوس والبلط الحديدية والقضبان قدر اللواء من واقع خبرته فى الاشراف على الأسلحة بالسراى انها تكفى لمائة شخص .
غير أن اللواء عويس سرعان ما فقد اهتمامه بأدوات الشغب فقد

التقطت انفه رائحة متفجرات ، فأخذ يحوم فى البهو وقد اطفأ السيجار ، ثم اندفع نحو غرفة فى نهاية البهو ، ودق عليها دقا شديدا فى غضب ، ففتحها الكولونيل مترددا ، وقد أدهشه أن يندفع حضرة اللواء بجسده الثقيل نحو الغرفة ككلب، مسعور مدرب وكرشه يهتز .

زكائب مليئة ببودرة زبدية لها رائحة نفاذة تجمع بين رائحة ت.ن.ت. والفسفور السريع الاشتعال ، فأسرع الى الغرفة مندفعا ، وسارع الكولونيل سفينكس الى القول :

ـ هذه مواد للتدريبات على اطفاء النيران .

فقال اللواء عويس وقد استشاط غضبا :

ـ هذه المواد تكفى لحرق القاهرة .

فأجاب الرجل مبتسما فى خبث :

ـ لا اطفاء دون اشعال .

فتجهم وجه اللواء عويس وتناثر الرذاذ من فمه كثيفا ، وصهل كحصان جريح ، ووجد ملحة الكولونيل سمجة وخالية من الطرافة . ولم يكن من طباعه افتعال الضحك أو المجاملة ، فانسحب من الغرفة غاضبا .

عادا الى غرفة العمليات وقد توتر الجو بينهما ، وتناول حضرة الكولونيل مؤشرا واخذ يحدد المواقع القريبة من السراى على الخارطة، ويقترح مضاعفة عدد قوات الحرس الملكى والمشاة داخل القصر وحوله وتجهيزها بالأسلحة الخفيفة ومكبرات الصوت والخراطيم لمواجهة المظاهرات المنتظرة .

وبعدها اختتم الكولونيل حديثه متمنيا لجلالته كل سعادة .

وبقى السؤال التقليدى فى مثل هذه اللقاءات السرية التى تجمع بين عميلين مدربين باسم من يتحدث الكولونيل سفينكس ، باسم السفارة البريطانية أم باسم القيادة العامة للقوات المشتركة فى قبرص؟! ألقى اللواء عويس بسؤاله بطريقة فظة وقد نفد صبره ، فتجاهل شريكه السؤال ووجه الحديث وجهة أخرى ، فانحط اللواء عويس فى مقعده غاضبا .

سعى اللواء عويس لمعرفة الجهة الذى يعمل لحسابها حضرة الكولونيل سفينكس أما الكولونيل فقد كان حريصا على معرفة رد فعل اللواء عما عرضه عليه ، ولكن الصمت لفه وماتت نظراته واضحى وجهه جامدا مثل وجه أبى الهول .

وعندما أطلع جلالته على نتيجة مقابلته للكولونيل وتخوفاته من

اعداد الانجليز لحريق كبير فى القاهرة ، لم يجد عنده آذانا صاغية : اخبره انه يعرف كل كبيرة وصغيرة تجرى فى هذا المعسكر وأن القسم المخصوص فى وزارة الداخلية يجرى التفتيش عليه من وراء ظهر فؤاد باشا سراج الدين ، ووجه اليه سؤالين فقط حول البلط والاسلحة بالمعسكر هل تكفى لقوة صغيرة ام كبيرة ، فأجابه اللواء عويس قائلا :

ــ تكفى لحوالى مائة شخص .

فردد جلالته الرقم :

ــ مائة شخص ؟!

وبدا عليه الانشغال ، لكنه لم يعلق ، ثم سأله عن المتفجرات وعدد القنابل ، فأجابه اللواء عويس :

ــ لم ار قنابل ، ولكننى عاينت بودرة حريق .

فكرر جلالته الكلمة : حرائق . آه . حرائق . ثم اضاف :

ــ هؤلاء الانجليز ملاعين .

وعندما سأل اللواء عويس عن توجيهات جلالته ، قال له :

ــ انس الموضوع برمته . دعه لى .

فى السابق كان اللواء عويس لا يثق فى مارجريت سنكلير ولا يصدق حكاية الكتاب الذى تضعه بعنوان « سقوط الامبراطورية البريطانية » فتأليف الكتب حيلة معروفة يلجأ اليها العملاء لتغطية انشطتهم السرية ، وهو على معرفة بوسائلهم واساليبهم ، فقد امتلأت بهم جامعة فؤاد الاول وبلغت بهم الوقاحة الى حد التسلل الى الازهر الشريف ، لكنه بمرور الأيام نحى هاجس العمالة جانبا ، فالفتاة مشغولة فعلا بكتابها وقد جمعت له مادة لا بأس بها فى تجوالها فى آسيا وقد سجلت لحظات خروج الحاكم البريطانى من الهند . وكان يكرر على مسامعها انه لن ينفعها فى كتابها ، فالخلافات بين مصر وبريطانيا مؤقتة ومن السهل تجاوزها اذا استؤنفت المفاوضات وحسنت النيات وخففت الحكومة البريطانية من حدة مطامعها الاستعمارية ، فتتهمه بالسذاجة قائلة :

ــ هذا وهم يا باشا .

ذات مرة ، قالت له :

ــ احبك يا باشا .

فأجابها فى تواضع :

ــ هذه نزوة .

فعرت جانبا من صدرها البارز ضاحكة ، وقالت :
ـ انظر ، البريطانيات لسن باردات كما يدعي سكان المستعمرات . انا افضل من زوجتك التى تمارس السحاق مع الصغيرات .

بكفه الأيسر صفعها صفعة ارتجت لها رأسها ، وسال خيط رفيع من الدماء من شفتها السفلى وقد انغرست فيها سنتها العلوية ، لكنها تحلت بالصبر ولم تعلق ، وعت الدرس ولم تعد مرة أخرى للاشارة من قريب أو بعيد الى زوجته الأميرة شويكار أو ابنته جويدان ، فهذه منطقة حرام ولا يجوز للأغراب الخوض فيها ، لكن الشكوك ساورته بعدها : هل تمارس زوجته حقيقة السحاق مع البنات ؟!

ولدهشته لم يشعر بالغيرة أو أن شرفه قد تلوث . ربما بسبب انشغاله بمارجريت .

فى هذه اللحظات ، والسيارة تنهب به الطريق ، تأكد من براءتها وانها كانت تناصب الامبراطورية البريطانية العداء حقيقة ، وانهم قد احرقوها حية ، ولا فائدة ، فقد نفذ فيها حكم الاعدام وغالبه الندم لأنه لم يشملها بحمايته وتركها لمصيرها ، وساوره احساس خفى بأن جلالته كان على معرفة بتلك الخطة الجهنمية .

توقفت به السيارة أمام المستشفى فى شارع جانبى من شوارع الجزيرة الهادئة ، واندفع السائق وهرع يفتح له الباب ، فمد اللواء عويس رجله على الأرض وجرى نحو البوابة دون أن يسوى بزته العسكرية . قلبه منقبض . انه يدرك انه يسير على طريق الموت . وهناك احساس مرير ينتابه ، فقد انشغل عنها طوال أمس ، وتركها بمفردها لتواجه مصيرها ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

(٢٠)

اشرفت السفارة السويدية على نقل السيدة ساندرا ستروهولم ووليدها الى مبنى السفارة .

هرعت سيارات السفارة تحمل زوجات المسئولين الى الصيدلية ومع الفرحة بنجاتها من الحريق وسلامة وليدها ، وشكرهن للدكتورة صباح لاشرافها على توليدها فى ظروف غير طبيعية ، أصرت السيدة ساندرا ستروهولم على مرافقة الدكتورة صباح لها ، وأعلنت عن تمسكها بها .

وفجأة وجدت الدكتورة صباح نفسها داخل السفارة السويدية متمتعة بحصانة دبلوماسية تبعد عنها رجال القسم المخصوص وتوفر لها حماية من هذا النوع .

وفى مسكن الملحق الاعلامى بالسفارة تم توفير غرفة لها على مقربة من السيدة ساندرا ستروهولم ووليدها للعناية بها : صدفة انقذتها من اعتقال مؤكد بعد مغادرتها لعزبة عويس وظهورها فى شارع الهرم وكشفها عن هويتها واشرافها على عملية توليد لسيدة أجنبية داخل صيدلية فى أثناء الحريق .

هؤلاء الدبلوماسيون ليسوا بالرجال السذج يعلمون ، يرون ، ولا يتحدثون . واذا كانت دار عباس أبو حميدة فى عزبة عويس لها آذان فان جدران السفارة كلها آذان وعيون : يشدون على يدها شاكرين عنايتها الفائقة بالسيدة ساندرا ستروهولم . عيونهم ساكنة . ينادونها باسمها المزيف : الدكتورة صباح احمد . ويعرفون حقيقتها.

أحاطوا بها ، تجمعوا حولها ، تحدثوا اليها ، وفور استقرارها فى ضيافة عائلة الملحق الاعلامى داخل مبنى السفارة ، أرسل التقرير الى وزارة الخارجية السويدية بالحادث :

أصيبت عالمة الآثار السويدية السيدة ساندرا ستروهولم فى أثناء حريق القاهرة يوم السبت بحجر فى رأسها بالقرب من منطقة الأهرامات وتم نقلها الى صيدلية قريبة بواسطة الأهالى حيث جاءها المخاض ووضعت ذكرا بمساعدة طبيبة تصادف وجودها فى المنطقة .

وقد رات السيدة ستروهولم صحبة الطبيبة للاقامة معها داخل مبنى السفارة للعناية بها ووليدها .

وقد علمنا ان الطبيبة هاربة من البوليس المصرى واسمها الحقيقى الدكتورة أوديت أحمد السيد وهى ابنة وزير سابق وعرفت بنشاطها فى الحركة الشيوعية المصرية .

وجاء رد الخارجية السويدية كما كان متوقعا : السماح للدكتورة أوديت أحمد السيد بالاقامة داخل السفارة شريطة عدم السماح لها باجراء اتصالات خارج السفارة واذا حدث وغادرت المبنى لسبب ما لا يسمح لها بالعودة الى دار السفارة مطلقا .

عشرات البرقيات الصادرة والواردة بشأنها تتناول تفاصيل قانونية تتعلق بكيفية التصرف اذا علمت السلطات المصرية بوجودها داخل السفارة وطلبت تسليمها بالقوة . وكانت هى تقضى أيامها وأمسياتها مع رفيقتها السويدية فى أحاديث فنية وثقافية ممتعة .

هى لحظة حاسمة تلك التى نطقت فيها الدكتورة أوديت قائلة : « طبيبة » . رات الدماء تسيل من رأس السيدة الأجنبية : بطنها منتفخ . وجهها شاحب . عيناها زائغتان . خائفة . مدت يدها لها . نبضها ضعيف . نظرت الى الصيدلى العجوز قائلة فى حسم :

« طبيبة . الدكتورة صباح » .

تناولت منه المطهرات وداوت راسها من الجروح وضمدتها وأمرته باعداد حقنة منشطة للقلب على وجه السرعة .

دون الافصاح عن مهنتها لم يكن فى مقدورها معالجة السيدة التى دهمها نزيف الوضع بطريقة فجائية . قالت لها انا فى شهرى الثامن وأود الحفاظ على جنينى بكل الطرق . طمانتها وهى خائفة أن تقتحم قوات البوليس الصيدلية وتقبض عليها . مجازفة ، لكنها قبلتها راضية ، فأمام انقاذ حياة انسان من الخطر ، لا يجوز الهروب ، واذا كانت قد وقعت الكشف على ستهم فى عزبة عويس دون أن تكشف عن هويتها فليس فى مقدورها أن تتصدى لمهمة مداواة السيدة المصابة فى صيدلية وهى ترتدى ملابس الفلاحات .

آفة المشتغل بالحياة العامة الجبن . واذا كان المثل يؤكد انه ليس فى كل مرة تسلم الجرة ، فان انقاذ حياة انسان واحد يستحق المخاطرة ، ولتسقط كافة الدعاوى والشعارات اذا كانت تضطر الانسان الى خيانة مبادئه ومثله ومهنته .

فى هذه اللحظات التى تحادث فيها ساندرا فى السفارة ، وقد فارقها الخوف من القبض عليها عنوة ، أدركت معنى الصدفة فى السياسة ، فمهما كان الحذر يظل للصدفة دورها فى الفشل أو النجاح .

ساندرا لم تسألها عن سبب ارتدائها ملابس الفلاحات . وقدمت لها ملابس انيقة وهى تقول لها :

ــ هذه هدية .

واعفتها من الكذب .

الدكتورة أوديت سبق لها مصادقة العديد من الدبلوماسيين وعائلاتهم فى نادى الجزيرة ، وعلى معرفة بطباعهم الكتومة . ينادونها فى أدب :

ــ مس أحمد .

والزوجات يخاطبنها فى بعض الأحيان باسمها الاول : الدكتورة صباح . انها ليست متأكدة ان كن يعرفن اسمها الحقيقى ، لكنها متأكدة تماما أن شخصا ما فى هذا المبنى الضخم يعرف حقيقتها .

فى عزبة عويس كان رفيقها عباس أبو حميدة يعرف حقيقتها ، ولم يكن يضايقها شك زوجته نفوسة بنت الشامى فى هويتها . أما هنا ، فعليها أن تلعب دورها وحدها دون مساعدة من عباس أبوحميدة أو توجيهات الرفاق ، ويضايقها اخفاء الحقيقة عن ساندرا وقد فتحت لها قلبها واتخذتها صديقة لها فى مصر .

قالت لها ضاحكة أنها لا تعرف والدا لابنها ، ففى بعض الشهور من السنة تغلبها نزواتها وتدفعها للقاء عديد من الرجال ، وفى الاسبوع الذى تعتقد أنها حملت فيه تنقلت بين ثلاث عواصم عالمية هى لندن وبرلين وروما واقامت علاقات جنسية مع عدة رجال ، وعندما شعرت بأعراض الحمل قررت الاحتفاظ به فهى فى حاجة الى طفل بعد بلوغها سن السادسة والثلاثين .

استمعت اليها أوديت مأخوذة بصراحتها ولم تعلق على سلوكها ، فاذا كانت ساندرا هى رفيقتها فى هذا المبنى الضخم الغريب فهى لا تنسى انها طبيبة وساندرا مريضتها . تستمع اليها ولا تعلق : وهى ايضا كانت لها نزواتها العاطفية فى صباها المبكر واوج شبابها وان كانت تخونها شجاعتها عند الحديث عن حقائق الحياة بهذه الصراحة فنزواتها كانت بسبب حب أهوج وليس حاجة جنسية ملحة وقد غلفتها بأحلام

رومانسية جميلة ، وهذه جوانب خاصة تعف عن تناولها أمام الأغراب بهذه البساطة .

ينتقلان فى أحاديثهما من الجنس والحب الى السياسة ، قرآنا الصحف ، ألمتا بتفاصيل الحريق الهائل الذى دهم المدينة يوم السبت خسائر فظيعة ..٣٠ متجر . فنادق شبرد ومترو بوليتان . بنك باركليز ، أندية . قتلى . اقالة وزارة الوفد . تكليف على ماهر باشا بالوزارة . اعتقالات واسعة . توجيه اتهامات للوفد بالتقصير واتهام أحمد حسين بالتدبير لحريق القاهرة .

ساندرا تطلع على الصحف فى دهشة وهى راقدة فى فراشها والشمس تتسلل اليها من زجاج النافذة تستوقفها مظاهر العنف والقسوة التى صحبت هذه الأحداث . عنف وقسوة لم تعهدها فى القاهرة الآمنة من قبل . كانت تسير على جانب الطريق الايمن تحث الخطو فى طريقها الى الفندق ، وفجأة ارتطم حجر برأسها من الخلف فداخت وسقطت على الارض ، ولا تدرى ماذا حدث حتى أفاقت وهى داخل الصيدلية ، حقيبة يدها لم تسرق وحقيبة أوراقها كما هى ، حملهما شخص أمين وسلمهما الى الصيدلى .

هذه ألغاز . ضربة حجر فى رأسها تكاد تقضى عليها وعلى جنينها ، وفى الوقت نفسه نقودها لم تمس ، وأوراق أبحاثها عن نصوص الاهرامات لم يعبث بها أحد ثم طبيبة تتولى العناية بها حتى تضع ، وجموع الناس ترعاها فى صدق ـ فمن أحرق القاهرة ؟!

عرف التاريخ هبات وثورات شعبية ولكن ما حدث يوم السبت ليست ثورة أو هبة شعبية ، بل جريمة مدبرة نفذتها قلة من الناس لسببٍ ما .

شمس الصباح منعشة ودافئة . وتقلب ساندرا الصحف وأفكارها تجرى مع السطور . مستسلمة ، وفرحة لنجاتها ، وتود أن تسأل رفيقتها الدكتورة صباح لتوضح لها ما حدث ، لكنها تتوقف عن السؤال خجلة ، فليس من اللائق التطفل عليها وهى متخفية فى ضيافتها : كانت متنكرة كفلاحة ساذجة بسيطة ولكنها كشفت عن هويتها وعرضت نفسها لخطر ما لتنقذ حياتها ، فلتقابل جميلها عليها بالصمت وعدم هتك سرها .

الدكتورة صباح تقرأ الصحف على مقربة منها تفصص الكلمات ، تحللها تستخلص معانيها الخفية ، فور اعلان الاحكام العرفية فى

السادسة مساء واعلان مصطفى النحاس باشا حاكما عسكريا ادركت بفريزتها أن حكومة الوفد راحلة فى اليوم التالى .
يقلقها الخوف على الرفاق وقد تضمنت قوائم الاعتقالات أصدقاء لها ، وتود معرفة ما وقع لعباس أبو حميدة ، واحمد طه ، وزكريا لطف الله ، واولئك الضباط الصفار . هناك أسلحة مهربة من الجيش لارسالها لمنطقة قناة السويس ويتعين اخفاؤها فى هذه الظروف .
اوديت ليست ساذجة ، وقد ادركت أنها اذا كانت تود البقاء داخل السفارة فعليها أن تلعب دور اللاجىء السياسى الذى ليس من حقه القيام بأى نشاط لقد حرم عليها الخروج أو الاتصال التليفونى ، وتحدث اليها فى اليوم التالى لقدومها أحد الدبلوماسيين على انفراد . أقبل عليها مهللا وقبلها فى خدها كأنه يعرفها منذ زمن طويل وصاح قائلا :

ـ يا لها من صدفة طيبة ، مس أوديت أحمد السيد .
وقبل أن تفتح فمها بكلمة واحدة ، وقد ارتبكت فى وقفتها ، أكمل قائلا فى ثقة :
ـ غيبة طويلة . افتقدتك ملاعب التنس فى نادى الجزيرة .
وبعدها أكمل قائلا :
ـ زوجتى تحتفظ بمجموعة من الصور لك فى الملاعب .
أخبرها باسمها وهواياتها ، وانه يمتلك صورة لها ، فى نفس واحد ، فى جملة واحدة طويلة قطعها الى فقرات حتى يتيح لها التفكير وحسن التصرف وهو يميل عليها أو وهو يدور حول نفسه ، يقبل عليها ويتراجع ، وينطق بكلماته فى ايقاع لا يترك لها فرصة للحديث .
بعد هذه الرسالة الاخبارية ، وقف ثابتا فى مواجهتها وهو يوجه نظرات ثابتة اليها . قسماته جادة وحادة ، وفى لهجة آمرة ، قال لها :
ـ الدكتورة أوديت هنا فى مكان آمن تماما ، فالسفارة قطعة من السويد وتخضع لقوانين السويد التى تنص على حماية اللاجئين اليها وفى المقابل يتعين على طالب الحماية عدم مزاولة نشاط معاد لحكومته.
استعادت أوديت ثباتها وقالت له :
ـ اننى هنا للاشراف على صحة السيدة ستروهولم ووليدها ، وسوف اغادر المبنى فور انتهاء مهمتى .
تجاهل الرجل المدرب قولها تماما ، واكمل حديثه قائلا :

ـ عادة تتمسك السفارة بالحصول على تعهد من طالب الحماية باحترام هذه القواعد بدقة ، لكننى أعتقد أننا لسـنا فى حاجة الى ذلك مع الدكتورة اوديت احمد السيد باشا .

صمتت على مضض ، تود مغادرة المبنى فورا ، ورأسها يدور باحثة عن موضع آمن تلجأ اليه فى هذه الظروف المعقدة . ومن ناحية أخرى تعيد حساباتها ، فوجودها على مقربة من السيدة ستروهولم يوفر لها حماية مضمونة تود استغلالها . ورأت أن تمسك العصا من وسطها ، ولا تفصح عن رغبتها فى الرحيل ولا تعلن قبولها لهذه الشروط . قالت :

ـ لا أعد بشىء ، ومريضتى من حقها الاستغناء عن خدماتى الطبية .

سددت له كلماتها كما تسدد كراتها القوية فى ملعب التنس . وادرك الرجل انه سار بعيدا فى تهديداته لها ، فتراجع عن تجهمه ، يحادثها ويضحك ويلوح بيديه ، ويقترب منها وكأنه يود مراقصتها . قال لها فى ود :

ـ الدكتورة صباح .

اوديت لم ترو شيئا لرفيقتها ساندرا عن حديثها مع الرجل . لم تسأله عن اسمه ولم يخبرها . ربما رجل أمن ، أو ملحق صحفى . وسامته ، وتلك الرجولة التى تطل من تقاطيعه الجميلة ، ودربته فى ادارة الحديث وافتعاله الايماءات والاشارات الموحية ، واختياره لكلمات صارمة ، كل هذه السمات أوحت لها بأهمية الرجل وخطورته . وادركت أن حركاتها محسوبة عليها .

تجمعها جلسات صباحية ومسائية مع رفيقتها السويدية ، وكل منها تدور فى فلك خاص بها ، متاعبها وأحلامها لا تفصح عنها . وخطوط التماس بينهما مشاعر انسانية راقية ، صداقة . لكن الشقة التى تفصل بينهما ، هى المسافة التى تفصل بين مصر والسويد من الناحية الجغرافية . حياتان مختلفتان . هى نتاج ظروف تشكلت واستقرت ، ملكية عاقلة واستقرار اقتصادى ، وابناء الطبقة البرجوازية يتمتعون بفضلات النظام الرأسمالى الوفيرة ، واشتراكية صارمة جعلت من التأمينات ملاذا للفقراء ، وسداد الضرائب حق مقدس للدولة . ساندرا ابنة واقع آخر ، اما هى فقد تمردت على حياة الطبقة الاقطاعية التى تملك الارض ومقاليد الحكم . والدها انسحب من الحياة

العامة ، متقززا من الاعيب الساسة ونفاقهم الذى دفع البلد الى الهاوية ، وجعل من فاروق حاكما بأمره ، وتعتبر من نسيج النظام ، وجاء تمردها لتقطع علاقاتها بهذا العفن . وبعد التمرد ، الانضمام ثم الانغماس فى الحركات التى تسعى لاقامة نظام جديد وتشكيل حياة اكثر انسانية ووعيا . انضمت فى صباها الى الأخوات المسلمات لكنها سرعان ما تمردت على رئيستها ولم تجد بغيتها لديهن . وفى المدرسة الثانوية اقتربت من الجماعات التروتسكية وتعرفت عندهم على منابع الثقافة وحلقت معهم فى دنيا المثاليات لاقامة حياة أفضل عن طريق الثورة العالمية . ثم اقتربت من ألواقع شيئا فشيئا مع تقدمها فى دراسة الطب ووجدت بغيتها لدى المنظمات الشيوعية واستقر المقام بها .

كانت شمس الصباح تغرق الغرفة وتغطى فراش ساندرا بأشعة ذهبية وتنعكس على وجهها . شعرها الذهبى القصير تاج من الذهب. عيناها فرحتان . وجنتاها متوردتان . انتهت من أرضاع وليدها من صدر عفى غنى باللبن فوسدته الى جوارها على الفراش لينعس على مقربة منها . وفجأة قالت لها :

ـ اعتقد ان جريمة ستالين الكبرى انه نفض يده من الثورة العالمية واهتم ببناء دولة صناعية كبرى منافسة للغرب .

نظرت اليها اوديت فى توجس . هاهى تروتسكية متخصصة فى اللغات القديمة وتهوى السياسة من الناحية النظرية . وقالت لنفسها : ولعلها رفيقة سابقة أو محترفة سياسة . وتأملتها وهى تربت على الرضيع بحنان شديد وكأنها وسدته جدران بطنها فأحس بالاطمئنان ، تهمس له بكلمات سويدية ربما لا معنى لها ولكنها تربطه بها اليها .

جلسات محبطة تلك التى تجمع بين اللواء عويس باشا وأخيه الأصفر حمدى بك صاحب الشركة المصرية للبواخر والنقل بسبب انسحابه الفجائى من مشروع اقامة المصنع . الخلاف بينهما يكمن فى اختلاف نظرة كل منهما الى مفهوم الغنى والثروة ، فاللواء عويس باشا لا يفهم في الثروة الا اذا كانت على هيئة ضـــياع واسعة وعزب ، ومن لا يمتلك الضياع فهو فقير ولا ينتسب الى علية القوم ، أما حمدى بك فلا يهتم بالاراضى أو العقارات وثروته كلها أموال سائلة وسندات وأسهم ، ونشاطه الاقتصادى مقتصر على النقل البحرى ، وليس لديه عقارات أو أصول ثابتة أو منقولة تذكر فيما عدا المجوهرات ، وله فى ذلك حكمة ترسخت فى ذهنه منذ سنوات شبابه الاول ، فهو رجل صفقات وسمسرة ، وسعادته كلها فى تلك الأوراق المالية التى يديرها ، واذا حصل على عقار او مصنع تخلص منه على وجه السرعة بالبيع او مقايضته بأوراق مالية .

وبلغت ازمة حمدى بك وكراهيته للعقارات ذروتها فباع القصر الذى بناه فى الزمالك كعادة الأعيان بالحاح من زوجته عديلة هانم . لم تطاوعه نفسه على السكنى فيه بعد الانتهاء منه ، فباعه للشريف صاحب مصانع الزجاج ، ضاربا بتوسلات زوجته عرض الحائط ، واستأجر طابقين فى عمارة تطل على النيل مباشرة فى جاردن سيتى .

يكره الممتلكات فى شتى أشكالها فيما عدا النقود والأوراق المالية والمجوهرات ، ولولا الملامة لباع سياراته واستأجر بدلا منها عربات أجرة لانتقالاته ، وهذه طبيعة فى نفسه ، وشعاره خالى الوفاض خالى البال .

وربما اكتسب حمدى بك هذه النظرة المتشائمة خلال اقامته فى سويسرا للدراسة فى صدر شبابه أو ربما لتفقهه فى دراسة البورصات والبنوك وقد أصبح خبيرا فى ادارة الاوراق الماليـــة ، وقد زكت الايام والاحوال السياسية المتقلبة فى البلاد هذه النظرة لديه حتى أصبحت فلسفة له ونهج حياة ــ وما كاد يبلغ الثـــلاثين من عمـره حتى تخلص

من العقارات والضياع التي ورثها بالبيع حتى أن أخاه الاكبر اللواء عويس باشا كان يداعبه قائلا :

ــ ذهبت الى سويسرا أقطاعيا وعدت منها شيوعيا .

وفى الحقيقة فان هذا المزاج السوداوى والخوف من الملكية ليس نابعا من عقيدة سياسية معينة . فحمدى بك من مليونيرات مصر ويتمتع باحساس مرهف بتقلبات السوق يدفعه للانقضاض على الصفقات الرابحة فائزا بالغنيمة وتاركا الفرم لغيره . واذا راق مزاجه قال لأخيه الأكبر :

ــ انت اقطاعى من القرن السادس عشر ، أما أنا فتاجر من رواد القرن الثامن عشر .

ينظر اللواء عويس باشا اليه نظرة عطف واشفاق راجيا له الشفاء من هذا المرض الذى سيطر عليه واعمى قلبه فى شبابه ولم يبرأ منه فى رجولته ــ فى قرارة نفسه ينظر اليه نظرة الغنى الموسر الى الفقير المعدم ، وفى أحيان أخرى يساوره الخجل من تصرفاته ، وقد كف عن السعى لدى جلالته لمنحه رتبة الباشوية ، فهو لا يمتلك من الأطيان أو العزب شيئا يذكر ، حتى شركة النقل البحرى التى يمتلكها ، مراكبها كلها مؤجرة وليس لها ورش صيانة أو أوناش تفريغ أو عربات شحن ، ونشاطه كله قائم على الايجار أو المشاركة فى عمليات .

فى بعض الاحيان ، يتفضل جلالته بتشريف عزبة عويس بالزيارة ، فيسأله عنه قائلا :

ــ اخوك الشيوعى ما اخباره ؟!

فيقول لجلالته خجلا من تصرفات أخيه :

ــ راسمالى جبان . لا يزرع أرضا ويخضرها ولا يبنى مصنعا . سمسار ملعون .

فيضحك جلالته .

اللواء عويس باشا نقيض أخيه . حب الاطيان يسرى فى دمائه وقد رعى الضياع التى ورثها عن أبيه فى وجه قبلى وبحرى أما عزبة عويس وقد ارتبطت باسمه فقد اعتنى بها بنفسه وجعل منها حقلا لسلسلة من التجارب الناجحة فأثمرت وترعرعت على يديه ، فهو سليل أسرة الأميرالاى عويس كبير المصلح الأكبر وابن على محمد باشا عويس الأعرج .

اتفقا فى البداية على اقامة المصنع تحقيقا لحلم والدهما على محمد

باشا الذى شرع فى هذا المشروع ثم عطلته الحرب العالمية الثانيـة ومات قبل ان يحقق حلمه .

حقيقة ، القاهرة احترقت لكن الأوضاع مستقرة وما وقع لأسرة عبد الحميد لن يجرى على الاسرة العلوية .

عادة ما يفخر اللواء عويس بجده الأميرالاى عويس الكبير مؤسس العائلة ، ويقول للمقربين اليه فى عزة : « جدى الأميرالاى عويس الكبير كان صانع معجزات ، فقد حول الأراضى الصحراوية الى جنة خضراء وارفة الظل » .

وربما يضيف لمحدثه قائلا : « جدى لم تقتصر أعماله العمرانية على مصر ، ولكنها امتدت الى السودان أيضا ، وقد حدثنى عن افضاله زعماء سودانيون » . وعلى محمل المفاخرة يردد اللواء عويس باشا وهو جالس فى بهو القصر على مستمعيه : « الارض أصبح لها سعر فى هذه الناحية ، والفضل فى ذلك يعود الى جدى عويس الكبير » .

وبعدها يضيف معتزا : « بعد حصول جدى الأميرالاى عويس الكبير على الأبعادية من الدائرة السنية ، دفع والدى رحمه الله عشرة اضعاف السعر الذى قدمه جدى الى الدائرة السنية للفدان ، وذلك فى اقل من ربع قرن من الزمان ، وكان أبى يرضى الفلاحين قبل أن يمد يده الى قيراط من أراضيهم ، ويتأكد من رضاهم ، ويقول لهم ، البيع مثل الزواج يجب أن يقام على الرضا والقبول » .

وعادة يتوقف اللواء عويس عند هذا الحد من الحديث ، ولا يشير بكلمة واحدة الى الصراعات الدامية التى نشبت بين جده ووالده وبين عائلتى أبى حميدة وأبى جبل وقد راح ضحيتها عشرات من الفلاحين ، متعللا بأنه ليس من الحكمة الخوض فى موضوعات مضى زمانها ، خاصة أن عائلتى أبى جبل وأبى حميدة قد تراجعتا عن حماقاتهما واسلمتا قيادهما الى والده واليه من بعده ، فرضى عنهما ونصب ابن أبى جبل عمدة بالنيابة .

أما الطلق النارى الذى اخترق فخذ والده على باشا محمد ومزق انسجتها وأصابه بعرج شديد لازمه طوال حياته حتى عرف فى الأوساط الراقية بعلى باشا محمد عويس الأعرج ، فان اللواء عويس باشا يغفل عمدا الاشارة اليه فى أحاديثه ، فهذه حادثة قديمة مضى على زمانها اكثر من ربع قرن أو يزيد ويسعى جاهدا لنسيانها حتى لا يسىء الى

المزارعين ويقسو عليهم . وقد علمته جدته فاطمة هانم فى شبابه أن ينظر الى تلك الحادثة وكأنها قد وقعت لوالده بفعل القضاء والقدر ، ولم تصادفه صعوبة فى شبابه على تقبل الأمر على هذا النحو بسبب كبريائه وحدة مزاجه ، فاذا كان فى شبابه اليافع ينكر بشدة ان الدودة قد ضربت قطن والده سواء فى وجه بحرى أو قبلى ، وكأن ارادة والده على باشا محمد نافذة على قوانين الطبيعة وليس فى مقدور دودة القطن تحديها ، فكيف يعقل أن فلاحا فقيرا من عائلة ابى جبل او ابى حميدة قد قبع فى الظلام مترصدا والده مصوبا عليه بندقيته دون أن تهتز يده أو تصيبه ازمة قلبية !!

هذه واقعة لا تعقل لمخالفتها لنواميس الكون ، واذا وردت صدفة على لسان واحد من العائلة رفض تصديقها وانكرها بشدة .

ويطيب له فى ساعات صفوه مع أخيه الأصغر أن يردد على مسامعه حكمه ونصائحه ، فيقول له فى زهو :

ـ لا شىء أسهل من بناء المصانع والعمارات ، أما استصلاح الاراضى فهو الجهاد الحق فى الحياة .

يؤكد الجالسون فى بهو القصر قوله دون روية ، ربما استخفافا بمنجزات طلعت حرب الصناعية لأسباب خفية ـ والحقيقة هى ان أراضى عزبة عويس والنواحى المجاورة لها لم تكن فى يوم من الأيام أرضا صحراوية ، لكنها كانت من أجود الاراضى الزراعية التى هجرها الفلاحون فى الفترة ما بين حكم محمد على باشا والخديو اسماعيل بسبب ثقل الضرائب عليهم ، فغطتها الصحراء بطبقة خفيفة من الرمال .

وفى بعض الليالى ينسحب اللواء عويس باشا خلسة من ضيوفه لبرهة بسبب الصداع النصفى الذى يدهمه فجأة فتتكلس وجنتاه وتتصلب عروقه وتجحظ عيناه ، وتعاوده مخاوفه من الموت بالمرض أو برصاصة فلاح مجنون ، فيرمى زوجته الأميرة شويكار رفقى بنظرة غاضبة لتوقف طرحها كالأرض البور ، ويقوم الى حديقة القصر الواسعة وقد اكتسب وجهه لونا أحمر لبياض بشرته الناصع ، ولا تسكن نفسه الا بعد ان يلقى نظرة متأملة على أشجار المانجو والعنب والنخيل ، ويعود اليه ثباته ، ويلحق بضيوفه قائلا لهم فى زهو حقيقى :

ـ الويل للأجير اذا تراخى أو أهمل .

هو لا يتورع عن جلد مزارع أو أجير بنفسه ، فاذا عاود الخطأ

علقه الى شجرة الجميز مصلوبا بالمقلوب وضربه بالسوط حتى يغمى عليه ، ومن يراه وهو يضرب المزارعين فى عزبة عويس يظن أنه يتلذذ بضربهم ، وتروى عنه حكايات كثيرة فى هذا الشأن وان كانت من جانب آخر تبرز أن هذه القسوةليست لسوء طبعأو خبث منبت فمرجعها عشقه للأرض ، ورائحة الخضرة تسكره ، ولحظة تفتح لوز القطن هى لحظة عبادة ، كما انه لا يجد حرجا فى مصارحة علية القوم بمعتقداته مدعيا أن طين عزبة عويس رائحته أنقى من عطور باريس .

وفى جولته المسائية قبل غروب الشمس يترجل عن فرسه الأشهب ويتناول حفنة تراب ويفركها فى راحته قائلا لمن حوله فى خشوع :

ــ كل حى الى التراب يعود .

يؤمن البسطاء على كلامه فى تقوى ، ينسج كبار السن من المزارعين والأجراء فى عزبة عويس عدة أساطير حول تصرفات الباشا وزينوها بمسحة من الايمان لتبرير شذوذها (وقد تكررت حالات الجلد والتعذيب فى السنتين الأخيرتين واتسمت بالوحشية) حتى يستبعد المؤمنون عن معاليه تهمة الالحاد والكفر وكان الأجير بعد جلده مائة جلدة يعرى ذراعه وجانبا من كتفه ويقول مفتخرا :

(جلدنى الباشا بالسوط السودانى حتى تفجر الدم من عروقى) .

وبعدها يتوقف قليلا ليكمل فى ورع قائلا :

(وهنا ظهرت المعجزة · ارتسمت آية قرآنية على ذراعى ، قرأها الباشا فسقط السوط من يده) .

وعند هذا الحد من الرواية يكمل الأجير تعرية كتفه قائلا :

(هنا ، على الدراع اسم الجلالة . على الكتف بقية الآية . جعل لكم الأرض بساطا) .

ثم يضيف الأجير قائلا :

(قرأ الباشا الآية فخاف . ارتدع . تركنى وحالى وهو يقول : سبحان الله . ان الله غفار رحيم) .

ويستكمل الأجير روايته ربما للمرة الألف قائلا :

(حملونى الى الدار . رقدت على بطنى ثلاثة أيام ولم يجرؤ أحد على تطبيب جروحى . الآية القرآنية طهرتها . صمت ثلاثة أيام وقمت بعدها معافى) .

تصل هذه الروايات الى أسماع عويس باشا بواسطة عيونه وحشمه فيقول لمريديه مبتسما لسذاجتهم :

(نويت قتله . لكن رحمته واسعة) .
فالباشا لا يذكر انه راى آية قرآنية مرتسمة على ذراع أجير أو ان الكرباج قد وقع من يده ، واكثر ما يدهشته فى تصرفات الفلاحين دسهم لاسم الجلالة لتسويغ تقاعسهم واهمالهم والاهمال نجاسة ، لكنه تعود عدم مراجعتهم فى معتقداتهم وقد سار على درب والده فى تركهم لخيالاتهم واوهامهم فنصيحة صنف الفلاحين غير مجدية .
عزبة عويس تجاوزت مساحتها حاليا الفين واربعمائة فدان وقد اتسعت طولا وعرضا ، فقد حرص اللواء عويس باشا أن يمتد بهـا شمالا الى الكيت كات وامبابة بعد أن امتد بها والده جنوبا الى سقارة والبدرشين وحتى العياط والواسطى وأن كانت تتداخل معها مساحات صغيرة لبعض الاعيان فى بعض المناطق .
وتوجد لافتة على الطـريق المؤدى الى الأهرامات والذى سـبق للامبراطورة اوجينى عبوره فى أثناء احتفالات قناة السويس مع الخديو اسماعيل فى عهد جده الأميرالاى عويس ، تشير الى العزبة بسهم ، وفى مقدور ركاب ترام ١٤ رؤيتها فى يسر ، وفى الصيف يتجمع تحتها باعة المانجو ويتصايحون : بيض العجل . هندى يا منجة .
القلع والزرع والحصاد هى مشاغل اللواء عويس باشا الى جانب مشاغله فى السراى . ولا يتصور حياته وقد خلت من متعة الزراعة ومراقبة التربة ، لهذا عندما طلب اخوه الأصغر بيع العزبة ، ثار فيه موبخا ، فاذا كانت القاهرة قد دهمها حريق مروع ، فوزارة على ماهر باشا كفيلة بفرض الأمن والنظام .
اختلاف طبائع فرق بين الأخ واخيه فى المشارب والأهواء والتطلعات فلم يجتمعا فى عمل مشترك ولم تجمع بينهما شركة . وقد تقبل كل منهما مسلك الآخر على مضض ، فشق حمدى بك طريقه فى عالم المال بعيدا عن مشاكل الرى والسماد والزراعة التى غرق فيها اللواء عويس باشا . لكن الأشقاء الذين تربط بينهم أواصر الدم ، ليس من السهل عليهم تقبل اختلاف المشارب فى أوقات الخـطر ، فتظل الخـلافات مستورة حتى تأتى ساعة تتفجر فيها وينكشف المستور .
فبعـد السـؤال عن أحـوال السراى والتشكيل الوزارى الجـديد والصحة طلب حمدى بك من اخيه بيع العزبة والأطيان وتحويل قيمتها الى نقود سائلة ووضعها فى بنوك أجنبيـة ـ فأخذ اللـواء عويس كلام اخيه على محمل غير جدى فى البداية ، لكنه عندما وجده جادا وبخه

توبيخا شديدا ، أما الأخ الأصغر فلم يكترث لسبابه واسترسل فى حديثه متحملا اهانات اخيه الاكبر فى صبر وعناد ليصل الى مقصده الحقيقى وهو وضع بقية أموال جدته فاطمة هانم زادة ومجوهراتها بعيداً عن مصر بعد تهريب أول دفعة فى أكتوبر الماضى فور الغاء المعاهدة .

اخذ اللواء عويس باشا بمطلب اخيه المفاجىء واخذ يقلبه فى سره وقد تذكر قول مارجريت سنكلير له قبل وفاتها بأسبوع ان الملك قد هرب مجوهراته وأمواله الى الخارج . وقال لنفسه غاضبا : هاهى السفينة تغرق وأول من يغادرها الفئران ، واحس بالغيظ فالربان لا يغادر السفينة مطلقا بل يغرق معها .

وقال اللواء عويس مخففا من مخاوف أخيه :

ــ وزارة على ماهر باشا قوية وبعدها سوف تشكل وزارة قومية تعيد للبلاد استقرارها بالاتفاق مع الانجليز .

يقوم ويقعد فى مكتبه وقد استغرق فى التفكير فى احوال السراى وقد استفحل نفوذ كريم باشا ثابت والياس باشا أندراوس . واذا كان قد التقى معهما على شيء فهو اقالة وزارة مصطفى النحاس باشا فور الحريق أما فيما عدا ذلك فهو يحتقرهما . وأجابه حمدى بك متجاهلا قوله :

ــ لا عليك . بقية المجوهرات والأموال تضعها فى خزينة فى جنيف وسوف أتكفل أنا بالنقل كما فعلنا فى المرة السابقة .

اللواء عويس منذ فقدانه مارجريت سنكلير واطلاعه على أوراقها الخاصة التى وهبتها له وهو يحس بعدم الرغبة فى الحياة ، وفى بعض الأحيان يتعجل الموت للحاق بها . ولا يحرص فى هذه اللحظات على مناقشة أمور دنيوية زائلة فقد ماتت الشابة محترقة فى عز شبابها وماتت معها أحلامها . وتنتاب اللواء موجة حزن فيصمت ، فيقترب منه حمدى بك هامسا :

ــ جلالته بعث بمجوهراته خارج البلاد !

نظر اليه اللواء عويس فى دهشة وبعدها حلت عليه كآبة طحنت اعصابه فقد قضى عمره فى خدمة جلالته والعمل فى السراى وهو كالزوج آخر من يعلم . وأخذ يضرب كفا بكف متسائلا :

ــ هل أنت متأكد يا أخى ؟!

ويرد حمدى بك عليه فى برود مستفزا أعصابه :
ـ على يدى أنا . أربعة صناديق مليئة بالمجوهرات نقلتها بمعرفتى .
ويهز اللواء عويس باشا رأسه مستسلما كرئيس لأركان حرب خسر معركة حاسمة . ولكنه بدلا من الاستسلام بشرف يسعى للانتحار ، فما فائدة النقود والمجوهرات وكيف له مواجهة الحياة بعدها ـ ما يعذبه انه تخلى عنها طوال يوم السبت الحزين وصباح اليوم التالى وعندما هرول الى المستشفى فى الظهر كانت قد فارقت الحياة . رحلت وهى تعانى من حروقها دون وداع . احساسه بالذنب يؤرقه فقد كان فى مقدوره تحذيرها عندما اندلعت المظاهرات صباح يوم السبت فى العباسية ، لكنه لم يتصل بها فى كلوب محمد على عندما اشتعلت الحرائق فى وسط البلد ونسيها فى غمرة الأحداث وبسبب المأدبة الملكية .
ما فائدة النقود اذا تكدست فى خزائن فى بنك مصر أو فى جنيف ؟! وقال لنفسه : لا شىء يهم !
حمدى بك لم يكن فى يوم ما بالرجل الساذج ، انما هو يعرف اللحظة المناسبة للانقضاض على الفريسة ، وقد انقض على أخيه فى لحظة ساد فيها الارتباك السراى ورجال الملك . لكن رفض أخيه الحاسم اثار فى نفسه الشكوك ، فقد اختار لحظة أخوه فيها عنيد ، وحالته غير طبيعية ، يثور ثم يرتمى فى مقعده كالميت ويسرح بعيدا عنه .

حمدى بك ليس فى مقدوره مطالبة اخيه الأكبر بنصيبه فى ثروة جدته فاطمة هانم زادة ، كما أنه مشغول بتأمين معيشة زوجته شويكار هانم وابنتهما جويدان فكف عن الالحاح وأجل الأمر لفرصة أخرى حتى يتبين سبب رفض أخيه القاطع لنصيحته قائلا لنفسه : هذه أول صفقة فى حياتى أعجز عن اتمامها مع أعز الناس الى .
ورمى حمدى بك نظرة خاطفة على مكتب اخيه فوجد صورة لفتاة جميلة فى برواز صغير ، فغالبه الفضول وقال لنفسه : فتش عن المرأة ؟
لا يضحى عاقل بمصلحة ابنته الوحيدة وزوجته الا فى سبيل امرأة أخرى ، وهاهى صورتها أمامه وقد أعمى حبها قلب أخيه !!

ومن قبيل الشكليات ، وربما لينفض حمدي بك يده من الموضوع، اقترح على أخيه تسوية الأمر مع زوجته الأميرة شويكار هانم .

وهدأ بال اللواء عويس باشا قليلا ، واستراح قلبه من عناء التفكير فى النقود ، فقام الى الصورة ، ورفعها وقربها من أخيه وقال له والدموع تكاد تفر من عينيه :

ــ تصور ! هذه الشابة احترقت فى الحريق !! مؤلفة انجليزية .

اخذت المفاجاة بلب حمدى بك ، فأخوه يتعلق قلبه بفتاة فارقت الحياة وقد فرق بينهما الموت . وادرك أنه قد أحسن صنعا بتأجيل الحديث فى الأمور المالية ، فمهما ساق اليه من مبررات فلن يستمع اليه ، ومع الموت يتوقف المنطق .

انتهت رفيقات الأميرة جويدان من بحثهن حـول الختان وأغاني السبوع فى القاهرة والنواحي القريبة منها ، وتكونت حلقات مناقشة من بقية طالبات القسم اللاتى أسند اليهن موضوعات مشـابهة مثل الختان فى الشرق عبر العصور .

غصت حلقة البحث بالطلبة واساتذة الأقسام الأخرى ، وحمت المناقشات والخلافات بين الأساتذة حول النتائج التى توصلت اليها هذه المجمـوعة من الطـالبات التى ضمت مارتا.وجولى وميلى والاميرة جويدان .

وقد تركزت المناقشات وتفرعت الى قضية خصى الرجال فى الشرق الأوسط وطبقة الأغوات التى انتشرت فى أثناء الحكم العثمانى وتبوأت مناصب مهمة فى الدولة .

واشتبك طلبة أقسام الأنثروبولوجى والاجتماع والتاريخ والعلوم السياسية فى مناقشات عميقة ، وبرزت مناهج مختلفة فى معالجـة القضايا التى أسفرت عنها المناقشات والأوراق المقدمة .

طالبات يعارضن طلبة . واختلف الأساتذة حول سبب انتشـار هذه الظاهرة فى هذه المنطقة من العالم . ومضى كل طالب يبحث فى المراجع وأغانى التراث عن سند يدعمه فى وجهة نظره حتى رجع البعض منهم الى نقوش الفراعنـة التى أوضـحت طقـوس ختـان الصبيان . لكنهم اختلفوا فيما يختص بمعرفة مصر الفرعونية ختان البنات حيث أن هذه العادة قد قدمت الى مصر فى عصور متأخرة من القرن الأفريقى قبل دخول مصر فى الاسلام .

اندلعت الشرارة فى البداية من قسم الدراسات الشعبية لجمـع الأغانى الخاصة بالسبوع ثم تطورت الى دراسة ظاهرة الختان وبعدها تشعبت الى ظاهرة خصى الرجال . ومع اشتعال الحركة الوطنيـة انغمس الطلبة فى البحث عن العوامل الاقتصـادية المؤثرة فى الحيـاة الاجتماعية وربط هذه الظاهرة بنشأة الطبقات التى ارتكزت فى حكمها على الدين مستمدة منه الشرعية . لقد صحب ظاهرة انتشار الأغوات

ظاهرة اخرى هى ظاهرة المبالغة فى اقتناء الجوارى والانغماس فى حياة الفساد .

الواقع السياسى المتغير ينعكس على مشاعر الطلبة والطالبات ويؤثر على طريقة معالجتهم لموضوعات الأبحاث ، الغاء حكومة الوفد لمعاهدة ١٩٣٦ وتوالى الأحداث الساخنة يلهب مشاعرهم ويزيد من حماستهم. لهذا لم يكن غريبا أن تشهد حلقات البحث مناقشات ساخنة يقودها أبناء الطبقة الارستقراطية ذوو الميول السياسية ، وتقع خلافات عميقة بين الطلاب والطالبات .

من بين الوثائق الكثيرة والمقتبسات العجيبة التى توصل اليها الطلبة ظلت الصور التى صورتها جولى البريطانية وشريط الصوت الحى الذى سجلته مارتا الأمريكية لأبيس بفضل الاميرة جويدان لها السبق والمصداقية كشهادة حية على عملية الخصى فى العصر الحديث.

انهمك الاساتذة والطلبة فى تحليل كلمات أبيس وتكريرها بحثا عن العصابات التى كانت تخطف الأطفال وتتاجر فيهم بعد خصيهم وتعليمهم أصول الخدمة فى بيوت الاكابر فى مطلع هذا القرن بعد تحريم تجارة الرقيق .

سرد أبيس قصة اختطافه منذ كان طفلا ، وطريقة تعليمه وتدريبه على الخدمة فى البيوت الراقية فى معسكر كبير ، ثم ما جرى له هو ورفاقه من الصبيان المخطوفين .

طريقة خصيه تشبه تماما ما وصفه كلوت بك وتتفق معها ، وفحص الطلبة والطالبات والأساتذة الصور الحية التى التقطتها جولى له فوجدوها تطابق الوصف الدقيق الذى وضعه كلوت بك لعملية خصى الصبيان فى عهد محمد على باشا فى المنيا وأسيوط فى الأديرة بواسطة الرهبان : يقطعون الاعضاء التناسلية للطفل بالموسى ثم يضعون على الجروح الزيت المغلى ويدفنون الطفل فى الطين لمدة ثلاثة أيام .

والطفل الذى يسعده الحظ وينجو من الموت يغطون له جروحه بطبقة من الجليز اللامع ويضعون له أنبوبا صغيرا فى المثانة للتبول منه. يقطعون له محاشمه كلها من خصيتين وقضيب ، ثم يعتنون بصحته ويعلمونه الخدمة فى القصور والبيوت الراقية والفروسية والعناية بالحريم ويبيعونه لكبار القوم فى مصر .

فى البداية كان التجار يجلبون المماليك من آسيا الصغرى . ومع انهيار الامبراطورية العثمانية ودخول الدول الغربية الى افريقيا

شاعت تجارة العبيد وانتشرت واسندت اليهم اعمال الخدمة المنزلية بدلا من الفروسية .

في أثناء المناقشة ثارت ثائرة الطالب سيد علي ووجه نقدا شديدا للأميرة جويدان حتى بكت وكأنه يحملها مسئولية خصي أبيس والاعتداء على رجولته وسلبه انسانيته .

اغرورقت عيناها بالدموع حتى امتلأتا فانسالت على وجنتيها . وخرجت عن صمتها وقالت بصوت متهدج :

ـ عندما ولدت كان عمر أبيس عشرين عاما ، وليس لى ذنب فيما جرى له .

قال لهالاستاذ منتقدا :

ـ نحن بصدد دراسة ظاهرة اجتماعية اقتصادية وليس حالة فردية .

وربط طالب قادم من وسط افريقيا ظاهرة انتشار العبيد فى مصر بانتشار الاستعمار الانجليزى وسيطرته على السودان ، فالعصابات التى كانت تخطف الأطفال من النوبة وافريقيا هى عصابات الرجل الأبيض ، واستدل فى حديثه بمقتطفات من أقوال ابيس وقد وصف المشرفين على معسكر الاطفال وصفا دقيقا من حيث لون البشرة واللغة وقد تذكر من بينهم اثنين : جورج الذى علمه اللغة الانجليزية وانتونى الذى علمه آداب العمل فى القصور .

استمعت اليه جولى غاضبة وقد أحست بالخجل ، فكل الشرور اصبحت تلقى على الاستعمار ، بينما الاستعمار هو الذى فتح المدارس ونشر التعليم واقام شبكة المواصلات وانشأ شبكات الرى .

هؤلاء الأفارقة لا يرجعون الظواهر الى أصولها الحقيقية ، ويجهدون أنفسهم فى البحث عن تفسيرات ساذجة . فالبائعون لا يشغلون انفسهم بتجارة بائرة ، ولولا تكالب القوم على شراء العبيد ما انتشرت هذه التجارة وذاعت حتى أصبحت تقام لها معسكرات وتتخصص فيها عصابات .

حلقة ساخنة مثيرة من حلقات البحث ، اختلفت فيها الآراء ، وتشعبت فيها الأقوال ، ووزعت فيها ادانات ، وطوفت فيها الأمانى بعالم أفضل وحياة مثالية فضلت ، وهفهفت قلوب غضة محلقة فى سماوات الفكر الرحبة ، فأحست بسعادة . تلاقت نظرات الدارسين والأساتذة وقد أشاد الجميع بالجهود التى بذلتها مجموعة الطالبات التى تضم الأميرة جويدان ابنة اللواء عويس .

وقبل انتهاء الحلقة بأيام لفت استاذ امريكي نظر الطلبة الى ضرورة دراسة حالة ابيس من الناحية النفسية وفقا لمنهج علم النفس التحليلي باعتباره حالة نادرة من بقايا العصور الوسطى لمعرفة أحاسيسه نحو النساء والرجال وطبيعة مشاعره الجنسية وتكوينه النفسي .

اوضح لهم الأستاذ ان هذه الحالة لا يمكن ادراجها تحت مظلة الشذوذ الجنسي وان كان من المحتمل ان يصاب الخصيان بالشذوذ.

واقترح عليهم ضرورة متابعة هذه الحالة النادرة والاستعانة باستاذ متخصص من الولايات المتحدة وتصميم استمارات استبيان وتحليل لقياس مدى الحاجة الجنسية لدى هؤلاء الأغوات ، ومعرفة طرق اشباع هذه الحاجة خاصة أن هرمونات الذكورة افرازها ليس مقتصرا على الخصيتين وحدهما .

وبعدها وجه عدة أسئلة دقيقة الى جولى ومارتا عن طبيعة علاقاتهما بابيس ، وكيفية تسجيلهما لتاريخ حياته ، وكيف حصلا على هذه الصور الدقيقة ــ استدرجهن فى الحديث من الاسئلة العامة البسيطة الى الاسئلة الخاصة المركبة حتى عراهن تماما أمام جموع الطلبة والطالبات والأساتذة .

فى العد الرابع من عمره ، يجلس هادئا ، وشعره الأبيض ونظارته السميكة يكسبانه وقارا وكأنه فى الستين من عمره ، يلقى بأسئلته فى نبرة واحدة ولا يلونها بانفعالات ولا يفصح عن رأيه ، ولا يرفع عينيه عن المنصة ولا ينظر فى أعينهن ، واذا انتهت واحدة من قول ما فى جعبتها لم يعلق ولم يناقش ولم يظهر اعجابه أو امتعاضه ، لكنه يهز رأسه قائلا : نعم . نعم . عدة مرات ، ثم يلقى بسؤاله .

الأستاذ ماكلين من كبار أساتذة علم المناهج وله مؤلفات مرموقة فى مناهج علم النفس التحليلى ، وقد تركزت أسئلته فى البداية على معرفة السبل والأدوات التى اتبعنها فى البحث مثل عدد المرات التى استغرقها تسجيل هذه الاعترافات والفترة الزمنية فى كل مرة ، وطلب وصف موضع التسجيل وظروف ابيس وهل كان يقف فى خدمتهن ، وهل تم التسجيل فى حضرة الأميرة جويدان أو فى غيبتها ، وهل وقعت ضغوط منها عليه ليفضى بمكنون قلبه ، وكيفية وقوفه أمام الكاميرا ، وما نوعية الأحاديث التى كانت تدور بينهن وبينه قبل التصوير ، وعما اذا كان فى الأمر حيلة أو خدعة .

انطلقت الاسئلة وقد استبد الفضول بالحاضرين لمعرفة الاجابات، وكانت كل منهن تدلى بقولها ، مارتا الامريكية وجولى البريطانية وميلى

الاسبانية والأميرة جويدان ، فتضيف شيئا الى الصورة . قالت مارتا انها كانت تأخذه فى حضنها على الكنبة وتقيده بالحبال بمساعدة ميلى وتفك ازاره وتأخذ ساقه بين فخذيها حتى تنتهى جولى من تصويره .

واعترفت ميلى انهن كن يشربن الشمبانيا بكثرة قبل تصويره وانهن كن يتعمدن سقيه قدرا كبيرا من الكحوليات لفك عقدة لسانه . وقالت جولى انها كانت تقبله فى فمه وانه كان يقترب منها ويلتصق بها ويضغط على صدرها بقوة ، وفى مرات كان يضع يده على أردافها ويحاول أن يمد يده بين فخذيها فتمنعه فى رقة ، وأنها كانت لا تحس بالخوف منه أو الخجل فهو كما نعرف ...

كانت جولى تتحدث معتزة بشجاعتها ، فرحة بصراحتها ، قادرة على مواجهة الآخرين ، وصدرها البارز فيه انوثة فائرة ، فخورة ببحثها وتعقيداته . والقى الاستاذ ماكلين بسؤاله الأخير لجولى مستخدما كلماتها ، قائلا :

ـ هل تقبلين الفتيات عادة فى فمهن وتسمحين لهن بوضع ايديهن على أردافك والضغط بشدة على صدرك ؟!

تلعثمت جولى فى جلستها ، وساد الغرفة صمت رهيب ، وضاعت نظراتها وهى تحدق فى القمطر ، قال لها الاستاذ ماكلين :

ـ من حقك رفض الاجابة على هذا السؤال .

فتحت فمها وقالت كلمة واحدة :

ـ نعم .

وقامت مغادرة الغرفة فى خطوات متخاذلة . وقرب الباب ، رفعت راسها قائلة فى غضب :

ـ نعم . انني كما تعتقد .

كانت المسافة قريبة بين الباب والمنصة . وانتظر الأستاذ ماكلين حتى غادرت الغرفة واقفلت الباب ، فرفع راسه متوجها الى الآنسة مارتا بحديثه قائلا :

ـ هل سبق لك تقييد رجل بالحبال واجباره على خلع ملابسه ؟!

قالت الفتاة وهى تغض بصرها :

ـ كلا .

وبعدها استطردت قائلة :

ـ لكن صديقا لى فى صباى كان يقيدنى بالحبال ويضربنى ، ولكننا كنا لا نخلع ملابسنا . شقاوة .

فابتسم الاستاذ ماكلين ضاحكا ضحكة هادئة ورزينة ثم قال :
وبعدها سأل :
ـ كيف تنظـــرين الى أبيس ؟ أعنى هــل هو أنثى أو رجل ناقص الرجولة ؟!
أجابت مارتا قائلة :
ـ أبيس فى زيه الكامل رجل وسيم ، بل شديد الوسامة ، لكنه عندما يتجرد من ملابسه أعامله كطفل مشاكس .
وسأل الاستاذ ماكلين :
ـ هل تعتقـــدين أن أبيس يقبل خلع ملابســه فى غيبــة الأميرة جويدان ؟! .
قالت الفتاة فى عفوية :
ـ أعتقد انه يحب جولى ، وقد ذهب اليها فصورته عاريا . . .
ندمت مارتا ، وتأسفت لحــديثها عن جــولى ، وطلبت نسـيان ما صرحت به .
وقالت بغضب موجهة الحديث الى الاستاذ ماكلين :
ـ هذه أسئلة شخصية وكاننا فى جلسة تحليل نفسى .
فقال الاستاذ ماكلين معلقا :
ـ نعم ، ربما تبدو كذلك . ولكن اذا كان علماء علم الحيوان قد وضعوا قيودا صارمة على التجارب التى تجرى على الحيوانات ، حتى لا تتحول الى مذابح لا مبرر لها ، فالأجدر بنا فى العلوم الانسانية ان نراعى أبسط القواعد ، وهذه أمور تتعلق بالمنهج .
بعد مغادرة جولى القاعة أحســت الأميرة جويدان بالخــوف من توجيه أسئلة محرجة لها ، وقد أحست من تلميحات الطلبة والطالبات انها متهمة بخصى أبيس . لكنها رسمت ابتسامة على وجههــا ومسحت دموعها ، وتماسكت فى جلستها ، وفضلت الصمت .
ميلى باندفاعها الأهوج زادت الطين بلة ، فتوجهت الى الاستاذ ماكلين قائلة :
ـ اذا كانت شروط التجربة لم تتحقق بطريقة علمية ، يظل لنا فضل البحث والاكتشاف ومحاولة التوثيق .
فقال الاستاذ ماكلين فى برود :
ـ اعتقد أن هذه التسجيلات قد تمت فى ظل عاملين أساسـيين يخرجان بها من مجال الدراسات العلمية الى مجالات أخرى ، ولنقل الى مجال التحقيقات الصحافية الخفيفة ، العامل الاول هو الاكراه ، وذلك نتيجة منطقية لعلاقة الملكية التى تربط العبد بصاحبه ، والعــامل

الثانى ، وهو أشد خطورة ، هو عامل الاباحية ألتى جرت في ظله التسجيلات ، فقد جرت التجربة فى جو من الاباحية يفقدها الاحترام، فالتسجيلات التي تحصل عليها أجهزة الأمن القذرة ، لا يعتد بها فى دور العلم المحترمة .

قامت ميلي محتجة على قول الاستاذ وتلميحاته ، وسجلت اعتراضها على استخدامه لكلمة اباحية ، واستمع اليها الاستاذ ماكلين حتى انتهت من قولها ، ثم أجاب معلقا :

ـ أربع فتيات يغتصبن رجلا ناقص الرجولة ، تارة بالترهيب وتارة بالترغيب ـ هذه جريمة يعاقب القانون عليها .

لم تحتمل أعصاب الأميرة جويدان اهانات الاستاذ ماكلين القاسية ، فها هو يتهمها هي وزميلاتها بالفحش ، واين ؟ فى قصر والدها اللواء عويس ، واذا كان جلد والدها لابن السقا قد أساء اليها واتلف أعصابها ، فها هى توجه اهانات قاسية لها ، سخر والدها منها عندما أخبرته بأنها تود تسجيل اغان شعبية للفلاحين ، وحذرها من هذه الدعوات المشبوهة التى تسعى لتقويض أركان المجتمع ، ولم تقتنع برأيه ودعت زميلاتها الى العزبة ، وقدمت لهن أبيس وعكاشة المفنواتى ، وها هى النتيجة ، عراهن الاستاذ ماكلين ، وهربت رفيقتها جولى من الحلقة مذعورة وقد اعترفت بشذوذها ، ومارتا لا يضيرها التصريح بعلاقاتها مع الرجال ، وميلى تفخر بتجاربها المثيرة مع الفرسان أقوياء البنية ، فلا ينالها الا فارس حقيقى على ظهر حصان جامح ، كل منهن لها نزواتها ، أما هى فدورها الوحيد دور القوادة ..

هربت جولى من القاعة كجرذة خائفة ، فانفتحت أمامها طاقة على الجحيم ، وتبينت لها حقائق كانت خافية عنها ، وازيلت عن عينيها غشاوة ، وانكشف لها سر العلاقة الحميمة التى ربطت بين أمها الأميرة شويكار ورفيقتها جولى ، تتلاقيان كعاشقين ، تتلامسان ، قبلاتهما حارة ، تتهامسان سرا ، عالمها يتهاوى قطعة قطعة : احترقت القاهرة ، فأصابها الحريق فى مقتل بعد اصابة والدها بأزمة قلبية خفيفة ، وقد هده القنوط ، وملك البلاد ساءت سمعته ، وها هى توصف بأنها ...

ووسط اللهيب المشتعل فى داخلها ، وهى جالسة الى القمطر والعيون تلاحقها ، قالت للأستاذ ماكلين :

ـ سحبت أوراق البحث ...

وقامت مغادرة القاعة ، مفجرة ازمة بين جموع الطلبة والأستاذ ماكلين بسبب قسوته فى توجيه الاسئلة المحرجة ...

شالت الأرض عكاشة وحطته ، حتى وجد نفسه في مدينة الاسماعيلية مفنيا وبائعا البرتقال لعساكر الانجليز على مقربة من القنال ــ جاء الى هنا بعد رحلة وعرة في ظل الأحكام العرفية ومطاردة المخبرين له ، لكنه في غمار عمليات البيع والشراء نسى عزمه .

يعابثونه ، ويغالطهم في الحساب ، ومزاحهم ثقيل ثقيل في بعض الأحيان حيث يضعون فوهة البندقية في صدره . وفي مرات ينطلقون بالسيارات كالمجانين ، وتكون هذه كبسة لتمشيط حي أو عزبة من الفدائيين . هكذا تعلم عكاشة تعبيرات الحرب والكر والفر من أبناء الاسماعيلية ، واصبح في مقدوره التمييز بين طلعات الفسحة وعمليات الدورية العادية وبين العمليات الحربية التي تهجم فيها قوات الانجليز على العزب .

وقفته على مقربة من السلك الشائك الذى يحيط بمحطة الكهرباء على شط القنال علمته أشياء كثيرة ، صقلت مواهبه المتفتحة للحياة وبددت ذلك الركود الكئيب الذى يحط عليه في عزبة عويس وهو يرمح خلف العمدة وقد فرض عليه خدمة زوجته ستهم وغسل قدميها كل ليلة من الجرب .

عساكر الانجليز يفضلون البرتقال أبو سرة أو البلدى الحادق عن غيره من أنواع البرتقال . فاذا دس لهم بينه البرتقال السكرى أعادوه اليه غاضبين قائلين :

ــ عكاشة حمار ! سكر نو !

ينزع قشرة البرتقالة بأسنانه ويأكلها ربعا ربعا وعصيرها يغطى يديه . وبجانب فمه يقول مبتسما :

(جون . جون . برتقال سكرى عسل)

وفي مرات يمد يده بربع برتقالة ذائبة في قبضة يده الملوثة بالتراب الى عسكرى ، فيرفضها بأدب ، فاذا ألح عليه ، قربها منه الى الدرجة التي تلوث ملابسه ، زجره بشدة ، ودفعه بعيدا عنه بكعب البندقية ، قائلا :

ـ عكاشة حمار !
فيزقها فى فمه سعيدا قائلا :
ـ حمار حمار !

يومه يقضيه فى مساومات بائعا للبرتقال ، ومشتريا لعلب البلوبيف والتونة والسردين والشاى والسكر . عيناه على العساكر والضباط فى أثناء خروجهم من المحطة ودخولهم اليها ، فى اليوم الأول له ، كان يسميهم كلهم : جون . خد جون ، هات جون ، نو . جون . ووجد الاسم سهلا ولطيفا ويذكره بجولى وهى تراقص أبيس فى قصر الأميرة جويدان . وقال لنفسه هذا الاسم يقابل اسم فتحى عند أولاد العرب . هكذا : جون تعنى فتحى ، وجولى تعنى فتحية . ومع منتصف النهار رأى أن يميز بينهم . وعلى الرغم أن وجوههم بيضاء وعيونهم زرقاء فانه وجد اختلافا فى ملابسهم ، بعضهم تميزه شرائط ، فبدأ يفرق بين العسكرى والعريف .

من حين الى آخر ينطلق صوته مجردا : « اللى بنى مصر كان فى الأصل حلوانى . » وبعدها يقول لنفسه معاتبا :

خيبك الله يا عكاشة ، بعت الجبة والقفطان وجئت لتحارب الانجليز وتطردهم من القنال ، فتقف طوال النهار تبيع لهم البرتقال وتشترى منهم المعلبات !!

لكن هؤلاء العساكر الذين يحادثهم ظرفاء وليسوا مثل أولئك الذين ينوى محاربتهم ، ويطمئن نفسه قائلا : أصابع اليد ليست واحدة ، والانجليز فيهم الصالح وفيهم الطالح . وهو يستعد لمحاربة الملاعين الذين آحرقوا القاهرة وهجموا على محافظة الاسماعيلية وقتلوا العساكر الغلابة ، ومهمته أن يفرق بين أولاد الناس الطيبين وبين الملاعين أولاد الحرام .

فى الصباح يعطى للشمس ظهره ، ويتابع الخارجين من باب المحطة ، اذا كانوا فرادى يلوح لهم بيده ، أما اذا كانوا جماعة ، انزوى يقلب فى حبات البرتقال ، يرقبهم من تحت الى تحت ، تندفع بهم عربات الجيب مثل المجانين ، فى أيديهم أسلحتهم ، وعلى رءوسهم خوذات الحرب .

وفى الظهيرة ، عندما تتعامد الشمس وتحمى وتبدأ فى مضايقة عينيه الجاحظتين الواسعتين ، يدير العربة ويعطى للشمس ظهره ، يدعك عينيه ، ويغسلهما بماء القلة ، وينشفهما بفوطة نظيفة يضعها

دائما داخل عربة اليد فى السحارة ، ويلف راسه بشال رخيص تحت الطاقية المحلاوى ويترك أطرافه تتهدل على جبهته لتحميها من ضوء الشمس ، وفى وقفته بعد الظهر يرقب القادمين الى المحطة عند دخولهم . دون ساعة يد فى معصمه يحدد مواعيد قدومهم وفقا لحركة الشمس وظل المبنى المتحرك على الأرض ، وآذان الجامع القريب ، وخروج التلامذة من مدارسهم .

قبل الظهيرة يمتع بصره برؤية الخارجين من المحطة ومراقبة بوابة الخروج . وبعد الظهر يراقب بوابة الدخول للاطمئنان على قدوم أصحابه من العساكر والضباط .

ليس خائفا منهم . واذا استلطف واحدا منهم ، سأل عن جولى ، قائلا :

ـ جولى صديقتى !

ويرسم لها بيديه صورة فى الهواء تبرز صدرها الناهد وردفيها ، فيضحكون منه ، يسألونه ، فيجيب :

(فى مصر .)

يبيع البرتقال فى الاسماعيلية ويجمع علب البلوبيف ، ويحب جولى فى القاهرة . عاشق متيم بها . وينطلق صوته باغانى الصبابة والغرام، فيضحكون منه فى سخرية . يغنى لهم ويرقص ، يربط وسطه بحزام ويهز ردفيه كراقصة ، يدور عدة دورات ثم يتوقف وينطلق صوته مدويا :

يا وابور الساعة اتناشر
يا مقبل عا لصعيد
سلم لى عا لحبايب
ومحمد ولدى
يا جريد النخل العالى
طاطى ورد السلام
سلم لى عا لحبايب
يا غايب لك زمان

صوته قوى ، ورعشاته غنية . يضع يده على خده الأيمن ، ويميل براسه وعيناه على المحطة التى تهز جدرانها غناؤه . ساعات صفو . ويظل يغنى حتى يتجمع حوله عديد من المصريين والعساكر ، يحيطون بعربته ، فيزجره صاحب الشرائط الثلاثة ويطرد المصريين ويفرقهم عن محطة الكهرباء .

عكاشة لم يعد الفلاح عكاشة ، أصبح المعلم عكاشة بائع البرتقال لعساكر الانجليز وصاحب تجارة فى الشاى والسكر ، ويأتيه المزارعون من العزب والقرى البعيدة بحثا عن كيلو سكر أو باكو شاى . يسعون اليه ، ويتوددون له من أجل الحصول على سلع شحت فى الأسواق .

اذا كان الانجليز كلهم جون ، ففى كل مدينة وقرية وعزبة عباس ابو حميدة : غنى فى الأسواق ورحل متعلقا بعربات نقل ، عطش وجاع ، شرب وارتوى ، أكل وشبع ، التقى بمئات من الناس ، سخر منه ناس ، ورحب به ناس ، استمع اليه ناس ، ورحب به واحد من الأعيان ، قال له تعمل معنا فى بيع البرتقال ، وتسعة أعشار الرزق فى التجارة ، زوده بالعربة ، وفطنه الى موقعه الجديد ، واختفى ، لم يره ثانية ، وقدم عليه ثان وطلب منه شراء الشاى والسكر من العساكر ، واختفى ، وقدم عليه ثالث وتحدث اليه فى ضرورة مراقبة عربة جيش لاندروفر رقمها ١١٣ ، يضع عينيه وسط راسه عندما تدخل الى المحطة وفور مغادرتها من الباب الآخر .

قال عكاشة لنفسه ضاحكا :

ـ هذه عصابة . ناس مجدع .

واحد منهم اسمه محمد ، الخالق الناطق عباس أبو حميدة ، يحنو عليه ، يلاغيه ، يستمع اليه ، يشجعه على الفضفضة ، فيروى له جروح قلبه وعذاباته فى عزبة عويس وكى ستهم له على كعبه ، وجلد اللواء عويس لكرامة ولد السقا ، وتهديد مارتا الأمريكية له بجب محاشمه بالموسى مثل أبيس ، فيقول له عم محمد ، وهو يمط الكلمات مثل عباس أبو حميدة :

ـ كلهم كفرة ، والظلم بدايته هنا فى القنال وفارش حتى عزبة عويس .

ـ اعمل لك خميرة مالية ، وارسل نقودا للجماعة فى عزبة عويس .

يدور عكاشة الكلام فى راسه ويجد له معنى . يحاسبه الرجل فى سخاء ظاهر ولا يضيق عليه ، يقول له فى محبة :

وبعدها يساله عن تحركات العربة رقم ١١٣ همسا على انفراد ، فيجيبه عكاشة بدقة عن تحركات العساكر والضباط ومواعيد مغادرتهم للمحطة ومواعيد قدومهم الى المحطة .

يخاطبه عكاشة وفى عقل باله انه يخاطب عباس أبو حميدة . ساله عم محمد ان كان قد ربى صداقات مع الانجليز ، فقال له عكاشة :

ـ نعم . مع جون . لما اغنى يصفر لي بفمه ويخرج الهواء من بين اسنانه ويلونه ، ولا مزمار كامل الأوصاف !

ساله عم محمد مستفسرا :

ـ عنده شريطة .

اجابه عكاشة قائلا :

ـ أربع شرائط على كتفه .

هز عم محمد راسه ومال بها الى الخلف مثل عباس أبو حميدة ، ومد يده وشد الشعيرات السوداء الخفيفة الظاهرة تحت عمته وسواها ، وسرح بعيدا ، وبعدها قال له :

ـ يا اخى اذا كان صاحبك ، اعرف اسمه .

قال عكاشة لنفسه : المعرفة واجبة . لكنهم يلتفون حول العربة ، يخاطبون بعضهم بعضا قائلين :

ـ خذ جون . تعال جون . هات جون .

عم محمد معه الحق كله ، اذا كان صاحبى ، يدلنى على أسمه ، الذى سماه به أبوه وأمه ! المسلمون ليسوا كلهم أسمهم محمد ، فيهم ايضا محمدين وابراهيم وخليل وعكاشة ، فهل كل الناس فى المحطة اسمهم جون ؟!

هؤلاء ملاعين !

بدأ عكاشة يتبين خديعتهم له قائلا لنفسه : « هىء ، كلهم جون ، هذا ملعوب . »

أول أمس فى العشية ، فى عزبة ... دعاه عم محمد للعشاء مع مجموعة من المزارعين والأفنديات ، كان بينهم رجل يداه محروقتان وقد أصابته شظايا نارية فى أجزاء عديدة من جسده ، خاطبه عكاشة فيضحكون منه ، يسالونه ، فيجيب :

وعرف قصته . قال له الرجل :

ـ أصبت فى معركة الاسماعيلية ، حاصرت الدبابات مبنى المحافظة فى الفجرية ، وكان يوم جمعة والدنيا اجازة ، سمع اليوزباشى مصطفى رفعت بالخبر ، جاء جريا الينا ، كنت اقف فى شرفة الدور الثانى ، ورايت الجنرال اكسهام يتحدث اليه ، لم أسمع شيئا طبعا ، وبعدها دخل اليوزباشى مصطفى رفعت المبنى ، وعقد اجتماعا سريعا مع الملازمين والأمباشية ، وعرفنا اننا سوف نحارب بعد ساعة قوات الانجليز .

عكاشة يصغى اليه مبهورا ، ويساله المزيد ، قائلا :

ـ هه ، وبعد ..
وقال له الرجل المصاب :
ـ ضربونا وضربناهم ، نار جهنم ، منا الذى استشهد والذى جرح ، ولم نتوقف حتى خلصت الذخيرة . صعبت على نفسى !! هربت ، رفضت الأسر .
تحت عشة من الخوص خلف الدار ، انفرد شاب يشبه عوض الخالق الناطق بعكاشة ، وعرض عليه ضرورة الثأر من الانجليز ، وعين بعين وسن بسن ، قال له عكاشة حزينا لقلة حيلته :
ـ يا ريت !! يدى على يدك .
قال له الشاب المدرب :
ـ عندى خطة ، مضمونة مائة فى المائة .
لمعت عينا عكاشة من الفرحة ، ابتسم له موافقا ، استمع اليه ولم ينطق ، احتفظ بسره لنفسه ، ولم يطلعه على سبب مجيئه الى الاسماعيلية ، وهو لم يحضر الا لهذا الغرض ، تعلم منهم الصمت وعدم الثرثرة ، لا يسأل احدا عن اسمه أو مهنته أو صنعته أو محل مولده ، عكاشة ليس أهبل ، احتفظ بوهج العشق لستهم فى قلبه عدة سنوات ، ولم يصارحها برأيه فى حضرة العمدة حمادة أبو جبل ، يحلم بملمس قميصها الساتان الوردى ، ويجلس أمامها صامتا ، يفضل الغناء فى وحدته صبا ، ولا يضع أصبعه تحت ضرسها ، تكويه بالملعقة الساخنة على كعبيه ، ولا تفتر حماسته لها ولا يقل اعجابه بها ، عرضت عليه الزواج من أم حبيبة ، فوافق ، سار خلفها ، اذا ربطته فى ساقية وافق ، ركبته ، تزوج من قريبتها أم حبيبة ، ليكون على مقربة منها ، قالت له :
ـ أصبحنا نسايب يا عكاشة .
قال لها وعيناه تضحكان :
ـ العين لا تعلو على الحاجب !
صنف الرجال غلابة ، وهو أول الغلابة ، ضحكت له مارتا ، أرسلت له قبلاتها فى الهواء ، وقرب الفجر ، هددته بقطع محاشمه ، والله ، هذه ليست حرمة لكنها جزار أمريكانى ، تاخذ ابيس فى حضنها ، وتفتح له فخذيه كالذبيحة ، هرب منها الى حضن زوجته أم حبيبة ، لمته فى جسدها وغطته بدهنها واغرقته فى عسلها ، قالت له :
ـ يا رجلى !

به حنين الى أم حبيبة ، لكنه كره العزبة ، ولا يود العودة اليها ،
وقال عكاشة للشاب المتعلم من قلبه :
ـ محسوبك وخدامك ورقبتي على كفي .
العشة سابحة في عتمة خفيفة ، والظلال تتراقص حوله ، وذبالة اللمبة الجاز تلعب بها رياح الشتاء . نقود كثيرة في جيبه ، وقلبه مفعم بالحماسة للثأر من الانجليز ، وصاحبه يشوقه ، ولا يفصح له، يختبره ، وعكاشة يقول له مطمئنا :
ـ يا صاحبى أنا تحت أمرك .
قال له الشاب مثيرا حميته :
ـ عساكر الانجليز قتلت نســـاء وأطفـالا وشـيوخا وهدت عزبا وكفورا .
قال عكاشة غاضبا :
ـ الثأر .
قال الشاب له :
ـ نهدم المحطة على من فيها من انجليز . نمنع عنهم الـكهرباء ونعطل لهم محطة اللاسلكى .
قال عكاشة موافقا :
ـ واجب .
عكاشة كان في البداية يظن أن الثأر معناه أن يرقد في الذرة أو على الطريق ويطلق النار على واحد منهم ويهرب ـ أما أن يهدم محطة تحيطها أسلاك شائكة وأكياس رمل وتلفها خنادق من جميع الجهات ، فهذا حلم ، كيف ؟!
قال الشاب :
ـ الخطة جاهزة .
قال عكاشة في عفوية :
ـ اعطها لي .
ظن عكاشة في البداية أن الخطة بندقية ، يمسكها ، ويطلق منها النار ، فتتهدم المحطة . ومع ابتسامة محدثه ، تبين عكاشة خطأه وندم لتسرعه واندفاعه ، وأيقن أن الخطة خطة ، يسهم فيها صياد ، له ظهر يحميه ، وطرطق أذنيه مستمعا ، متلهفا .
شرح له الشاب الأمر في بساطة . قنبلة موقوتة سوف توضع في عربة البرتقال ، وفي الساعة الثانية عند عودة العساكر ، يبتعد عكاشة

عن العربة ، فتنفجر القنبلة وتقضى على الجميع وتهدم المحطة ، ووسط الهرج تحمل سيارة عكاشة وتبتعد به عن الاسماعيلية .

استمع عكاشة له صامتا وهو يتامل الموقع فى ذاكرته ، ويحيط بتفاصيله ، المبنى الى يمينه ، وقرب نهاية المحطة ، ميدان صغير يقف فيه عسكرى مرور ، واذا انفجرت القنبلة ، ضاع العسكرى . وقال لرفيقه :

ــ أنا غير موافق !

نظر الشاب اليه فى دهشة وقد ضايقته نبرة عكاشة ، وسأله عن السبب ، فأجابه عكاشة قائلا :

ــ الأمباشى عزوز سوف يضيع !!

ضحك الشاب طويلا واعجب بفطنته ، وقال له مطمئنا :

ــ الأمباشى عزوز معنا .

اطمأن قلب عكاشة ، وقال :

ــ خلاص . موافق !

شرح له الشاب التفاصيل خطوة خطوة كحكاية مسلية مثيرة ، سوف يدق جرس المدرسة عدة دقات ، فياتى اليه واحد من المعلمين ويطلب منه عدم بيع البرتقال لعساكر الانجليز ، يتشاجران بصوت عال ، وعندما يضربه المعلم على وجهه ضربة قوية يجرى عكاشة خلفه باقصى سرعة ، حيث مكان السيارة .

وسأل عكاشة قائلا :

ــ والأمباشى عزوز ؟!

قال الشاب مطمئنا :

ــ سوف يترك الاشارة فور أن تدق اجراس المدرسة .

أكد عليه الشاب قائلا :

ــ يضربك . تجرى خلفه باقصى سرعة .

وبعدها طلب منه أن يقسم على المصحف عهدا وامانة ، فاقسم له عكاشة راضيا .

بات عكاشة ليلته سعيدا فرحا . هذه خطة ، وله دور فيها . سوف يثأر من الانجليز ومن اللواء عويس ومن الأميرة جويدان وجولى ومارتا والعمدة وستهم وابو جعفر شيخ الغفر .

اين انت يا أبيس لترى بنفسك ونحن نثأر من الذين قطعوا محاشمك بالموسى وخصوك ؟ خطفوك يا ولدى وانت عيل ، وباعوك عينى عينك لحضرة البكباشى على محمد باشا الأعرج .

صباح ليس ككل صباح . يدور حول عربة البرتقال مغنيا وواضعا يده على خده ، ومانعا الزباين من التقليب أو التنقية . عيناه على المحطة والأمباشي عزوز ، واذناه على جرس المدرسة ، ولسانه مداعب للعساكر الانجليز قائلا فى شماتة :

ـ أهلا جون !

وبعدها يكمل فى سره قائلا :

ـ خرجتك الليلة باذن الله !

الشمس خلفه . وكلما ارتفعت فى طريقها الى وسط السماء ، يصفق فرحا ، الطريق ساكن وقد قطع الملاعين الرجل منه ، والقنبلة جاهزة تحت البرتقال وسوف تفجرها ساعة موقوتة ، علم ، علم . اذا كتبت له النجاة فسوف يرسل لأم حبيبة لتلحق به ويهربا معا الى البرارى فى الملاحات ؛ وسوف يقابله عباس أبو حميدة ويرمى راسه يزيح طاقيته الى الخلف ويعوجها قائلا :

ـ رفعت راسنا وشرفت عزبة عويس !.

صورته سوف تظهر فى الصحف ، وربما يسعى اللواء عويس لاستقباله ، وحمادة أبو جبل سوف يخاف منه ، وسوف تتودد له ستهم ، ويقول لها :

ـ ثأرت من الانجليز الملاعين .

وبعدها يرفض أن ينحنى أمامها كالكلب ويرفض غسل قدميها ، واذا حصل على قطعة أرض زرعها وكف عن الدوران فى الكفور للغناء وحراسة الحيوانات الهائجة فى الأسواق وازالة الكالو من أقدام الفلاحين بالموسى .

قال سرحان السقا قبل هروبه : عليه العوض !! هرب من العزبة عاريا ، جن ولم يجد من يداوى جنونه ،لكن صاحب العوض سوف يعوضه اليوم ويلهمه الصبر ، لما يصور المصورون المحطة وقد تهدمت على رؤوسهم ورؤوس ضباطهم الذين يركبون العربات . ولا ياكلون البرتقال ويرفضون تحيته لهم ، ومتعجرفون ومتكبرون مثل اللواء عويس وكأنهم كلهم الجنرال أرسكين والجنرال أكسهام ، عساكر الانجليز كلهم : جون ، أما الضباط فكلهم أرسكين واكسهام ــ قال واحد منهم فى العشة أول أمس :

ـ كل الأغنياء محاسيب الملك واللواء عويس حطها حلقة فى اذنك .

اجابه عكاشة مؤيدا :

ـ ونسوانهم الأميرة شويكار .

فقال آخر ساخرا :
ـ وكله عند العرب صابون .
اقبل عليه مزارع على كتفه قفة ، اخرج له جنيها ، وطلب منه علبة شاى ليبتون ، انحنى عكاشة على باطن العربة من تحت ليخرجها له ، همس له الرجل بصوت خفيض قائلا :
ـ الخطة كما هى ، ضع عينيك وسط راسك ، لست وحدك .
اجاب عكاشة بالفناء قائلا :
عيناى وسط راسى وقلبى اسد
وما يخلف الوعد
الا ابن الحرام
ونهايتك على يدى
يا جنرال اكسهام
وبعدها رقص عكاشة مغنيا :
ســودة وعاجبانى عيون حبــايبى يا ناس
يابو مقام عالى يا مرسى يا ابو العبــاس
قال له الرجل وهو يضع علبة الشاى فى القفة :
ـ اتفقنا .
وسار فى طريقه دون ان يرفع راسه الى المحطة واختفى .
مضى الوقت ثقيلا على عكاشة ، يتلهف على دقات جرس المدرسة، ويقفز حول العربة فرحا . ولما وقفت الشمس فوق راسه ادار العربة ومسح عينيه بالفوطة ورفع جلابيته الواسعة وربطها حول وســطه بحزام وخلع المركوب ووضعه فى باطن العربة وحرر قدميه . قال له الشاب : تجرى خلفه باقصى سرعة . فأجابه قائلا : حمامة .
الدنيا زهزهت وفاحت رائحــة البرتقــال ، وتنسم عكاشة عبير القنال ، وغرق فى ضوء ساطع وسال عرق الفرحة على جبهته واســتقر على ثنيات رقبته الغليظة وحول قفاه .
بدات طلائع عودة عربات الانجليز المحملة بالجنود والضباط . فرشوا المكان وتجمعوا حول عربة البرتقال وحول البوابات ، وعكاشة يداعبهم بقوله :
ـ جون . هاى !
انغمس عكاشة فى عمليات بيع البرتقال وقد طرح عنه جانبا فكرة الموت . عندما يقف اليهم ويحادثهم ويستمع الى رطانتهم ، تفارقه

كراهيته لهم ، ويخف نفوره منهم ويراهم أناسا من لحم ودم ، ولا يصدق ان أولئك الذين يقفون الى جواره ينتمون الى صنف الملاعين.

خاين يا زماني وديت حبايبي فين ، أين أم حبيبة في هذه اللحظة لتشهد ؟! هه ، أزف الوقت وحلت الساعة ، دارت الدنيا به . زاد عدد الجنود الذين يسيرون بالقرب من المحطة .

اقبل نحوه اثنان من المعلمين ، احدهما تابع طريقه والآخر توقف الى جواره ، حادثه بصوت مسموع :

ـ يابني بطل بيع لعساكر الانجليز .

قال له عكاشة وهو يهز وسطه فرحا :

ـ أصحابي .

دار النقاش بينهما في البداية بطيئا ، ثم علت أصواتهما ، عكاشة يغالب الضحك بصعوبة ، ورفيقه جاد في غضبه أشد ما تكون الجدية الى درجة أفزعت عكاشة خشية أن لا يكون رفيقه الحقيقي ، فغضب هذا الرجل ينذر بالشر ، وربما يفسد الخطة ويتطاول عليه بسكين او طبنجة .

اقتربا من بعضهما والرجل يدفعه بعيدا عن العربة عدة خطوات في اتجاه حارة جانبية ، يمسك بشعر راسه الخفيف ويجذب راسه الى أعلى وبيده الأخرى يهز كتفه وينطره وكانه ينفضه من التراب، وعكاشة مستسلم له وفي حيرة من أمره .

يقلبه بين يديه يسارا ويمينا ويبتعد عنه قليلا ، يتراجع فجاة ثم يعود ويقبل عليه ويلتحم به ، لكنه بدأ يحرص على ترك مسافة بينه وبين عكاشة .

عكاشة مستسلم ، فقد تم الاتفاق وسباب الرجل وصفعه له ضمن الخطة . يود أن يساله عن الخطة وعما اذا كان غاضبا بحق . لكنه خاف منه ، وصمت .

دق جرس المدرسة ثلاث دقات والرجل الأحمق لا يزال ممسكا به. يقول له صائحا :

ـ سوف اقتلك واشرب من دمك .

يتململ عكاشة بين يديه كفرخة مذبوحة ، فهذا المغفل سوف يفسد كل شيء بحماقته ، قال له عكاشة خائفا :

ـ اتركني .

فتشبث الرجل بملابسه ، واخذ يضربه . ودقت اجراس المدرسة مرة ثانية ثلاث دقات متتابعة ، فصاح عكاشة من الخوف :

ـ يا نهار اسود . ضعنا !
ضاقت الحلقة حولهما ، ووقف العساكر يتفرجون ويضحكون على مصارعة الديكة ، قال واحد منهم :
ـ عكاشة . اضربه .
فضحك ساخرا منه .
أمسك الرجل بخناقه وصفعه صفعة قوية ، وفجاة جرى أمامه ، فجرى خلفه عكاشة تاركا وراءه عربة البرتقال وعساكر الانجليز .
وبينما هو يجرى ، لمح جون الذى يصاحبه بالصفارة عندما يغنى، يا باجور الساعة اتناشر ، صديقه ، كيف يتركه للموت ، انقض عليه، قائلا له :
ـ جون . قنبلة . اجر .
حملته قدماه المفلطحتان الى اعلى . طار . سقطت السماء فوقه .
قالها ، وقبل أن يخرج الزفير من صدره ، رمى جون نفسه فى حفرة على مقربة منه . وقطع عكاشة خطوتين وعيناه معلقتان بالرجل .
وفى لمح البصر احس بجسده يدهمه القطار : حسس على ام حبيبة ، وصرخ : جنيهان لشراء القميص الساتان الوردى ــ تخلص جذعه الأعلى من ثقل جسده ، وصاح : ام حبيبة .
اخترقت الشظايا الجسد . الفرق بين النجاة والموت ثوان معدودات . وقام جون من الحفرة والقى نظرة حزينة على الضحايا وقد تمزقت أجسادهم وطارت أطرافهم ، وعلى مبعدة عدة أمتار ، كانت عينا عكاشة الجاحظتان تنظران اليه فى صمت وقد تجمدتا ، وخاله يغنى له لوحده .
حنى العسكرى الانجليزى راسه وسار بين الأشلاء وقد تحطمت غرفات المحطة وانطلقت الصفارات واقبل عشرات الجنود بخوذاتهم ، وعينا عكاشة من بعيد تضحكان له وصوته يرن فى أذنيه : يا وابور الساعة اتناشر ...
تقدم العسكرى الانجليزى عدة خطوات وسط الدمار نحو جسد عكاشة الممزق ، ووقف أمام الراس المفصول ونظر الى العينين المفتوحتين ، ورفع يده بالتحية العسكرية وبكى ...

اهتزت اسلاك البرق والهاتف تنقل الى العالم الخارجي أبعاد العملية الفدائية التى أسفرت عن مقتل ثلاثة ضباط وثمانية جنود واصابة عدد كبير من العاملين بالمحطة .

وثارت ثائرة دوائر القصر الملكي والسفارة البريطانية ووجه جلالته لوما شديدا لمرتضى المراغي باشا وزير الداخلية وابراهيم امام بك رئيس القسم المخصوص وحملهما مسئولية ما جرى لهذه المحطة فوزارة علي ماهر باشا مهمتها الأساسية أعادة الاستقرار والأمن الى البلاد ومطاردة المخربين .

واتفقت دوائر القصر الملكي مع السفارة البريطانية على ضرورة معالجة هذه العملية بالحكمة والتهوين من أمرها . وعدم الاعلان عنها بطريقة موسعة حتى لا تثير حمية الجماعات الأخرى .

ووسط البلبلة الناجمة عن حريق القاهرة وتبادل الاتهامات بين الزعامات الوفدية التى كانت فى سدة الحكم يوم الحريق ورجال السراى ، جاءت هذه العملية الناجحة لتؤكد لأبناء القنا لأن جذوة الحركة الوطنية لا تزال مشتعلة . وغطت التفاصيل التى نشرتها الصحف السرية على طوفان أخبار الاصلاحات الاقتصادية التى تزمع وزارة علي ماهر باشا القيام بها وعلى أخبار تخفيض أسعار السكر والزيت والشاى .

احتارت جهات الأمن فى البداية فى التعرف على شخصية عكاشة الذى مزقت القنبلة جسده وفصلت راسه ، واخذت تبحث فى قوائم المتطوعين عن شخص تنطبق عليه مواصفات عكاشة ، وظنت فى البداية انها عملية انتحارية من صنع الاخوان المسلمين او الشيوعيين ، لكنها استبعدت هذا الاحتمال واتجهت ظنونها الى ضباط الجيش ، حتى جاءت الأنباء من السفارة البريطانية تؤكد ان الفدائى الذى مات فى العملية من عزبة عويس ومن أتباع اللواء عويس باشا ياوران الملك والرجل القوى فى السراى .

وسط مظاهر الحداد التى سيطرت على مساكن العاملين بالسفارة

البريطانية فى القاهرة ألقت جولى نظرة على الصور المنشورة للدمار الذى أصاب المحطة فى الصحف الانجليزية فتسمرت عيناها على وجه وجناته سمينة وعيناه جاحظتان وعلى فمه ابتسامة راضية . هبت فزعة وهى تصرخ قائلة :

ـ عكاشة المفنواتى !!

قامت الى البوم صورها وبحثت عن صور الحفل الذى دعتهن اليه الأميرة جويدان فى قصرها ، واخرجت صور أبيس وعكاشة وقربت صورة عكاشة ووضعتها الى جوار الصحيفة : وتأكدت ظنونها . وأسرعت الى والدها فى القنصلية لتقدم له مجموعة الصور وشريط الصوت الذى أعطته اياها مارتا .

ولتتأكد من ظنونها ، اتصلت بأبيس فى قصر اللواء عويس باشا وسألته عن عكاشة ، فأخبرها أنه مسافر ، فلما ألحت عليه قائلة : أين ؟!

قال لها أبيس خائفا وبصوت خفيض :

ـ زعم انه سوف يسافر الى القنال ليحارب !

وضعت السماعة غاضبة ، وقد اتهمت نفسها بالبلاهة ، فقد خدعها عكاشة بطيبته ، وخدعتها صديقتها الأميرة جويدان ووالدتها الأميرة شويكار ، وخدعها صديقها أبيس . قدموا لها ارهابيا خطيرا ، ولا مفر من مصارحة والدها بكل الحقائق التى تجمعت لديها . ومضت تقرأ التحقيق الصحفى والتصريحات التى ادلى بها بيتر سميث الذى نجا من الحادث وأعلن انه مدين بحياته الى بائع البرتقال الذى خبأ القنبلة واقبل عليه محذرا بسبب مشاركته له فى الفناء فانقذه من موت محقق .

مشاعر متناقضة ملأت قلب جولى فلا تعرف هل تكره عكاشة أو تحبه ؟!

تحس بتأنيب ضمير لأن الظروف اتاحت لها معرفة عكاشة عن قرب لكنها لم تسبر غوره وتكشف سره . وانهمكت هى وزميلاتها فى البحث عن أمور سخيفة مثل ختان الصبيان وخصيهم . لقد صدق الأستاذ ماكلين فى نقده لهن وربما ان اتبعن أساليب علمية لكن توصلن الى نتائج مختلفة .

مصر ، هذا البلد الغامض الغريب ، سماؤه أربعون سماء وأرضه لا قرار لها ولا قاع . الكلمات لها معان متباينة متعارضة ، والصدق

عملة نادرة . من يصدق أن اللواء عويس باشا يأوى فى عزبته فدائيين ؟!
ولكن ربما يعيشون فى كنفه ويخفون عنه أنشطتهم السياسية ، يخدعونه ، فهذه هى مصر !

قال لهم أستاذ العلوم السياسية فى الأسبوع الماضى :
فى الدول المتخلفة لا يعرف من يجلس على القمة ما يجرى تحت السطح .

لقد كانت مارتا أشد حصافة منها ، فطلبت ترجمة دقيقة لأغانى عكاشة وتفسيرا واضحا لمعانيها ، وقالت لها بعد قراءة الترجمة : هذه أغانى حرب .

ابتسمت جولى لها ولم تعلق ، وقد راودها احساس بأن صديقتها مارتا قد عرضت شريط الصوت على خبير فى الـ سى . آى . ايه. لكن أبناء الدبلوماسيين أيضا لا يثرثرون بما يدور فى خواطرهم .

وصلت الأخبار الى عزبة عويس فوقفت على رجل . اقبل حمادة ابو جبل على ستهم غاضبا ، وقال لها :

ــ نسيبك الكلب عكاشة فضحنا .

قالت له ستهم وقد احتاجت الى خدماته فى الدار :

ــ اين هو لأكويه بالملعقة ؟!

قال لها حمادة ابو جبل ساخرا :

ــ مات . استشهد . قتل أورطة انجليز .

وقالت له ستهم وهى تزغرد :

ــ بطل !

قال لها حمادة ابو جبل غاضبا :

ــ جد جدك رفض الوزارة وان شاء الله تضيع العمودية على يدك !!

وبعدها اكمل قائلا :

ــ اذهبى الى أم حبيبة ، لا جنازة ولا مأتم ولا عزاء .

فقالت له ستهم ساخرة :

ــ مأتم ؟! عكاشة شهيد . بطل . والسرادق من عزبة عويس الى مديرية الجيزة .

صرخ فيها العمدة طالبا منها الصمت .

وأمام عشة عكاشة فى دوار الحبايبة تجمع المزارعون يمسحون مآقيهم وقد اقبل والد الشيخ سلامة أبو حجازى بنفسه معزيا وقارئا لآيات الذكر بينما أبو جعفر يدور بينهم محذرا :

ــ البلد فى حالة طوارىء ، وممنوع التجمهر .

المزارعون الذين تركوا غيطانهم يرقبونه ولا يهتمون به وكأنه كلب أجرب وسطهم . يتهامسون ، يترحمون على عكاشة ، وأم حبيبة تقوم وتقعد وقد غطت رأسها بالطينة صارخة :

ــ يا رجلى ، اشتريت لى قميص النوم والفستان والمنديل بأوية ف نص الليل !!

النسوة يلطمن خدودهن ويصرخن ويطلبن منها الصبر ، وهى تقعد وتقوم وتدخل وتخرج ، وفى يدها بقجة ملابسها الداخلية تفردها أمام الرجال قائلة :

ــ كسانى وسافر !!

ــ عيب يا أم حبيبة .

والمرأة تصرخ قائلة :

ــ أعدم لو لمست جسدى من بعدك يا عكاشة .

قرب الظهر ، أقبل عشرات الرجال والشباب من النواحى القريبة، ووزعت منشورات تسخر من الحكومة وتشيد بالعملية الانتحارية . وعلقت صور عكاشة .

واتصلت مديرية الامن بحمادة أبو جبل وطلبت منه معالجة الموضوع بالحكمة . وتجمع الرجال وقد استقر رأيهم على طلب معاونة اللواء عويس باشا فى الافراج عن جثمان عكاشة لدفنه فى العزبة .

اللواء عويس باشا كان آخر من يعلم بالمصيبة التى حلت بالعزبة ، قرب الضحى اتصل به اللواء ابراهيم امام قائلا :

ــ توصلنا الى الفدائى الذى هدم محطة الكهرباء بالاسماعيلية .

قال اللواء عويس مستفسرا :

ــ من الشيوعيين ؟!

أجاب ابراهيم بك امام ساخرا :

ــ من أتباعك يا باشا !!

اهتزت الأرض تحت قدميه . سرحان السقا قبض عليه يوم الحريق ووجهت اليه تهمة اشعال الحرائق فى شارع الهرم ، وعباس أبو حميدة فى الهاكستب . لم يبق سوى زوجته وابنته . ولم يطل صمت ابراهيم بك امام . قال له :

ــ عكاشة المقنواتى .

أجاب اللواء عويس مذهولا :

ـ الولد المفنواتي ؟!

أجاب ابراهيم بك امام فى لهجة الواثق من نفسه : المفنواتي ضحية وقد اثبتت التحريات أن عزبة عويس نظيفة من المخربين وانه سافر الى وجه بحرى لسبب غامض فوقع تحت تأثير مجموعة تشرف عليها الدكتورة أوديت ابنة معالى سيد أحمد باشا ، وهى التى زودته بالقنبلة وعربة البرتقال وقد استغلوا سذاجته فقضوا عليه ـ المسكين !!

ثم أكمل رئيس القسم المخصوص قائلا :

ـ ومن الغريب ان عكاشة تلكأ فى الهرب وسعى لانقاذ أمباشى انجليزى ففقد حياته وأنقذ الانجليزى .

اللواء عويس لا يصدق اذنيه . منذ اسبوع واحد كان الولد عكاشة فى قصره يغنى أمام رفيقات ابنته ، فماذا حدث لهذا الكون ؟!

كيف يقابل جلالته بعد الآن وقد شاع الخبر فى دوائر السراى ؟ مرجريت تقضى محروقة فى كلوب محمد على ، وسرحان السقا يشعل الحرائق فى شارع الهرم ، وعكاشة يهدم أهم محطة للقوات البريطانية فى منطقة القنال ويقتل بمفرده ثلاثة ضباط وثمانية جنود ؟!

هذه فوضى .

الرذاذ يتناثر من شفتيه . ويلوك الأصوات فى فمه ، ويصغى الى اللواء ابراهيم بك امام غاضبا .

قال الدكتور حافظ عفيفى باشا أكثر من مرة ان وزارة على ماهر باشا وزارة انتقالية ، وانها لن تبدأ المفاوضات مع الانجليز ، فهل يطاح بها بسبب عكاشة ؟!

أحس بنفزة حادة فى صدره ، فوضع السماعة على المكتب ، وأخذ نفسا طويلا ، ووضع حبة صغيرة تحت لسانه . وبعد عدة ثوان ، تمالك وأحس بقوته وأجاب على نداءات ابراهيم بك امام مطمئنا قائلا له :

ـ أحسست بنفزة قوية فى صدرى فوضعت حبة تحت لسانى .

طلب منه ابراهيم بك امام الاهتمام بصحته فالسراى فى أشد الحاجة اليه فى الأيام المقبلة .

الجميع ينصحونه بالاهتمام بصحته والذين حواليه يتساقطون ، والضربات تأتى اليه من اتباعه . جدته فاطمة هانم زادة غير راضية عن تصرفاته ، وزوجته بدأت تطالبه بوضع مجوهراتها وأموالها خارج

مصر ، وجلالته يتهمه بالتقصير فى جمع ضباط الجيش حوله ، وابراهيم بك امام المسئول عن مقتل مارجريت واقتراب النيران من قصر عابدين يجرى تحريات فى العزبة من وراء ظهره وهو ياوران الملك .

ماذا حدث فى هذا العالم ؟!

لا شك أن هذه المصائب هى التى يطلقون عليها سياسة . راودته رغبة فى تعليق حمادة ابو جبل وابو جعفر الى شجرة الجميزة ، وجلدهما بالسوط ، لسماحهما لعكاشة بالهرب من العزبة ، لكنه تراجع وقرر معالجة الأمر بالسياسة والحكمة . والسؤال الذى يلح عليه كيف توصل عكاشة الى جماعة الدكتورة أوديت سيد أحمد باشا وماذا جمع الشامى على المغربى ؟!

اطلعت الدكتورة أوديت على الصحف الأجنبية فى السفارة السويدية فهتف قلبها بالفرح لنجاح العملية الفدائية وحزنت حزنا شديدا لاستشهاد عكاشة .

لمحت صورته ، فعرفته . كتبت له ذات مرة علاجا لثعابين البطن عن طريق عباس ابو حميدة ، ورأته أكثر من مرة فى العزبة يتجول فى الأزقة مغنيا .

تأثرت رفيقتها ساندرا بتصريحات بيتر سميث التى أعلن فيها انه مدين بحياته الى عكاشة وأن السبب فى صداقتهما يعود الى حبهما للموسيقى ، وقالت لها وهى ترضع ابنها :

ــ لعنة الله على الحرب !

كل منهما غارقة فى خواطرها وأحلامها . الدكتورة أوديت قلقة بسبب حركة الاعتقالات الواسعة التى لحقت بالرفاق ، ومع أن العملية الفدائية التى قام بها عكاشة قد جاءت رداً على تعسف حكومة على ماهر باشا وتأكيدا لاستمرار النضال فان الحركة الوطنية قد أصبحت محاصرة . وساندرا تداعب وليدها وتود أن لا ترميه المقادير فى حرب. تحلم بسلم دائم على الأرض ورفاهية للجميع ، ثم تتقلص عضلات وجهها حزينة ، فالقسوة والعنف متأصلان فى الجنس البشرى منذ القدم ، وليس صدفة أن تروى التوراة قصة مصرع هابيل على يد أخيه قابيل . تجلسان قريبتين من بعضهما ، احداهما على الفراش مشغولة بوليدها ، والأخرى على مقعد خلف زجاج الشرفة . شمس الضحى تتسلل اليهما وتغرقهما بالدفء ، والحجرة فى هدوء لا يقطعه سوى صفير الهواء وتقليب صفحات الصحف .

صديقتان . السيدة ساندرا ستروهولم قوية البنية ولم تعد فى حاجة الى عناية الدكتورة أوديت ، ولكنها أنست لها وأحبتها وقررت مشاركتها معيشتها حتى تهدأ الأمور فى الخارج وتجد مأوى لها . تحدثنا معا . اعترفت لها انها هاربة من البوليس وأن اسمها الحقيقى هو أوديت وليس صباح .

قالت لها ساندرا فى ثقة :

ــ لن يلحقك أذى مادمت داخل جدران السفارة .

وذات ليلة لمحت أوديت كتابا مع ساندرا عليه عنوان مكتبة الفجر ــ تصفحته وسألتها عن هذه المكتبة ، فقالت لها ساندرا وهى تبتسم :

ــ صاحبتها صديقتى .

فهللت أوديت فرحة :

ــ تعرفين زيزيت ؟!

قالت ساندرا وقد انشغلت بالوليد :

ــ نعم .

اخفت صدرها داخل البلوزة الواسعة ، والتفتت اليها ضاحكة ، وقالت :

ــ اذا لم يكن لتروتسكى فضل على الثورة العالمية يكفيه انه جمعنا معنا .

وبعدها قالت ساندرا حزينة :

ــ زيزيت كانت تستعد لعقد قرانها يوم السبت الأسود ، وكنت انوى ارسال باقة ورد لها ، ولكننى انشغلت بالمولود ، ولا أعرف ان كانت قد عقدت قرانها أم أجلته بسبب الحريق .

اخبرتها أوديت ضاحكة أنها تزوجت فى الصباح وقبض على زوجها فى العشية ، فقالت لها ساندرا مبتسمة :

ــ هذا أفضل من القبض على زوجها دون زواج .

وبعد تردد ظاهر سألت ساندرا رفيقتها كيف عرفت خبر زواج صديقتها ، فقالت لها « من الصحف » ففى صفحة التهانى وجدت تهنئة لزيزيت ، وفى الصفحة الأولى قرأت اسم زوجها وشاهدى عقد القران ضمن المعتقلين .

تململت ساندرا فى جلستها تود القيام والخروج لمقابلة زيزيت فى ميدان محمد فريد فى مكتبة الفجر ، لكنها خافت من رفض أوديت لخروجها وارتأت ارسال باقة زهور لها عن طريق السفارة وطلب تزويدها بالكتب الجديدة .

وطلبت أوديت أن تكتب لها كلمة ، وكتبت : مبروك ، نحن بخير ، وفى أمان ، سوف اعاود الاتصال ، أختك أوديت .

وكتبت ساندرا كلمة تنبئها بأنها رزقت ذكرا وتتمنى لها حياة سعيدة هى وزوجها وأنها تحت اشراف طبيبة صديقة لها ، واغلقت المظروف بعناية ، وطلبت من موظف بالسفارة تسليمه للسيدة زيزيت شخصيا .

أوديت انكمشت فى جلستها خائفة ، بينما ساندرا تضحك منها وتقول لها :

ــ تقاليد رعاية اللاجئين السياسيين فى السويد عريقة ، ومن حق اللاجىء السياسي أرسال البرقيات دون خوف .

فقالت لها أوديت :

ــ لكننى لست لاجئة سياسية .

قالت لها ساندرا ضاحكة :

ــ هربت والدتى بعد زواجها عشرات من اليهود وانقـدتهم من افران الغاز ــ كانت تقيم فى هامبورج وتراست شبكة لتهريب اليهود والمعارضين لهتلر من الألمان ، لكن هذه قصة اخرى .

استمعت أوديت اليهـا مبهـورة . هاهى تروى لها شيئا عن ماضيها . شيئا خاصا . ولم تندم لمصارحتها باسمها الحقيقى : اوديت .

(٢٥)

ضاق سجن الهاكستب بالمعتقلين الذين أمر وزير الداخلية باعتقالهم ليلة حريق القاهرة فور اصدار المراسيم الملكية الخاصة باعلان الأحكام العرفية .

خليط من كل الاتجاهات السياسية . وفور تولى مرتضى باشا المراغى وزارة الداخلية ، بعد اقالة حكومة الوفد ، زاد عدد المعتقلين وضم اليهم المعادون للسراى بشكل سافر .

أما أولئك الذين وجهت اليهم تهم بالاشتراك فى الحريق وأعمال السلب والنهب فقد تولت النيابة التحقيق معهم ووضعوا فى سجن الاستئناف .

على ماهر باشا رئيسا للحكومة بدلا من مصطفى النحاس باشا ، والمراغى باشا وزيرا للداخلية بدلا من فؤاد سراج الدين باشا ، وأحمد حسين العدو اللدود للوفد وجهت اليه تهمة احراق القاهرة ، وعبد الفتاح باشا حسن وزير الشئون الاجتماعية فى وزارة الوفد وجهت اليه تهمة التحريض واثارة الشعب .

اختلطت الأوراق واهترات الخريطة السياسية للبلاد وسرت الاشاعات واتسع نطاق الاتهامات بالفساد والرشوة والتشكيك فى ذمة الوزراء ورجال السراى على السواء .

المعتقلون فى سجن الهاكستب يعانون من ضيق المكان ومن حدة المناقشات والخلافات وقد فرضت الرقابة على الصحف وكل معتقل وراءه تاريخه ومآثره التى يفخر بها . الوفديون يفخرون باحترامهم للدستور ويتنكرون لمشروع تنظيم الصحافة الذى تقدم به النائب الوفدى اسطفان باسيلى ، والاخوان المسلمون يفخرون بأعمالهم البطولية فى قناة السويس ضد القوات البريطانية ، والشيوعيون يفخرون بتمهيد الأرض للثورة وقيادتهم لرايات النضال ضد الانجليز والسراى ومطالبتهم بتحرير الفلاح والعامل من الظلم .

المقربون من فؤاد باشا سراج الدين وزير الداخلية الأسبق يصفونه بأنه العقل المنظم لعمليات المقاومة فى مدن القناة ، ومهادنة الوفد للسراى

كانت من اجل الغاء المعاهدة وتحرير الارض بعد وقف المفاوضات . كلمة مصطفى النحاس باشا على ألسنتهم يلوكونها فى كل مناسبة : « من أجل مصر وقعت معاهدة ١٩٣٦ ومن أجل مصر اطالبكم اليوم بالغائها » .

صوانى المحمر والمشمر والضانى والذبائح تتدفق على السجن فى مواعيد الغداء والعشاء من العائلات الارستقراطية للمعتقلين • بيوتات كرم . والى جانب تبادل كلمات التحية والتخاطب اليومية (صاحب المعالى ، صاحب السعادة ، وباشا ، وبك ، وافندى) يتولى الأتباع توزيع الطعام وفقا لمساومات تحتية .

فريك المنيا له شهرة ، والعدس الأباظى بشوربة الدجاج له معجبون ، وبسبوسة دمياط تسيل اللعاب . والساعات تمضى فى مناقشات حامية ونكات بين كل وجبة واخرى ، والأدوية فى معظمها لتوسيع الشرايين ومقاومة الذبحة وارتفاع الضغط بالاضافة الى المقويات وفاتحات الشهية والمنشطات الدنيوية .

رجال الأحزاب الذين يطمعون فى العودة الى الحكم يقولون « صاحب الجلالة » والذين لا تساورهم أحلام فى العودة السريعة للحكم يقولون « جلالته » والمعارضون يقولون « الملك » أو « السراى » والمتمردون على النظام بأكمله يقولون « المقامر » أو « راعى الفساد » أو غير ذلك من الأوصاف . لكل حلقة تقاليدها فى الحديث ، والتجاوزات ممنوعة ، والنكات قفشات مقبولة ، وكل جماعة لها زعيم خفى يدير شئونها ويسهر على راحتها ، والتصريحات السياسية يعمل لها ألف حساب .

الزيارات لها مواعيد ، والرسائل تفحص بواسطة رجال القسم المخصوص ، والطرود تراقب بعناية ، والاتصالات بين الداخل والخارج ممنوعة .

كل مجموعة سياسية تسعى جاهدة لاختراق اسوار المعتقل وتتفنن فى أجراء الاتصالات السرية مع الزعامات السياسية التى تدين لها فى الخارج .

الوفديون الذين قبض عليهم بأوامر من مرتضى المراغى بعد اقالة حكومة مصطفى النحاس باشا كانت تصلهم الرسائل بصفة منتظمة بمعاونة المتعاطفين مع الوفد فى أجهزة مصلحة السجون ولنفوذهم السابق فى وزارة الداخلية . الاخوان المسلمون تصلهم الرسائل مهربة فى الأطعمة والمعلبات والأدوية ، وكثيرا ما كانت تقع بينهم وبين ضباط

المعتقل مشاحنات عند التفتيش ، ولكنهم نجحوا فى تسريب رسائل مهمة الى داخل المعتقل فى جراة يحسدون عليها .

الحاجة أم الاختراع . كان ذلك اعتقاد مجموعة من المعتقلين التابعين لقسم العمال بحركة حدتو . تدارسوا الأمر واستقر رأيهم على ضرورة اختراق شبكة التليفونات الخاصة بالمعتقل وسرقة خط تليفونى واستخدامه فى اجراء الاتصالات مع الرفاق خارج المعتقل .

نجح عامل من عمال شركة ماركونى اسمه حمادة المخترع من التوصل الى الأسلاك الرئيسية الملاصقة لسور المعتقل ، وتمت سرقة جهاز تليفون قديم من مخازن المعتقل ، وفى أقل من خمسة أيام امتلكت هذه المجموعة خطا تليفونيا خاصا بها .

وذات صباح ، فى حماس بالغ ، بعد تكرار النداء « خبر هام » قرأ أحد الرفاق موجزا للعملية الفدائية التى قام بها مزارع واسفرت عن مقتل ثلاثة ضباط وثمانية جنود من الانجليز وتدمير محطة الكهرباء بالاسماعيلية .

وهاج المعتقل وعلت صيحات التكبير والتهليل والهتاف باسم مصر .

من البطل الذى قام بهذه العملية ؟!

سؤال سيطر على المعتقلين . واذا أعوزتهم الاجابة ، قال احدهم : واحد من بر مصر . وكل جماعة تود نسبة العملية لرجالها .

فى العشية تجمعت الأخبار . البطل استشهد فى العملية واسمه عكاشة . يتكسب قوته من الفناء فى الأسواق . محل اقامته عزبة عويس .

سمع عباس أبو حميدة الاسم فهب واقفا . دارت به الدنيا . عكاشة المغنواتى ! كيف ؟!

وتجمع الرفاق حول عباس ابو حميدة يستفسرون ، يسالونه :

— تعرفه يا عباس ؟!

فيجيبهم قائلا :

— نعم ، بلدياتى .

ولا يزيد كلمة واحدة . يرفض الحديث . مهما شطح به خياله وقفز متخطيا واقع عزبة عويس فهو لا يسعفه ، ولا يجد تفسيرا لسر هذه العملية التى أودت بحياة أحد عشر من قوات الاحتلال

وهدمت محطة كهرباء ، هل لف جسده الضخم بأصابع الديناميت والقنابل واقتحم المحطة ؟!

السجن يجسم عجز الانسان ويزيد من خياله . والمعتقلون من القيادات . وعباس أبو حميـــدة لا يود ادعاء بطولة أو أنه على معـرفة بأبعاد العمليات التى جرت فى منطقة القنال ، ولا يزعم أنها كانت ذات فعالية بحيث تجبر الانجليز على الانسحاب الفورى . انها بداية لصراع طويل مرير ، وقد جمع بنفسه مجموعة من الشباب وسهل لهم طرق التطوع وأسهم فى نقل أسلحة مهربة من الجيش وتخبئتها فى داره بمعاونة من عوض والدكتورة صباح ، فهل تعرف عكاشة عليهما فى غيابه ؟! ويقلب عباس أبو حميدة الأمر على عدة أوجه ولا يسعفه خياله .

نشبت خلافات بين المجموعات المختلفة . وقد ادعت كل جماعة ان الشهيد عكاشة من بين أعضائها . يستمع اليهم عباس أبو حميدة ضاحـكا ويصمت . يشيح بوجهـه عنهم ويبتعد . واذا كان كذبهم يضايقه فان تكالبهم على انتساب الشهيد اليهم يفرحه . علامة قوة وصحة ، فالذين ينوون الانسحاب من المعركة لا يتمسحون فى الشهداء ولكن ينكرونهم .

رفاق عباس أبو حميدة يضايقهم صمته ، فالشهيد من عزبته ومن بلدياته ، وهو أحق به ، لكن قلبه لا يطاوعه على مجاراتهم . ضحى عكاشة بحياته ومات ، ولا يود الاساءة الى ذكراه بقوله انه ربما هرب الى الاسماعيلية خوفا من كى ستهم زوجة العمدة له واتهامها له بالفحش .

السياسة لا ترحم . النضال فى حاجة الى اطر . والشهداء رموز. وعكاشة فى بساطته رمز للنضال ضد الاستغلال والاحتلال . وجاءت التفاصيل من خارج المعتقل : جندت جماعة « الدكتـورة صباح » عكاشة وزودته بالمتفجرات . رسمت له الخطة واشرفت على تنفيذها، وأعدت له سبل النجاة ، لكنه تلكأ فى الهرب لسبب غير مفهوم .

أخفى الرفاق سر تلكئه عن الآخـرين وهو السر الذى ابرزته الصحافة البريطانية ، فكان وسام شرف على صدره . لكنها الطفولة السياسية التى تضحى بالمكاسب العظيمة فى سبيل مكاسب وقتية .

وشاع الخبر . عكاشة شيوعى . ويجلس الرفيق على الأرض معزيا نفسه ، قائلا لمن حوله :

ـ سبقنا الرفيق عكاشة . ضرب لنا المثل . ولنا منه عبره .
قهر المعتقل فى حاجة الى مقويات روحية . ويضيف الرفيق من عندياته قائلا :

ـ كان الشهيد مثالا وقدوة فى العمل التنظيمى .

الرفاق ليسوا كلهم من هذا الصنف ، فبعضهم بلفته التفاصيل الدقيقة لهذه العملية البطولية ، وتأكد أن عكاشة لم يكن عضوا منظما فى أية جماعة فقد التقطته مجموعة الدكتورة صباح . لكنه اخفاء الحقائق ، فالمعتقلون فى حاجة الى بطولة تشحذ الهمم ، ولا ضرر عليهم من ترديد تفاصيل مؤلفة عن عكاشة وبطولته .

أما الاخوان المسلمون فيطلقون عليه الأخ الشهيد عكاشة ، ويقيمون له صلاة الغائب ، ويترحمون عليه ، ويؤكدون انه كان من رجالهم ومن اتباع الشيخ سلامة أبو حجازى المسجون فى سجن الاستئناف على ذمة قضية حريق القاهرة .

اتخذته كل مجموعة مثلا لها ، تناجيه فى وحدتها وتقيم الصلوات من أجله ، وترسم له صورة بطل وتضيفه الى قوائم شهدائها .

عباس أبو حميدة ، ابن عزبة عويس ، يدير تصورات الآخرين عن عكاشة فى رأسه ولا يطاوعه لسانه على مشاركتهم فى لغوهم . يعزى نفسه قائلا :

هذه معركة طويلة . معركة شعب .

ويغضب صمته الرفاق فيتهمونه بالخروج عن « الخط » . لكنه لا يلقى بالا الى اتهاماتهم وادعاءاتهم ، فهو أكثرهم معايشة لواقع عزبة عويس ومعرفة برجالها .

الاعتقال يبرز الخلافات ويضخم الانقسامات بين المجموعة الواحدة ، وعباس أبو حميدة خبر المعتقل من قبل ، ويرمى برأسه الى الخلف قائلا لمن يأتى راغبا فى مجادلته :

انتظر حتى يفرج عنا .

(٢٦)

عالم اللواء عويس باشا يتفتت أمامه الى جزيئات ويذوب فى خضم متلاطم من الاحداث الضخمة التى لا قبل له بمواجهتها وليست له معرفة سابقة بها تعينه على الفهم .

اختلطت المسائل العامة وشئون الحكم بادق الأمور الشخصية ، وأصبحت عزبة عويس لقمة سائغة على كل لسان ، واصاب السقم اهل بيته وارتبكت أحواله المالية ووجهت اليه الانتقادات علانية من كل جانب .

فى السراى أصبحت العقبات توضع امامه وتحجب عنه الحقائق ويحال بينه وبين لقاء جلالته · فى قصره أضحت ابنته الأميرة جويدان سجينة فى جناحها ، وقد امتنعت عن رفيقاتها واصابها قنوط عظيم وذوى شبابها وانطفأ توهجها وكفت عن الطعام ورفضت نصائح الاطباء .

يهرب الى مذكرات حبيبته مارجريت سنكلير التى أوصت له بها قبل وفاتها فتزيد كلماتها آلامه ويستغلق عليه فهم معانيها فى مواضع كثيرة فيتهم نفسه بالجهل وقلة الحيلة .

اقترحت عليه مغادرة البلاد عدة مرات ، لكنه لم يطاوعها ، فرحلت عن الدنيا محروقة ، وتركته ليواجه الأعاصير بمفرده ولا نصير له ، وقد غابت عنه حكمتها .

هو ياوران الملك وحبيبته تقضى محروقة فى أثناء الشغب !. لا يوفر حماية لها ولا يقدر حتى على وداعها قبل موتها ؟! أليست هذه مصيبة ؟!

وفى خاتمة المطاف تقبض اجهزة الداخلية على اثنين من أتباعه بتهمة احراق القاهرة : سرحان السقا وسلامة أبو حجازى ·

كان عزبة عويس التى سوى جده الأميرالاى عويس الكبير ترابها بعرقه ورواها بدمه اضحت تضم بين دفتيها القتلة والمشاغبين والمناهضين لنظام الحكم فى عهده ! عكاشة الولد المفنواتى يقتل أورطة من الانجليز بمفرده ويحطم محطة كهرباء ، فهل هذا يعقل ؟!

عباس ابو حميدة الذى تعطف عليه وترك له فدانين من الأرض ينتزع جماعة مناوئة لنظام الحكم . أليست هذه من مهازل القدر ؟! اللواء عويس ابن على محمد باشا يجرى هذا فى عهده وتحت بصره !!

كتبت مارجريت سنكلير فى مذكراتها فى العاشر من يناير بعد فشله فى السيطرة على انتخابات نادى الضباط عن حديثه اليها بشأن خيانة بعض الضباط الذين أحسن اليهم له وتصويتهم لصالح الضابط المشاغب محمد نجيب وصحبه بعد أن هونت الأمر عليه : حدثنى بالأمن صديقى عويس ، كان حزينا للغاية لفشله فى ادارة معركة انتخابات نادى الضباط ونجاح الجناح المعارض لمشيئة السراى فى الانتخابات . قلت له أن هذه معركة سياسية عامة وليست معركة شخصية بينه وبين الضباط . يوجد سخط على سياسات السراى الحمقاء بين عدد كبير من رجال الجيش الذين نجحوا فى تنظيم صفوفهم جيدا ، فجاءت نتيجة الانتخابات معبرة عن ارادتهم الجماعية . وليس لذلك علاقة بالصدف أو الخيانة أو القيم الفردية . لكنه لم يفهمنى وظل طوال السهرة حزينا . وقد حزنت له وأشفقت عليه وفشلت فى التخفيف عنه .

وفى الواقع يوجد نوعان من الساسة وقادة الجيوش ، وأولهما يظهر عبقرية فى البناء وقت السلم والاستقرار ، وهذا الصنف تدين له الدول ببناء قواتها العسكرية ووضع خطط دفاعها ، والصنف الآخر من القادة لديه القدرة على اقتحام الحرب وتنفيذ الخطط فى ظل ظروف متحركة ومعاكسة وايجاد البدائل . ومن يصلح فى السلم لا يصلح للحرب . وصديقى عويس من الصنف الأول ، له قدرات فذة على التعمير والبناء فى ظل أوضاع مستقرة ، لكن قدراته تخونه اذا ارتبكت الأمور وتعقدت ، ومصر تمر هذه الشهور بحالة مخاض ، وهو ليس من رجال هذه الحقبة .

ينظر اللواء عويس الى أوراقها حزينا . حقيقة هو ليس من رجال هذه الحقبة .

كان يطمع فى تأسيس مصنع المعلبات ، وقد اشار عليه جلالته بوجوب انشاء هذه الصناعة المهمة وطلب من ناظر الخاصة تخصيص ارض له ، ووافق بنك مصر على تدبير الأموال اللازمة ، ووعده الدكتور حافظ عفيفى باشا بدعمه على شريطة أن يتولى حمدى بك الادارة المالية للمشروع .

وفجاة انسحب اخوه ، معلنا فشل المشروع ، فهرب منه بقية الشركاء وتحمل بمفرده تكاليف دراسات الجدوى .

استقالة صديقه رفعة على ماهر باشا كانت متوقعة وقد الح اليها عدة مرات الدكتور حافظ عفيفى باشا فى أحاديثه معه لكن المفاجاة هى تكليف دولة نجيب الهلالى باشا بالوزارة ورفعه لشعار التطهير ومكافحة الفساد والرشوة .

وقال اللواء عويس باشا لنفسه : لن تعمر هذه الوزارة اذن اكثر من عدة اشهر ، فالحاشية لن تسكت عليها على الرغم من حماية الدكتور حافظ عفيفى باشا رئيس الديوان الملكى لها واعجاب حسن يوسف باشا وكيل الديوان بشخصية الهلالى باشا وطهارة يده ونقاوة معدنه .

نجح الهلالى باشا فى فرض كلمة التطهير على كل مكان بدلا من كلمة التحرير التى روج لها المشاغبون والمنافقون لكن حلقة التحقيقات فى قضية الأسلحة الفاسدة تضيق حول رجال الحاشية خاصة جهلان باشا وجورج سعادة .

اللواء عويس باشا ليس متورطا فى هذه القضية لكنه تابع فصولها عن قرب ، وكان من كبار المعارضين لدخول حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ بواسطة الجيش ، وطلب من جلالته السماح فقط بارسال متطوعين من الضباط فأبعده عن مسائل شراء الاسلحة لتزويد القوات .

هذه حسنة ربما يذكرها التاريخ له ، ولم يكن عزوفه عن ارسال الجيش الى فلسطين جبنا او خيانة ، لكنه جاء نتيجة لدراسة تقدير موقف عام لقوات الجيش المصرى وحالة استعدادها .

وقد أشاد جلالته بهذه الدراسة بعد انسحاب القوات المصرية وتوقيع الهدنة .

ويعزى اللواء عويس نفسه قائلا : انا رجل حرب ولا رجل سياسة .

كلما صعد الى جناح ابنته الأميرة جويدان هاله ذهولها وشحوب وجهها . عيناها ميتتان . نحولها وهى راقدة فى سريرها ظاهر للعيان. فقدت نضارتها وبرزت عظام وجنتيها . حقيقة هى ليست قوية البنية ضخمة الحجم لكنها سليمة الجسد ولا تعانى من علة ما ولم تدهمها أمراض تذكر فى صغرها . الفحوصات الطبية اثبتت سلامة جسدها وقال الأطباء انها تعانى من حالة اكتئاب خفيفة .

نظراتها الميتة تشبه نظرات الأمير رفقي خورشيد والد زوجته قبل جنونه فى أواخر أيامه . يا للمصيبة !!! هل ورثت ابنته شيئا من جنون جدها لأمها ؟!

والدتها الأميرة شويكار تهون من الأمر قائلة له :

ــ البنت حساسة وفى سن الفوران ، وتمر بأزمة نفسية تعانى منها البنات فى سنها .

جدته فاطمة هانم زادة اقرب اليهـا من أمهـا ولم تأخـذ مرضـها ببساطة ، وتحذره من مغبة الاهمال ، وتنصحه بارسالها الى مصحة فى سويسرا أو فرنسا .

تقول له حزينة :

مرضها من مرض الأمير رفقي خورشيد . العرق دساس يا بنى. فتزيد من فزعه .

ويهرب الى جناحه ولا يجد أمامه سوى مذكرات مارجريت ليعيد قراءتها ربما للمرة المائة . يرسم لها تمثالا فى وحدته ويستمع الى صوتها وعينـاه على الكلمـات التى خطتها له فى وحـدتها فى اخـلاص وصدق . فهذه مذكراتها الشخصية ولم يكن مقدرا له الاطلاع عليها .

عزيزى عويس . اصبر . لا تشغل نفسك كثيرا بالأمور الدنيوية . تحرر من تلك القيود التى كتفتك بها زوجتك سمو الأميرة . فك الوثاق واطلق لخيالك العنان قليلا لتحلق فى سماوات أخرى . تعال الى . ابق الى جوارى فى جنتى .

يقلب فى دفاتر مذكراتها ويقرأ سطرا من هنا وسطرين من هناك ، ويدور كلماتها فى رأسه ويتعجب : كأنها تتنبأ بما يصادفه هذه الأيام فتنصحه ، هذه الفتاة من طينة أخرى ! ويتذكر ابنته جويدان وهى مستلقية فى سريرها وحولها الوصيفات فى أسى وحسرة .

من حين الى آخر تقلقه مكالمة لزجة من عليوة بك ، فيصده ويحيله الى وكيل أعماله وقد فوض أمور العزبة الى عبد الواحد أفنـدى وقطامش .

زوجته ، فى البهو ، تطلق الكلمات من فمها فى نفس واحد ثم تبدأ فى السعال . انشغالها بابنتها وحزنها لمرضها لم يمنعها من الثرثرة ولم يهذب طبقات صوتها المشروخ . كان يعتقد أن الحزن يدفع الناس الى خفض أصواتهم العالية ويمنعهم من الحديث ، وانها سوف تركن الى الهدوء وتقبع ساكنة جوار فراشها ، لكن حركتها زادت . تدور فى

انحاء القصر ملقية باوامرها هنا وهناك وقد تخلصت من احسن عاداتها فاصبحت تقتحم خلوته دون ان يرسل لها او يطلبها متخذة من مرض ابنتها ذريعة لكسر تقاليد العائلة .

يقوم ويقعد ولا يجد عونا له سوى علية سيف النصر فيلجأ اليها هاربا من هذا العذاب وملتمسا الحنان والراحة بين يديها .

يتحدث اليها ويعترف لها بأسراره وادق اموره فتستمع اليه وتحنو عليه كأنه ابنها وقد تحولت علاقتهما الى نوع من الصداقة .

روى لها كل شيء عن أبعاد علاقته بمارجريت وعشقه لها حدثها عن مذكراتها وتلك الخطابات التى كتبتها له طوال عامين ولم ترسلها ، ومرض ابنته وملازمتها للفراش .

تستمع اليه ولا تحس بالغيرة ، فقد ماتت غريمتها محروقة . وبعد طلاق جلالته للملكة فريدة وزواجه من ناريمان اصبح طريق زواجهما ممهدا ، لكنها لم تعد تطمع فى زواج منه او تجديد وصال معه . تحول عشقها له الى نوع من المحبة الهادئة ، واذا احتضنته مرحبة او قبلته علي وجنته ، كانت القبلة بريئة خالية من وهج الجنس او الشوق المحموم .

تبدلت مشاعرها نحوه على نحو غريب فى أقل من عام منذ عودتها الى القاهرة قادمة من باريس . فى البداية كان بالنسبة لها فتى أحلالها وعشيقها الذى لا تقدر على بعاده ، ثم بدات تحس نحوه بحنان البنت الى أبيها وترفض منحه جسدها . وبمرور الأيام بدأت تعنى به كابن لها ، وتعامله معاملة الأم الناضجة لولدها الطائش .

هى ليست بالفتاة الطائشة . فقد تعدت الثلاثين من عمرها ، ومداركها تمكنها من سبر اغوار مشاعرها ، وقد أكسبتها اقامتها فى الغربة لسنوات طويلة بعيدة عن الأهل والأقارب برودة عقلية ونظرة ثاقبة لقضايا النفس البشرية وفهما أكثر عمقا لطبيعة العلاقات الاسرية فى أوساط الأمراء .

يجلس أمامها متهالكا كفارس أرهقه السير فى الصحراء لعدة ايام دون طعام او ماء . شفتاه الغليظتان متدليتان ، وقسمات وجهه الغليظ متهدلة . راسه ساقط وقد برزت عروق رقبته . طفل صغير كسرت لعبته فجلس حزينا .

قالت له فى دلال :

ـ هه . قلّ لي شيئا مفرحا .

بدأ فى استرجاع شتات ذهنه . استقبلته فى جناحها ، وليس من اللائق أن يتركها جالسة على هذا النحو . عليه أن يبادلها الحديث . أخرج البايب من فمه ، ومال فى جلسته قليلا مقتربا منها برأسه ، وقال :

ــ هاتى ما عندك من أخبار .

قالت له وهى تخفض من صوتها وترفع حاجبيها وتحرك غمازة الحسن التى تزين وجنتيها :

ــ مزاج سمو الأمير محمد على ليس على ما يرام .

قال لها ضاحكا :

ــ اذا عرف السبب بطل العجب !

قالت له ضاحكة :

ــ الطفل الصغير أفقد العجوز الطامع فى العرش صوابه .

كانت تشير بذلك الى الأمير احمد فؤاد الثانى الذى ولد لجلالته من زوجته الجديدة ناريمان وأصبح وليا للعهد .

قال لها اللواء عويس غاضبا وهو يمسك بالبايب فى يده ويهزه :

ــ تجاوزت تصرفات الامير محمد على كل الحدود واصبح يشنع على جلالته علانية فى حفلات الاستقبال ويسبب حرجا بالغا للسفراء الأجانب ورجال الدولة .

اشاحت بوجهها فى قرف قائلة :

ــ وهل جلالته لم تتجاوز تصرفاته كل الحدود المتعارف عليها ؟!

صمت على مضض . خفض رأسه وحدق فى السجادة العجمى النادرة التى تزين صالونها . هذه السجادة يعرفها جيدا ، فقد سار عليها فى مرات كثيرة حافيا ومتحررا من ملابسه متنقلا من غرفة النوم الى الحمام الى الصالون . تأمل تشكيلاتها وألوانها ورفع رأسه الى الجدار ، وتأمل لوحة زيتية غامضة لفنان فرنسى من القرن الماضى اطلعته على اسمه عدة مرات ونسى اسمه ، وخجل أن يسألها مرة أخرى عنه .

فى الشهور الماضية كان يدور فى جناحها ويعبث بحاجاتها كطفل مشاكس ، متحررا من أية قيود ، له حقوق العشيق ولا تثقله التزامات الزوج . بينما هذه الليلة يجلس منكمشا فى الفوتيه ولا يغادر مقعده . ترتدى فستان سهرة طويلا يغطى ساقيها ولا يكشف الا عن كعبيها الجميلين بينما يغطى الشبشب الذهبى قدميها المسحوبتين .

وفجأة سألته غاضبة :
ــ وهل كراهية جلالته للسفير البريطانى السابق لامبسون تعتبر مبررا لشى طائر حى ؟! هذا عنف همجى .

آه ها هى توبخه على فعلته الشنعاء ، لقد أشعل قطع الفحم تحت الببغاء فى حديقة قصره بعزبة عويس ، ومات محترقا وقد طالته النيران وهو يصيح بكل المفردات التى تعلمها وجلالته يراقبه من بعيد ويقهقه قائلا : صوته يشبه تماما صوت لامبسون . لندعه يحترق . ورأسه يشبه رأس سعادة السفير . هه . لابد أنه يعانى من النيران فى مدفنه هذه اللحظة .

أخذ اللواء عويس نفسا طويلا من البايب ، وقال لها :
ــ هذه معركة بينهما . لقد هدده سعادة السفير سنة ١٩٤٢ بخلعه عن العرش ، وحاصر القصر بالدبابات وفرض عليه حكومة النحاس باشا . ولم ينس جلالته له هذه المؤامرة التى كادت أن تودى به لولا حكمة احمد حسنين باشا . وعندما رأى جلالته الببغاء فى القصر لاول مرة واستمع اليه وهو يرحب به قائلا : عاش جلالة الملك. قال لى يا باشا : هذا الببغاء يتحدث العربية مثل لامبسون وعيناه تشبهان عينى لامبسون ، أحسنت صنعا بحبسه فى الحديقة . وفى مرات أخرى كان يقترب منه ويقول له : كيف حالك يا سعادة السفير؟ وقد اعتقد أن روح السفير قد تجسدت فى هذا الببغاء الفصيح ، وأخبرنى أن هذه فلسفة معترف بها فى الهند اسمها فلسفة تناسخ الأرواح وأعطانى بعدها كتابا لقراءته بالانجليزية فوجدت به كفرا والحادا ، لكنه كان على يقين من أن لامبسون يعيش فى حديقة قصرى. فى تلك الليلة صاح الببغاء فور وقوف عربة جلالته فى الحديقة على مقربة منه : ابن الكلب . قالها ثلاث مرات. التقط الببغاء هذه الكلمات من أحد الجناينية فرددها . ببغاء يسب الملك فى قصرى . ماذا أفعل ؟!

وضعت قطع الفحم تحته وأشعلتها بنفسى .
بدلت الأميرة علية سيف النصر جلستها ووضعت ساقا فوق ساق فانحسر الثوب عن جزء من ساقها ، وقالت مشمئزة :
ــ العيب فى الذات الملكية عقوبتها السجن يا باشا .
قال اللواء عويس محتدا مدافعا عن تصرفه :

ـ قال لى جلالته لحظتها : يا باشا سعادة السفير لامبسون يسبنى فى قصرك .
فأجبته قائلا :
ـ سوف يدفع ثمن حماقته حالا يا صاحب الجلالة .
فقال لى : ارنى .
فماذا كنت افعل غير ما فعلت ؟!
أجابت الأميرة علية سيف النصر فى خبث قائلة :
ـ اذبحه يا باشا او أطلق سراحه عقابا على فعلته .
طاطأ اللواء عويس راسه نادما وقال :
ـ حتى جلالته لم يغفر لى بعدها هذه الحماقة . اتهمنى بعدها باننى اعمل على تلويث سمعته والاساءة اليه ، وأشاع بين الحاشية انه نصحنى عدة مرات باطلاق سراح الببغاء لكننى رفضت .
سألته فى فضول مبتسمة نصف ابتسامة :
ـ والحقيقة يا باشا ؟!
اعتدل فى جلسته واشار اليها أن تقرب راسها منه . ومال على اذنها هامسا :
ـ الحقيقة .. كان جلالته سعيدا للغاية . أصابته موجة ضحك جنونية ، دخل الى البهو وطلب منظارا مكبرا واستغرق في متابعة الببغاء وهو لا يكف عن الضحك حتى تفحم الببغاء . وهل توجد قوة على سطح الارض فى مقدورها حرمان جلالته من مشاهدة مثل هذه المتعة ؟!
أجابته علية سيف النصر وهى تتفهم موقفه وتعطف عليه :
ـ معذور يا باشا .
استراح اللواء عويس لاجابتها واحس بحمل ثقيل ينزاح عن قلبه وقال :
ـ نحن رجال الملك ندفع فى بعض الأحيان ثمنا ...
ثم توقف عن اكمال جملته ، فقالت له الأميرة علية سيف النصر مكملة :
ـ قل يا باشا الحقيقة ولا تخش شيئا ، فسمعة جلالته قد صارت فى الطين .
قال لها اللواء عويس وكأنه يطلعها على سر خطير من أسرار الدولة :
ـ جلالته يقامر فى هذه المرحلة بكل رجالات الدولة . بحرقهم

امام الشعب واحدا بعد الآخر . وبعدها يشكل حكومة موسعة من المستقلين لاجراء مفاوضات جادة مع الانجليز فى اطار حلف موسع بقيادة الولايات المتحدة الامريكية .

فسألته قائلة :

ـ هل حقيقة توضع عراقيل أمام وزارة دولة الهلالى باشا ؟!

قال لها فى ثقة :

ـ وزارة دولة الهلالى باشا عمرها قصير وقصير جدا .

قالت له ساخطة :

ـ هذا عبث !

قامت الأميرة علية سيف النصر الى المطبخ واحضرت له بنفسها كوبا مثلجا من الليمون وفنجانا من القهوة التركى المحوجة بالحبهان . سارت أمامه في رشاقة ابنة العشرين ربيعا مشدودة القامة مرفوعة الراس . فستان السهرة يلف قوامها ويظهر انوثتها الطاغية . مالت الى الامام وهى تضع الصينية المذهبة أمامه فلمعت المجوهرات التى تزين جيدها وصدرها وخطفت بصره . موسيقى ناعمة تنبعث فى الجناح فتدفعه ليتحرر من قلقه رويدا رويدا ، ويدع العنان لخياله ليحلق بعيدا عن مشاكل السراى وعزبة عويس واهل بيته . مد ساقه الى الامام واعتدل فى جلسته ورفع راسه .

جلست فى مواجهته ، وتركت الفستان ينحسر قليلا عن ساقها ، واخذت تمر بيدها على ركبتها ، وقالت له وهى لا تنظر فى عينيه وقد انشغلت بكدمة بسيطة فى عظمة ساقها :

ـ عندى خبر هام لك يا باشا .

قال لها بصوته الأجش فى لهجة بين الأمن والرجاء :

ـ هاتى ما عندك يا سمو الاميرة :

كفت عن مداعبة ساقها وقد اطمأنت عليها ، والتفتت اليه وقالت فى لهجة جادة :

ـ سمو النبيل عباس حليم مشغول هذه الايام باعداد دراسة عن كيفية اعادة الامن والاستقرار الى البلاد . وسوف ينشرها على الملأ فور الانتهاء منها .

تقلصت عضلات وجهه ، وقال لها مستفسرا :

ـ هل هى بقرة وقعت وكثرت سكاكينها ؟!

قالها بالعربية ولم تسعفه لغته التركية فى ترجمة هذا المثل

الشعبى لها ، فابتسمت مبدية عدم الفهم وقد استغلق معنى المثل عليها وقالت له بالعامية :

ـ يعنى « ايه » يا باشا !؟

قال لها ضاحكا :

ـ هذا مثل يضربه الفلاحون عندما يقع احدهم فى مازق فيتكاثر عليه الأعداء والشامتون .

أجابت فى غير اكتراث :

ـ آه . طيب .

بعدها استدرك معتذرا عن لهجته القاسية :

ـ النبيل عباس حليم أصبح نصيرا للعمال ومثيرا للفتن فى انحاء البلاد .

قالت له غاضبة :

ـ السلام الاجتماعى فى خطر يا باشا .

ها هى تتحدث مثل المشاغبين ، وقال لها محذرا :

ـ هل نسيت سمو الأميرة أن البلاد فى حالة طوارىء وتعيش فى ظل الأحكام العرفية وأن الحاكم العام لا يسره سماع مثل هذه الأقوال !؟

قام ليجلس الى جوارها ، فأفسحت له مكانا وجعلت بينهما مسافة ، وأدارت الحديث وجهة اخرى وسألته قائلة :

ـ كيف حال الأميرة الصغيرة !؟

أجابها وهو يهز رأسه آسفا :

ـ ليست على ما يرام . حالتها تزداد سوءا !!

علية سيف النصر معجبة اعجابا شديدا بجويدان ، وتدرك سر ازمتها لكنها لا تقدر على مصارحة أبيها به فالفتاة علاقتها سيئة بأمها وقد ازدادت سوءا بعد فضيحة الجامعة الامريكية واعتراف جولى بأنها مصابة بداء حب النساء . تود معاونتها على الخروج من هذه الأزمة النفسية وقد اطلعت على سر العلاقة التى تربط بين أمها وجولى . مرت علية سيف النصر بهذه الازمة فى صباها وقد تربت فى المدارس الداخلية وارتبطت بعلاقات لسنوات طويلة بفتيات من عمرها حتى تخلصت من هذه العلة فى أثناء اقامتها فى فرنسا بمساعدة طفيفة من احد الأخصائيين .

تود أن تحادث اللواء عويس عن مفهومها للحرية والسلام

الاجتماعى ، وقوانين تطور المجتمع ، والصراع الطبقى ، لكنه فى حالة لا تسمح بمناقشته ولا تود هى القسوة عليه فى هذه الظروف . واصفت له لتخفف عنه وتشاركه متاعبه . فى نية صادقة تركته يجلس الى جوارها ويقترب منها ويمسك يدها . ولمحت فى عينيه لمعة شبقية صارخة ، فتنبهت ، سحبت يدها منه ووضعتها على فخذها ومالت بجذعها الأعلى مبتعدة عنه الى الناحية الاخرى . وبعد برهة ، رفعت يدها ودعكت قبضتها · قبضة قوية · عظامها متينة · وضحكت ضحكة خفيفة وقد تذكرت أنها دفعته بكوعها مرتين فى الشهر الماضى فوقع على الارض . هى قوية البنية ، عريضة المنكبين ، عضلاتها مفتولة فى أنوثة ، واسعة الحوض ، ممتلئة الأفخاذ فى انسيابية وتناسق عجيبين .

جلست متيقظة لكل اشارة ، لا تود صده عنها فى جلافة ليست فى طبعها أو اظهار غلظة لا مبرر لها . المرتان اللتان دفعته فيهما بكوعها فوقع على الأرض كانتا بعد مضاجعته لها مباشرة واستسلامها له فى حب وقد صهرهما الجنس وذاب جسداهما فى بوتقة واحدة . تقبل سقوطه فى كل مرة كطقس مكمل لمضاجعته لها . يمسك هذه المرة بالبايب فى يده القريبة منها ، فاذا وضع البايب فى فمه ليحرر يده ، تنبهت .

هى ليست فى حالة مزاجية تسمح له بالاقتراب منها أو مداعبتها او وضع يده عليها . نظراتها فيها رفض . أمضت عشر سنوات فى باريس لم تسمح فيها لرجل بدخول جنتها محتفظة بعذارتها· لكنه لم يفهم حقيقة مشاعرها واثقل عليها بغليظ الكلام . هؤلاء الرجال وحوش . ربعة . يتململ فى جلسته وكأنه يتقلب على نيران الشوق ، دفعتها له هذه المرة وصده عنها مختلفة عن المرتين السابقتين . ففى الحالتين سقط على الأرض منتصرا وقد حقق مآربه منها وأرضى ذكورته ، لكنه هذه المرة سوف يسقط مهزوما ، وربما يقاومها فى شراسة . واستعدت لتطويعه فى رقة . سحبت طرف الفستان على قدمها ومالت بجذعها قليلا حتى تخفى بروز صدرها عن عينيه . وقالت له وقد اتخذت سيماء الجد :

ــ عويس . هل تعرف أننى كنت فى باريس العب اليوجا واصوم ثلاثة ايام فى الاسبوع وكأننى فى رمضان ؟! وانا عاقدة العزم على توزيع نصف ثروتى على الفلاحين ، ولا يعطلنى سوى كونى أنثى

وخشيتي من أمراء العائلة وبعض الورثة الذين يطمعون فى موتى دون زواج ؟!

قال اللواء عويس لنفسه :

ـ هذه الفتاة كزوجته الأميرة شويكار رفقى . ورثتا الجنون عن الأهل والأقارب .

نظر اليها فى شفقة ولم يعلق على قولها . ثروتها تتعدى ثلاثة ملايين جنيه ، وقد آلت اليها بعد عدة قضايا خاضها والدها ضد الملك أحمد فؤاد وترافع فيها النحاس باشا . حقيقة زوجته لا تفكر فى توزيع ثروتها على الفلاحين ، لكن ابنته الأميرة جويدان تراودها أفكار مماثلة . وهذه مصيبة انجاب البنات . ناقصات عقل ودين . وصدق الفلاحون فى قولهم :

« خلفة البنات عار »

وسرح اللواء عويس بفكره بعيدا ، قائلا لنفسه : يبدو أن مقترحات خطاب بك ، وشكرى ، فى مجلس الشيوخ ، قد أثمرت وأينعت ، ولكن فى المكان الخطأ . فبدلا من أن يتلقفها الفلاحون ، تلقفها أبناء الأمراء وكبار رجال الدولة . دولة الهلالى باشا ابنه من زعماء الشيوعيين فى الجامعة . السيد أحمد باشا ابنته قائدة للنضال المسلح لتغيير نظام الحكم بالقوة . وها هى عشيقته الأميرة علية ابنة الأمير سيف النصر تود توزيع نصف ثروتها على الفلاحين !!

ود أن يطلب منها أن تخلع ملابسها وترتمى فى حضنه لتفيق من هذه الترهات . فعادة ما تكون الراديكالية عند النساء نتيجة لتوترات جسدية وأزمات نفسية .

•

لكنها ثابتة فى جلستها ولا يلمح فى عينها خوفا أو توترا . النساء ألغاز . ومارجريت أيضا كانت لغزا بالنسبة اليه لم يفهمه الا بعد مماتها . وابنته البريئة أصبحت لغزا ، فهل من المعقول أن تصاب باكتئاب ويذوى شبابها ولا تفلح معها العقاقير وقد وفر لها حياة رغدة هنيئة ؟!

مد يده محاولا وضعها على رأسها ، فمنعته ، فنزل بها ، وأمسك بخصلة من شعرها ، قائلا :

ـ لا أعرف لماذا تأخر الطب الحديث عن تشريح رءوس النساء لمعرفة أى نوع من الأمخاخ فيها .

خلصت خصلة شعرها من قبضة يده ، وطوحتها بعيدا الى الناحية الأخرى ، وقد بدأت تحس نحوه بالتقزز ، قائلة :

ـ مخ النساء مثل مخ الرجال . شعيرات وخلايا عصبية . وتلافيف متعرجة . هذه أمور مادية يا باشا . يمكن وزنها وقياس حجمها . أما الوعى فشيء آخر تماما . هو محرك التاريخ . والتاريخ لا يمكن وزنه وقياس حجمه وان كان متمثلا أمام أعيننا فى قصور وطرق ومشروعات وجيوش وأسلحة .

يتحدثون اليه لغة غريبة . وفجأة وجهت علية اليه سؤالا مباشرا قطعت حبل أفكاره وأعادته ثانية الى عبوسه . قالت له :

ـ من حرق القاهرة يا باشا ؟!

اللواء عويس باشا لا يود القول أنه لا يعرف . اجهزة التحقيق وجهت التهم الى أحمد حسين وبعض الدهماء ولا توجد اجابة قاطعة ، وليس فى مقدوره مصارحتها بأن جلالته والانجليز لهم دور فيما حدث وما جرى كان بعلمهم . وقد أعد الكولونيل سفينكس وسائل الشغب وبودرة الحريق قبلها بعدة أسابيع . لكن ما أسفر عنه الحريق من كوارث كان مفزعا وفاق كل التقديرات . سلامة أبو حجازى وسرحان السقا ليس على علاقة بالسراى أو الانجليز . وقد أخبره ابراهيم بك امام بأنهما حرقا نصف متاجر شارع الهرم ومحلاته العامة . ماذا يعنى ذلك ؟!

قالت له فى تهكم :

ـ أحرقته الناس القاهرة . وهذا يكفى !

قال لها فى عصبية :

ـ الاشتراكيون والاخوان المسلمون والشيوعيون والدهماء .

كررت قولها قائلة :

ـ الناس !

أصبحت أحاديثه اليها مملة وسخيفة وقد اظهرت لها الشهور الماضية عجز قدراته العقلية عن تفهم حقائق العصر والابتعاد قليلا عن سياسات السراى الحمقاء . لا تندم على شيء فى حياتها قدر ندمها لاختيارها له كأول رجل فى حياتها وهى تمنحه جسدها كاملا وتفقد عذريتها على يديه . ربما كان فى ذلك أنانية منها . فقد كانت عند قدومها من باريس فى حاجة لتسوية أمور ثروتها مع السراى والافراج عن تفاتيشها الزراعية وفصلها عن الخاصة الملكية . وقد رأت فيه

رجلا وسيما كامل الرجولة أيقظ فيها أحط غرائزها . وأسرتها قوته، وضخامة جسده ، وشهامته . صــانت عفتها ثلاثة وثلاثين عاما ، ورفضت ملاحقات الشــباب لها ، وصـــمدت أمام كافة الاغراءات • وعندما قررت أن ترضي جسدها ، أختارت له جسدا دون عقل . لعنة الله على الجنس • تركت خيرة الشــباب واختــارت ثورا لفراشها • صفقة !! قدمت له جسدها وشبابها وجمالها وأعاد اليها تفاتيشـــها وأموالها من براثن السراى ، وفر عليها سداد الرشاوى للشماشرجية والعاملين بالخاصة الملكية .

يغيظها انها سلمت جسدها لهذا الرجل الجالس الى جوارها . وفى مواجهة صريحة مع النفس ، قالت لنفسها : جلالته يجرى وراء الساقطات من بنات الهوى وهى جرت خلف عويس وأوقعته فى حبائلها ولا فرق بينهما وخفضـــت من لومهــا للملك ، فهما من طينة واحدة ، والتمست له الاعذار •

ومدت يدها الى رأس عويس باشا ومسحت عليها فى حنان واخذت تعبث بالشعيرات القليلة التى تزين راسه . وقالت لنفسها وقد رأته مستكنا فى جلسته ، مستسلما لربتات يدها : صــبية خجــولة . ولتخفف من لومها لنفسها وكراهيتها له ، اقنعت نفسها بانها ســوف تعامله مثل الصبايا اللاتى تعرفت عليهن وتضمه الى قائمة الفتيــات والنســاء اللاتى ارتمين فى حضنها وأرتمت فى أحضانهن . كن فى معظمهن من الساقطات وبنات الهوى . وجذبته اليها ، قالت : تعالى ياقطة .

وسحبت جذعه الأعلى اليها ، وتركت راسه على صدرها وهى تغنى له كالأطفال ، وقد أرتسمت على وجهه ابتسامة جميلة . بسبس قطة . بسبس قطة .

ساكن بين يديها . مات الرجل فيه ونام الطفل . ومدت يدها الى فتحة صدرها وحررت ثديها الأيسر البارز والعريض طبق قشـــطة ليقضم حلمتها ويرضع .

لكن انفاسه أضطربت واخذ يلهث بين يديها . وبان زبد ابيض على شفتيه بينما عيناه تتوسلان اليها • قامت ومددته على الاريكة • وقال لها فى خوف : الدواء فى جيب الجاكت . عشر نقط تحت اللسان . قالت له : حاضر يا قطة . ومدت يدها الى زجاجة الدواء فى ثبــات ودون خوف أنها لا تعتقد انه سوف يموت بين يديها . لكنها التحولات . ووضعت نقاط الدواء تحت لسانه وهى تربت على وجنته وتناغيــه قائلة : خذي ياعزيزة . ياقطة .

(٢٧)

انتقلت حكاية استشهاد عكاشة وقتله لأورطة من الانجليز فى الاسماعيلية من فم الى فم حتى وصلت الى أذنى ترزى الأمراء بالجيزة.

قال الترزى وهو يقص القماش لمحدثه وقد وصلته الحكاية فى التو واللحظة :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله . عكاشة مات .

محدثه يقول له :

ـ مات شهيداً .

ترك الترزى المقص وانشغل باعداد القهوة للزبون ويقول لنفسه : كيف ؟! متى ؟!

الزبون يروى له مكملاً القصة :

ـ أستشهد من شهرين وأكثر . ولم تسمح الحكومة بدفنه . زوجته حفيت قدماها وداخت بين قصر اللواء عويس وحكمدارية الأمن بالجيزة ولا مجيب . مات المرحوم فطيساً مثل الفريق الذى يضيع جثمانه فى البحر ويأكله السمك .

يلعن ترزى الأمراء هذه الأيام ويهز رأسه ويضرب كفاً بكف ، قائلاً :

ـ شهيد ويأكل جثمانه السمك !!

ومال عليه محدثه قائلا :

ـ والأدهى والأمر ان الانجليز احرقوا جثته !! كفرة .

ويجيبه ترزى الأمراء قائلاً :

ـ العياذ بالله .

يشرب الزبون قهوته وجاء دور الترزى ليروى له شيئاً ، فيقول له :

ـ كان جالساً هنا يوم ضرب الانجليز محافظة الاسماعيلية . استمعنا نشرة الأخبار معاً ، وسألنى ما رأيك فى التطوع ياعم محمد ؟! قلت له : الجهاد فرض . قال لى : يسلم فمك ياأمير . وبعدها انطلق يغنى موال « يابهية وخبرينى » .. رحمة الله عليه . كان صوته أحلى من الراديو .

قال الزبون له :
ــ خرج من هنا الى الاسماعيلية .
قال الترزى له حزينا :
ــ لم يخبرنى . سلم على وسار كعادته .
ويضرب كفا بكف وصورة عكاشة وهو يساومه محفورة فى مخيلته . يراه جالسا فى الركن تحت الراديو بالفانلة والسروال الطـــويل ، ويحدث الترزى نفسه قائلا : ياحول الله . جاء يبيع الجبة والقفطان ويدبر نفسه ليتطوع . ويلتفت الى الزبون يسأله عن أهـل بيته ، والزبون يجيبه قائلا :
ــ زوجته لا تصدق انه مات . تنتظره كل عشية على ناصية درب الحبابية . ولن يصبرها سوى دفنه واقامة شاهد له .
قال الترزى له مؤيدا :
ــ واجب .
ترزى الأمراء اسطى فى مهنته ، أحسن مقصـــدار فى الجيزة ونواحيها . ضربة مقصه مشهورة . فنان . لا يضرب المقص الا اذا أعجبته القماشة وكان رائق المزاج خالى البال . فى هذه اللحظـــات يقترب من « الترابيزة » والمازورة على كتفه والمقص فى يده ، ويمصمص شفتيه قائلا :
ــ شهيد .
يبتعد عن « الترابيزة » وترتعش يده ، يهتز المقص ، ويزعق وهو يضغط على الكلمات كأنه يسمع أهالى الجيزة :
ــ عكاشة شهيد .
قتر معه يومها ونقده ستة جنيهات فى مقابل الجبة والقفطان ، وقال لنفسه نادما : له فى ذمتى تسعة جنيهات ، أسلمها الى زوجته . وسأل الزبون فى لباقة قائلا :
ــ أم حبيبة فى درب الحبابية فى العزبة .
وضع الترزى اسمها حلقة فى أذنه ، يسلمها التسعة جنيهات . لا يجوز أن يظلم أرملة . حقيقة هذه تجارة ، والمكسب من حقــه ، لكنه لن يكسب مليما من وراء شهيد .
دور الترزى المسألة فى نفسه وقال : لن يلومه أحد اذا ذهب اليها فى عزبة عويس وسلمها الأمانة . يقول لها هذه أمانة تركها الشـــهيد عندى ، ويسلمها تسعة جنيهات . هو أسطى مقصدار ويعرف قيمة

الرجال . عكاشة مغنواتي ، ودكتور ، أحسن من يزيل الكلو . يكشطه بالموس ، رأقا بعد راق ، بز الأطباء في سحب عين الديك من القدم .

يأتي له المصابون من العزب والقرى ، يرمحون خلفه ، يسترضونه، فيريحهم من متاعب الكالو . يأتون اليه وهم يعرجـــون ، فيقومون ويجرون ، لا الم ولا نقطة دم واحدة . عيناه بعشر عيون ، ويـداه بعشر أيد . حقيقة هو على نياته ، يسلم نفسه لمن يقوده ويرمح خلفه، لكن ذلك من طيبته ، ستة قروش لعين الديك ، وأربعة قروش للكالو العادى . وبعضهم يعطيه كيزان ذرة . والنبى لتعرج عزبة عويس من بعدك ياعكاشة !

يخطف رجله ويعزى ساعة الظهرية ، ويســلم الامانة ، والبلد من غير وزارة والملك فى الاسكندرية ، ولن يتعرض له أحد من المخبرين اذا توجه الى درب الحبايبة .

ودع زبونه وأغلق الحانوت وأتجه الى ميدان الجيزة ومن هنـــاك أخذ ترام رقم ١٤ المتجه الى الهرم لينزل قرب ألطالبية عند اليافطة المكتوب عليها : عزبة عويس .

فى الترام سمع الأفنديات يتحدثون عن الوزارة الجديدة فى حيرة ، فقد كلف جلالته لتشكيل الوزارة حسين سرى باشا والدكتور بهى الدين بركات باشا . وبدأ كل منهمـــا على حـدة اجراء مشـــاوراته بعيدا عن الآخر ، فأيهما سوف يفوز برئاسة الوزارة ؟! لا أحد يعرف .

وكانت اذاعة الشرق الأدنى قد اذاعت خبرا بالأمس مفاده أن أحمد عبود باشا قدم رشوة للملك بوســاطة اليـاس أندراوس باشا قدرها مليونا جنيه فى جنيف ثمنا لاقالة أحمـد نجيب الهـــلالى باشا . قال الترزى لنفسه فى الترام : « لا تحرير ولا تطهير » . ذهبت وزارة الهلالى باشا كما ذهبت وزارة النحاس باشا .

وسرح بعيدا والترام يقطع به شارع الهرم . كان قد بلغه خبر اعتقال عباس أبو حميدة بعد حريق القاهرة ، فقال لنفسه :

ــ من الواجب السؤال عنه . رجل !

اذا تعرض له مخبر أو غفير ، طرده عنه قائلا : من رئيسك ؟! البلد من غير حكومة !!

نزل على مقربة العزبة ، قرأ اليافطة وسار على الطريق المعبـد

المتجه الى الجنوب . الاهرامات الثلاثة على يمينه ومزارع المانجو على جانبى الطريق .

توقفت سيارة أجرة متجهة الى البدرشين ، فركب . هنا عرين الأسد . اللواء عويس يجلد الفلاحين بالسوط ، الصمت فضيلة ! اذا سأله أحد عن سبب مجيئه الى العزبة أجابه قائلا :

ـ للسؤال عن حضرة العمدة حمادة أبوجبل .

اخترق عم محمد الترزى العزبة من الخلف ، باحثـا عن درب الحبايبة ، حتى عثر على رجل عجوز من الدرب ، فسأله عن أم حبيبة. قاده الرجل الى دار عكاشة . فى الباحة نسوة جالسـات على الأرض يرتدين السواد . قال العجوز له :

ـ المعزى قائم لحين دفن الجثمان فى التراب .

قال الترزى لنفسه :

ـ شهران والمعزى قائم !

وما أن لمحته النسوة حتى انطلقن بالصراخ ووقفن يلطمن خدودهن نائحات . وتراجع الترزى الى الخلف وقد أفزعه الصراخ . لقـد هببن فجأة يلوحن بأيديهن .

نادى العجوز قائلا :

ـ أم حبيبة . تعالى .

تقدمت من الباب ثلاث نسوة ، امرأة سمينة تهتز وكأن قدميهـا لا تقويان على حملها وحولها اثنتان من الصبايا .

قال عم محمد الترزى وهو يخفض بصره :

ـ المرحوم ترك عندى أمانة قبل سفره ، ولا يأكل الأمانة الا ابن الحرام .

قالت له المرأة :

ـ تشكر .

ومد يده الى جيب الصديرى واخرج ورقة صغيرة ملفوفة وفى داخلها الجنيهات التسعة وناولها اياها ، واستأذن خارجا وهو يشد على يدها قائلا :

ـ شدى حيلك .

قالت النسوة بعضهن لبعض ، وأحد من الفدائيين أعطى صرة نقود لأم حبيبة . بلغ الخبر حضرة العمدة حمادة ابو جبل ، فهاج موبخـا

شيخ الغفر أبو جعفر ، وكان قد طلب منه وضع حراســـة على درب الحبايبة ، لكن بمرور الشهور أختفى الغفر .

أخطر حمادة أبو جبل حكمدارية الأمن بالجيزة بالواقعة ، فقــال له ملازم أول حسن طلعت ، اقبضـــوا عليه ، وأنا قادم فورا الى العزبة .

ونبه العمدة على الغفر بضرورة القبض على الرجـل الغريب ، فانطلقوا على الطريق العمومى كالوحوش .

وعندما لحق الغفر بعم محمد الترزى تعجب وضرب كفا بكف ، قائلا لنفسه : لابد أن البلد فيه حكومة ! كان يظن أنها اســـتقالت ..

(٢٨)

بدات الاجازات الصيفية لطلبة المدارس والجامعات وظهرت معظم النتائج فيما عدا التوجيهية ، فتزايدت مشاغل حضرة العمدة حمادة ابو جبل لتواجد المتعلمين بالعزبة طوال النهار .

ينتظر كرامة نتيجة شهادة التوجيهية فى قلق وترقب . صهد بؤونة سود وجهه وحرق جلده . شدته الأحداث السياسية منذ القبض على والده سرحان السقا ورميه فى السجن . يذهب الاستاذ سلامة أحمد المحامي بالبدرشين كل ليلة ، وفى النهار يقطع العزبة جيئة وذهابا . واذا أعوزته النقود ذهب الى منطقة الهرم ليرمح وراء الاجانب الذين تقل أعدادهم فى شهر يوليو ليبيعهم العاديات .

يقرأ الصحف ويتابع أخبار الوزارات واحدة بعد الأخرى ، بعد اقالة الوزارة الوفدية ، جاءت وزارة على ماهر باشا ، ثم استقالت فجاة ، وتولى أحمد نجيب الهلالى باشا وزارة اطلق عليها وزارة محاربة الفساد والرشوة ، لكنها لم تعمر ، وجاءت وزارة حسين سرى باشا ، وهاهى تستقيل ليصبح البلد دون وزارة .

وقد اشارت صحف اليوم الى اجتماعات هامة عقدت أمس فى الاسكندرية بين رئيس الحكومة المستقيلة حسين سرى باشا والدكتور حافظ عفيفى باشا رئيس الديوان الملكى فى مقر الحكومة الصيفى فى بولكلى بالاسكندرية وقد اعقبها اجتماع بين رئيس الوزراء ومحمد هاشم باشا وزير الداخلية وكريم ثابت باشا وزير الدولة .

وخاف كرامة من انتقال عائلة عويس باشا والأميرة جويدان الى الاسكندرية بسبب هذه الاجتماعات الهامة ، فيحرم من رؤيتها من بعيد (!) اسبوعان لم تغادر فيهما القصر . هو لا يهمه استقالة الحكومة أو بقاؤها فى الحكم . يشتاق فقط لبقاء الأميرة جويدان فى العزبة . وكان النبيل عباس حليم قد نشر فى الصحف بيانا اليوم بعنوان الميثاق الوطنى وقد ضمنه عدة بنود : تحقيق الاهداف الوطنية للبلاد بتحقيق الوحدة والجلاء . ثانيا : الغاء الأحكام العرفية فورا . ثالثا : اجراء انتخابات حرة بواسطة وزارة محايدة فوق الشبهات .

كرامة متعته قراءة الشعر وليس البيانات السياسية ، لكنه وجد فيه شيئا ايجابيا بالنسبة لوالده ، فاذا جاءت حكومة محايدة فسوف تفرج عن المسجونين ومن بينهم والده السقا .

بحثت زهية عن كرامة حتى وجدته على الطريق العمومى الى جوار الشجرة القريبة من القصر ، فتحسست بطنها وقالت لنفسها : ياحسرة علينا !! واخفت مشاعرها ورسمت ابتسامة علي وجهها واقبلت عليه قائلة :

ـ ياغائب لك زمان !

وبعدها أكملت مضبفة ، وهى تمسك بقصتها فرحة :

ـ الأميرة الصغيرة مريضة ياحبة عينى . لا طب ولا دواء نافع !!

اثارت انتباهه بكلماتها المفاجئة واستحوذت على مشاعره فكرة مرض الأميرة جويدان . كيف ؟! وضع يديه داخل جلابيته الواسعة، ونظر اليها نظرة فاحصة ليتبين صدقها من كذبها . فى قرارة نفسه يود أن يكون النبأ غير صحيح لكن شرفة جناحها مهجورة ، ولم تلق نظرة على حديقتها منذ أسبوعين . لابد أن تكون مريضة مرضا عضالا .

اقترب من زهية وهو يزجرها بعينيه ليحثها على الكلام ، وسأل :

ـ كيف عرفت يابنت ؟!

قالت له فى دلال :

ـ بوووه . هو فيه أسرار فى العزبة ؟!

هذه الشابة ليست سهلة · تضع الكلام فى موضعه وتصيب به اكثر من هدف . ود أن يقول لها : نعم . توجد اسرار . وما حدث بينهما على الترعة يجب أن يظل سرا بينهما · وتذكر تحذيرات أمه وعمته له من البنات اللاتى يكبرنه سنا ، وخاف من تهديدها له .

وعاد ثانية يفكر فى محبوبته الأميرة جويدان ، وسألها فى رقة هذه المرة :

ـ كيف عرفت ؟!

قالت له ضاحكة :

ـ كيف ؟! كيف ؟! هو تحقيق ! هم يراقبوننا ونحن نراقبهم . يعدون علينا خطواتنا ونحن نعد عليهم خطواتهم · هذه حقيقة · المهم الأميرة مريضة بمرض عصبى ، والاطباء ذاهبون قادمون الى القصر .

احس كرامة بقلبه يقع . يراقب القصر من بعيد لمدة اسبوعين وتأتى له زهية بالأخبار الخطيرة . يحلم برؤيتها . يحملها فى حضنه

ليسير بها عدة خطوات . ولا يطمع فى شيء أكثر من ذلك منهـــا . يلامس خده وجنتها ، ويلمسها بشفتيه ولا يقبلها . لمسة حنان فقط. دفقة احساس . هذه مشاعر انسانية تفوق الحب فى عذوبتهـــا . مشاعر تجعل القلب يفرح بالزهرة وهى تتفتح ، وبمياه البحر وهى تتدفق ، وبالهـواء وهو يهب وبالشـمس وهى تشرق ، وبالقمـر وهو يطلع ، مشاعر تربط عناصر الكون ومفرداته بنسيج شفاف لتجعل الكل فى واحد .

شظية خشب تضايق قدم كرامة داخل المركوب . هز قدمه عدة مرات والشظية عالقة بباطن المركوب . انحنى وتناوله وأخذ ينفضه بيده ، متاملا زهية . وجهها جميل . قوامها فارع ورشيق . انثى عفية . اما الأميرة جويدان فهى رقيقة مثل ورقة السيجارة . نسـمة ناعمة طرية . وقال لنفسه وهو ينزل مركوبه : اذا كانت الاميرة هى الروح ، فزهية هى الجسد . وقال لنفسه فى نذالة وخبث : لهـذا يتعين الجمع بينهما والفوز بهما معا .

عند هذه اللحظة استراح من حالة التمزق التى يعانى منها . وضع قدمه فى المركوب ونفضه ، وزاد احساسه بأنوثة زهية المتفجرة وقد لفحتها الشمس ، وود أن يرتمى عليها ، لكنه تماسك ، وأطل من عينيه شبق انعكس فى رقة صوته ، وشفت كلماته . قال مستفسرا دون سؤال :

ــ دخلت القصر يازهية ؟

أجابته :

ــ نعم .

لم يسألها هذه المرة ، كيف ؟! أو متى ؟! وقال لها :

ــ وماذا رأيت ؟!

أجابته وهى تتعجب :

ــ رأيت الجنة ياسى كرامة . اثاثات وأطقم ذهبية وسـجاد وتحف وثريات . مطابخ كلها خير . ثلاجات مليئة باللحوم .

كرامة لا يقصد بسؤاله هذه الأشياء المادية ، يسألها عن الأميرة الصغيرة ، لكنها تجاهلت مقصده ، وخجل من الالحـاح عليهـا ، فهذه الفلاحة متعلقة به ولابد أنها تحس بالغيرة من اهتمامه بالأميرة ، وقال لنفسه : صراع بين الجسـد والروح . الجسـد يقف فى مواجهته على الارض بينما الروح تقبع فى فراش وثير داخل القصر . ما علينا ! كيف

دخلت القصر ؟! لعله يتمكن هو الآخر من دخول القصر فى يوم من الأيام ، ولكن هيهات ، فسوف يقطع اللواء عويس باشا رقبته اذا خطى عتبة الحديقة .

رأته متلهفا ، فقالت له مبتسمة :

ــ القصر به طباخون وحاشية ووصيفات . ودخلت مع وصيفة صديقتى جناح الحريم .

بنت الحرام ! هؤلاء الفلاحات مثل الوطاويط ، يعلقن بالشىء فلا يتركنه ولا بالزمر أو الطبل البلدى أدركت أنه متعلق بالأميرة ، فسعت حتى نجحت فى دخول القصر لتلقى نظرة على الأميرة وهى نائمة أو وهى تتجول فى قميص النوم الشفاف . انتهكت حرمة القصر وفى صحبتها وصيفة . لا يعجزن عن شىء ، وكل شىء لديهن مباح . فليتودد هو الآخر الى قطامش أو عبد الواحد أفندى أو أبيس ، ليتسلل فى صحبة احدهم ذات مرة الى القصر ويحوم داخل غرفه الواسعة .

أين تنام الأميرة ؟ وأين تأكل ؟ وأين تستحم ؟ وأين تتبول ؟

ورق قلبه لزهية . سبقته ورأت ما لم تره عينه . سمعت ما لم تسمعه أذنه . لمست ما لم تلمسه يده . ليصحبها اذن الى الترعة لتروى له التفاصيل الدقيقة لزيارتها للقصر ومن فيه . لتكن هى عينيه وأذنيه ويديه . طلب مقابلتها على الترعة ليلا ، فرفضت قائلة وهى تتحسس بطنها :

ــ كلا ، كفى ما جرى لى !!

وبعدها استدركت قائلة وهى نادمة :

ــ قطع لسانى ياسى كرامة . تحت امرك .

قال لها :

ــ الليلة .

قالت معتذرة له بأدب :

ــ الليلة انا أبيت فى ساقية مكى .

قال لها فى جلافة :

ــ أبيت معك فى ساقية مكى .

تنهدت فى دلال واخذت نفسا عميقا . اخفت نصف وجهها بطرحتها ، وقالت :

ــ عيب ياسى كرامة .

قالتها فى حنية وكأنها تدعوه لصحبتها ، وفاته دلالها ، فعــاد الى حديثه السابق يسألها عن الأميرة جويدان . فطفرت دمعة من عينها اليسرى ، وانفجرت من الغيظ قائلة فى غضب :

ــ أميرة . أميرة . قطعت الأميرة وسنينها . ما أنا « برضه » أميرة ياسى كرامة . وهبتك نفسى ، وفاتحه لك قلبى ، وحافظـة سرك . . .

وتراجعت عن حدتها نادمة ومسحت دمعتها قائلة :

ــ نعم ، رأيتها .

ثم استكملت حديثها قائلة :

ــ والأميرة مريضة . مريضة .

أميرته صدرها لا يكفى لأرضاع طفل ، وحوضها ضيق ورحمها لا يتسع الا لصرصار . واذا جاءها الطلق احتاجت عشرة أطباء . يا ألف خيبة عليكم يا تلاميذ المدارس .

لن تقول له هذه الأشياء التى تعرفها النسوة . لتتركه على عماه . وتماسكت وقالت له فى سخرية :

ــ الأميرة مرضها عصبى . بتحب . والبركة فيك ياسى كرامة يا ابن سرحان السقا .

وقالت لنفسها ساخطة : آه منكم يا صنف الرجال . كلكم ملاعين ومن طائفة الحاج عمران المقاول . وخطت خطوتين مبتعدة ، ولكنهـا تلكأت . جاءت لتسأله عن أخبار عباس أبو حميدة فشغلها بالأميرة وأحوال الاميرة . التفتت اليه وسألته عن عباس أبو حميدة . فأجابهـا قائلا :

ــ عباس أبو حميدة مسجون مع الزعماء والباشوات . معتقل .

كانت تعتقد أن عباس مع السقا والشيخ سلامة ، فسألته :

ــ كيف ؟!

اجابها قائلا :

ــ عباس معتقل ، وتهمته قلب نظام الحكم بالقوة ، وســوف يفرج عنه اذا تغيرت الظروف . اما الباقون فمسجونون مع المجرمين والقتلة .

لم تفهم زهية تماما الفرق بين الاعتقال والسجن ، لكنه أراحها بقوله عباس مسجون مع الأكابر . وقالت لنفسها : يســتحق كل خير .

اكمل كرامة شرحه لها قائلا :
ــ عباس ابوحميدة اعتقاله مؤقت ، اما الهم والباقى على والدى . تهمته ثابتة والنيابة تقول انه أحرق نصف محلات شارع الهرم ، وانه فقد بصره فى اثناء أعمال الشغب .
قالت مشفقة عليه وعلى ابيه :
ــ مسكين !!
وبعد قليل ، قالت :
ــ نفوسة بنت الشامى ترفض زيارة زوجها وتعلن انها تعبت منه وسوف تطلب الطلاق فور خروجه من السجن ، والعمدة يحـــذرها من شد محام له . والنبى عيب .
تضايق كرامة لأنه لم يسأل عن عباس ابوحميدة وهو مدين له بحياته عندما انقذه من الموت على يد اللواء عويس باشا ــ كيف ينساه؟ وكيف تتنكر عزبة عويس لهذا الرجل على هذا النحو وكيف تطلب زوجته الطلاق وتهدد به ـ؟!
وعقد العزم على الذهاب الى الأستاذ سلامة أحمد المحامى فى العشية والاستفسار عن طريقة لزيارته فى المعتقل سرا .
قالت زهية حزينة :
ــ آه لو كنت رجلا ، او حتى متعلمة فقط لا رجلا . كنت ذهبت اليك ياعباس يا ابوحميدة فى آخر الدنيا . لكننى امراة وجاهلة . دابة ولامؤاخذة .
قال لها كرامة يطمئنها :
ــ لا تخافى . سوف أتصرف .
قالت له فى فرح :
ــ تسلم لى ياسى كرامة يامتعلم ياغالى . وتخبرنى ...
قاطعها قائلا :
ــ على شرط ...
وصمت . فقالت له مبتسمة :
ــ عارفه . عارفه والنبى .
بصباص مثل ابيه السقا . ابوه لا يضع يده الا على الصدر البارز مثل طبق القشدة ، ولا يحتضـــن الا العجيزة الغنية ٠ عشق أجمـــل نسوان العزبة . وانت يامتعلم ! خائب ! أميرتك لا صدر لها ولاعجيزة، لكنها غنية .
وقالت تناجى نفسها وهى تبتعد فى حسرة : حكمتك يارب ...

تحس السيدة بثينة عبد الجواد المفتشة السابقة لمادة التاريخ بوزارة المعارف العمومية بالقلق طوال اليوم لسبب غامض . فى الصباح قالت لنفسها : هذا يوم شديد الحرارة وشديد الرطوبة . وفتحت نوافذ الشقة لتهويتها ثم اغلقت شيش النوافذ لمنع الصهد من التسلل اليها وقد اشتدت الشمس فى الخارج .

يوم الثلاثاء هو يوم التنفيض وكنس الشقة ومسحها . وانشغلت فى عملها فور مغادرة ابنها الأصغر الشقة ثم توقفت عن العمل وجلست فى الصالة المعتمة وقد أحكمت أغلاق نوافذها خوفا من تسلل صهد الطريق اليها .

قلقة .

سرعان ما تغيرت حياتها ومضت أيامها . مات زوجها متأثرا بسرطان المعدة فى شبابه ، تاركا لها ولدين وبنتا واحدة . وتزوج ابنها الأكبر وغادر البيت ، ثم تزوجت ابنتها وانتقلت مع زوجها الى الاسكندرية ، ولم يبق لها من يؤنس وحدتها سوى ابنها الأصغر .

لم تصل خادمتها بعد لتعاونها . تغيرت هى الأخرى . فى حياة زوجها كانت تأتى اليها فى السادسة صباحا ثم أصبحت تأتى فى السابعة ، وبمضى السنوات لم تعد تحضر قبل التاسعة . انجبت هى الأخرى وانشغلت . والسيدة بثينة عبد الجواد تتفهم مشاغلها ولا تضيق عليها . وفى السنتين الأخيرتين وافقت أن تأتى اليها مرتين فقط فى الأسبوع ، الثلاثاء والسبت .

تناول ابنها الملازم أول اليوم افطاره على عجل ، ومبكرا عن موعده نصف ساعة . تبادل معها أحاديث عابرة وهو شارد الذهن . صنعت له القهوة بيدها فتناولها وهو ساهم .

هذا ابنها الأصغر وهى تعرفه . شروده ليس صدفة . اجابها بصوته فقط وكأنه عاشق متيم . وابتسمت السيدة بثينة عبدالجواد ،

ورفعت راسها ، وحركت يديها داعية له من قلبها ، وقالت لنفسها هذا يوم المنى .

أخوه الأكبر كان سارحا مهموما دائما قبل خطوبته . وابنتها كانت تخفى عنها مشاعرها قبل الزواج . تثور فجاة وتفرح فجاة . وتهتم بزينتها عدة أيام ثم تهملها لأيام اخرى ، وترقبها فى صمت . لكن ابنها الأصغر ـ آخر العنقود ـ أكثر انغلاقا منهما . ومن الصعب عليها سبر اغواره . له اهتمامات واسعة بالسياسة والتاريخ ، ومشاغل لا حد لها ولا آخر بأمور خارج الجيش .

فى الاسبوع الماضى ، أخرجت كتابا عن تاريخ الثورة الفرنسية من مكتبتها ، فتصفحه بعينين لامعتين وقال لها فرحا كالأطفال فى المدرسة :

ـ حرية . اخاء . مساواة .

قلبت كلماته فى راسها وهى واقفة ، وقالت له مكملة ، وهى أستاذة للتاريخ فى المدارس الثانوية لسنوات طويلة :

ـ واعدامات بالجملة ، وفوضى شاملة .

اجابها وهو يرفع راسه :

ـ للأسف . كل شىء له ثمن باهظ .

ونحت عنها فكرة انشغال ابنها بخطوبة أو زواج . فمنذ حريق القاهرة والسيدة بثينة عبد الجواد تساورها مخاوف مبهمة عن المستقبل ، ولا تشعر بالاطمئنان على ولديها على الرغم من أن ابنها الأكبر من كبار الضباط وله علاقات وثيقة بالسراى ، وربما لهذا السبب تشعر بالخوف وان كانت لا تصارح نفسها بهذه الحقيقة .

تسترجع حوادث يوم السبت الحزين من يناير الماضى وتحس بخوف عظيم على الرغم من مرور حوالى ستة أشهر . فقد اشتعلت الحرائق فى الوقت الذى كان فيه الملك مقيما لمادبة غداء لكبار الضباط فى قصر عابدين ، وكان ابنها القائمقام بين المدعوين بينما سحابات الدخان تظلل سماء القاهرة .

دارت بعدها مناقشات حامية بين الأخوين . اتهم ابنها الأصغر الملك بتدبير الحريق للتخلص من حكومة الوفد وضرب حركة المقاومة الشعبية فى مدن القنال . وابنها الأكبر يؤكد أن جلالته كان خائفا وقد فزع عندما وصلته انباء الحريق وليس من المعقول أن يحرق الملك عاصمة ملكه ليتفرج عليها وولى عهده عمره سبعة أيام .

يقول له غاضبا :
– رفض نزول الجيش ، وماطل حتى التهمت الحرائق وسط البلد .
فتؤيده السيدة بثينة عبد الجواد قائلة :
– يحرق البلد في عز الظهر ولا ينزل الجيش الا فى العشية .
فتحت المذياع واخذت تصغى الى الأخبار والتعليقات لعلها تسمع نبأ تشكيل حكومة أحمد نجيب الهلالى باشا الجديدة بعد استقالة وزارة حسين سرى باشا ، وهى تقول لنفسها فى وحدتها :
– اربع حكومات فى أقل من ستة أشهر .
وخفضت صوتها مكملة :
– والنبى الملك يعبث وصلاح معه حق .
أشعة الشمس تتسلل من شيش النوافذ المغلقة ونسمات رقيقة تصل اليها من الصالة البحرية ، فتاخذ نفسا عميقا وهى جالسة وكانها تزيح كوابيس عن قلبها .
أحست بتعب مفاجيء ، وقالت لنفسها :
– مادامت الشغالة تأخرت ، يكفى اليوم تنفيض الشقة ولا داعى لمسحها ، فهى نظيفة .
قاومت تعبها ، وقامت تنفض الأثاث بالمنفضة وتزيل الأتربة عنها بفوطة نظيفة وتعيد ترتيب الأشياء الصغيرة وتضعها فى مواضعها .
وفى حوالى الساعة الحادية عشرة رن جرس التليفون . ابنها القائمقام يطمئن عليها من الاسكندرية . أنهى ماموريته وسوف يعود الى القاهرة فى العشية .
ارادت أن تسأله عن أخبار تشكيل الوزارة الجديدة ، لكنها قاومت فضولها .
سافر ابنها الأكبر الى الاسكندرية منذ عدة أيام على عجل فى مامورية خطيرة تتعلق بانذار الملك لحكومة حسين سرى باشا بضرورة حل مجلس ادارة نادى الضباط خلال خمسة أيام والا اعتبر محمد حيدر باشا مفصولا من الجيش .
وقد شرح لها ابنها الأصغر تفاصيل هذه الأزمة والدور الذى يلعبه كبار الضباط ، معلقا :
– الملك يلعب بالنار ، ويعتقد أن الضباط مثل السياسيين يمكن السيطرة عليهم بالاغراءات والتهديد .
ولما أخبرها ابنها أنه عائد الى القاهرة ليلا استراح قلبها .

وانزاحت عنها غمة . لكن احوال ابنها الاصغر منذ قدومه من ثكنات الجيش بالعباسية متاخرا عن موعده بعد الظهر اليوم لا تبشر بخير ، سألها ساخرا :

ــ كيف حال حضرة القائمقام ؟!

أجابته فى اطمئنان قائلة :

ــ سوف يعود الى القاهرة فى العشية ، لعله أنهى مهمتــه بنجاح .

أجابها باقتضاب وهو يدخل غرفته :

ــ لعل من الأفضل له أن يقضى ليلته فى الاسكندرية .

الحقت عليه بالسؤال قائلة :

ــ لماذا ؟! لماذا ؟! اخبرنى !

قال لها ضاحكا :

ــ القيادات كلها فى الاسكندرية . الملك . رئيس الوزراء . حيدر باشا .

قالت له :

ــ آه .

كلماته غامضة ، يستدرجها فى الحديث لمعرفة اخبار اخيــه ، امس سالها متى يعود ؟! واذا سالته عن شىء راوغها .

قلب الأم دليلها . الخطر يحيط بها من كل جانب . ومعرفتهـا بالتاريخ تؤكد لها أن حريق عاصمة البلاد نهاية لعمر باكمله ، لكنهـا خائفة من الجديد الذى سوف يقام على جثث عديدة .

فى الساعة التاسعة ليلا وقعت الأزمة بينها وبين ابنها الاصغر . راته يرتدى ملابسه الرسمية ، فصرخت فيه :

ــ الى اين ياصلاح ؟!

اجابها فى رقة :

ــ مأمورية .

السيدة بثينة عبد الجواد أمضت عمرها فى رفقة زوجها الضابط وابنها القائمقام ، وتعرف كل شىء عن قواعد استدعاء الضــباط وشروط اعلان الطوارىء ، وليس من السهل خداعها .

انتابتها نوبة صراخ ، ابنها الأصغر يخدعها ، ملازم أول ، هؤلاء هم وقود حركات التمرد وضحايا خداع كبار الضباط واصــحاب المصالح .

هاهو التاريخ يتحرك امامها فى قسوة بالغة وابنها يخدعها ،

فشل فى اقناعها بالهدوء والتفكير فى روية ، تمالك أعصابه ، وصراخها يتزايد :
ـ اين اخوك ؟! أحادثه تليفونيا ثم أسمح لك بالخروج .
التاريخ لا ينتظر ولا يرحم . لحظة حاسمة . تحسس سلاحه . طلقة واحدة تخلصه من هذا العذاب . وقعت نظراتها فى لحظة واحدة على السلاح . صرخت :
ـ اقتلنى ولا تخرج فى هذه الساعة .
قال لها :
ـ كلا ، سوف اقتل نفسى ، انتحر .
تناول مسدسه . تراجعت . حماك الله لشبابك . مات الماضى!!
حملته فى بطنها جنينا تسعة اشهر . ارضعته من صدرها طفلا ، وها هو يقف أمامها شاهرا مسدسه . صلاح الطفل الذى كان يحبو امامها ويتعلق بملابسها مات !!
تراجعت وهى تبكى . تودعه وكأنه ذاهب الى هلاك . وقررت أن تأخذه بالحيلة . قالت له :
ـ مع السلامة .
غادر الشقة مسرعا فى طريقه الى صلاح الدقمية . واسرعت هى الى التليفون صارخة :
ـ محمود . تعال . اخوك لبس ملابس الجيش ونزل القشلاق .
قال لها مطمئنا :
ـ لا تخافى .
وعندما وضعت السيدة بثينة عبد الجواد سماعة التليفون ، كان السر قد ذاع ...

قال اللواء عويس لنفسه فى العشية متنهدا ، وقد نال منه التعب ، انتهى هذا اليوم بخيره وشره . قبع فى مكتبه فى السراى طوال اليوم يتابع أخبار تشكيل وزارة دولة الهلالى باشا الجديدة فى الاسكندرية . ببولكلى وقد استغرق تشكيل هذه الوزارة عدة أيام من المشاورات ، فى الوقت الذى تصاعدت فيه ازمة نادى الضباط فى القاهرة .

حلت الأزمات على خير . تشكلت الوزارة . واستقال اللواء محمد نجيب من رئاسة نادى الضباط نزولا عن رغبة جلالته .

قلب اللواء عويس عامر دائما بالايمان ، وعنده يقين بان العناية ترعاه وتسدد خطاه . رفع يديه الى السماء مبتهلا : ليكن يوم الثلاثاء هذا نهاية لكل المصائب التى حلت بى فى الشهور الستة الماضية . ماتت رفيقته مارجريت محروقة وتركته وحيدا . فشل مشروع مصنع المعلبات . توترت علاقته بزوجته الأميرة شويكار رفقى بسبب اموالها ومجوهراتها على نحو غريب . وتمنى الشفاء لابنته .

وافقت على استقبال صديقاتها بالقصر غدا الاربعاء . وقال له الطبيب : هذه علامة تحسن ، وخطوة كبيرة فى العلاج . فاستراح قلبه .

هاهى أوضاع الدولة تستقر ، وقد وعد دولة الهلالى باشا باجراء انتخابات جديدة وأعلان نتائج لجان التطهير ومكافحة الفساد . وهذه كلها عروض سياسية بارعة سوف تثبت العرش وتسحب البساط من الأعداء والمناوئين وتكشفهم أمام الشعب .

تخلف هذه المرة عن حضور مشاورات تشكيل الحكومة ، ومكث فى القاهرة لمتابعة ازمة نادى الضباط وبسبب مرض ابنته ايضا . وقد تعطف عليه جلالته وداعبه قائلا :

بلغ الأميرة شويكار رفقى تحياتنا . وقد امرنا ببقائكم فى القاهرة على مقربة من الأميرة جويدان فى اثناء مرضها . فربما تنسى سمو الاميرة ما حدث سنة ١٩٣٧ عندما رفضنا سفركم معها الى لوزان

للعلاج بسبب التعديلات الوزارية واقالة حكومة النحاس باشا .
لفتة كريمة من جلالته . آه هذا الملك يتمتع بذاكرة حديدية .
ولا ينسى مواقف الرجال . أعصابه قوية وله قدرة على تمالك مشاعره في المواقف الصعبة .
ثارت الدوائر السياسية في مصر والخارج بعد مذكرة السياسيين لجلالته في الصيف الماضي ، واضطربت دوائر الخارجية البريطانية لخروج المذكرة عن اللياقة ، لكنه لم يهتز ، وقال لمعاونيه :
ـ انني أعرف هؤلاء السياسيين واحدا واحدا . واذا كلفت احدهم بمهمة أو استدعيته لوظيفة قام باعبائها خير قيام .
وسرح بعيدا اللواء عويس وهو يقول لنفسه : خسارة ربع مليون جنيه على مائدة القمار في ليلة واحدة لا تؤثر فيه قيد انملة . ولعل قوة أعصابه مرجعها عشقه للعب القمار . وتمنى اللواء عويس أن يكف جلالته عن هذه اللعبة الدنيئة ، لكن الحلو لا يكمل ابدا كما يقول الفلاحون !! ولتكن مشيئته .
غدا الخميس تستقبل ابنته رفيقاتها في جناحها، لقد تولته العناية الالهية برحمتها . واذا كان قد حرم في الأسابيع الماضية من التجول في العزبة ومراقبة لوز القطن واوراقه وثمار المانجو . فليهرب الليلة الى الأميرة علية سيف النصر طلبا للراحة . في حضرتها يحس بفضل الله عليه . لقد وضعها الله في طريقه لتاخذ بيده وقت الشدة ، وتمده بالعون وقت الحاجة .
أمر سكرتيره الخاص عبد الواحد افندي بالبقاء في مكتبه حتى عودته الاتصال به في رقم خاص أعطاه اياه هو الرقم السري للأميرة علية سيف النصر . أنتهت متاعبه اليوم ، واستقرت الأوضاع ، لكن الحذر من حسن الفطن ، وربما تسأل عنه السراى فجأة لسبب ما ، فاذا كانت ازمة نادي الضباط قد انتهت كما أراد جلالته ووفقا لمشيئته ، فان أحوال صغار الضباط ليست على مايرام .
في طريقه الى قصر الأميرة بالزمالك كانت السماء صحوا ، والجو ينبىء عن ليلة حارة خالية من نسمة طرية منعشة ، فقد هجم الصيف هذا العام مبكرا عن موعده .
من التعب سوف يترك نفسه لها لتلاعبه وتدغدغ حواسه كما تهوى ، يوافقها اذا طلبت منه ان يتخلى عن ملابسه ويرتدي ملابسها لتغني له وتناديه باسم قطتها عزيزة . الأميرة علية سيف النصر كانت

عند قدومها من باريس شديدة التزمت والصرامة وتذكره بزوجته في شبابها . عابسة الوجه . لا تضحك . تتحدث التركية والفرنسية وترفض الحديث بالانجليزية . بعد أقل من عام في القاهرة تبدلت احوالها . شربت من ماء النيل وأرتوت وتفتحت مواهبها . أضحت نجمة حفلات . حصلت على ثروتها واستمادت أطيانها من الخاصة الملكية . وكان جلالته كريما معها فأمر باعادة ثروتها اليها كاملة غير منقوصة . ولم يكن القرار سهلا على رجال الخاصة الملكية ، لكن الأوامر هي الأوامر . والثروة فتحت شهيتها الى الحياة . جعلتها تكتشف شبابها وجمالها .

هو متعب . لكنه بين يديها يستعيد شبابه وحيويته . تحيطه بجو هادىء . نظرتها الى الحياة أصبحت أكثر عمقا وانسانية . هذبت من انتقاداتها لجلالته . قراءتها لجزء من مذكرات مارجريت فتحت عينيها ومهدت أمامها سبل الحياة السوية .

هذه ليلته .

أخذ يرتشف عصير الليمون على نغمات موسيقى هادئة في جناحها . قالت له :

ـ كيف حال صديقي اللواء عويس باشا ؟!

اجابها وهو يمد قدمه في استرخاء :

ـ على خير مايرام .

مدت يدها الى سترته وهي تربت عليه ضاحكة :

ـ أين اكسير الحياة يا باشا ؟!

مد فمه اليها متطلعا الى قبلة ، لكنها تحاشت أن تلمسه بصدرها أو تترك شعرها يلامس وجهه ، وحافظت على المسافة التي تفصل وجهها عنه ، فاذا حدق فيها في رغبة ، نحت وجهه عنها قائلة :

ـ عيب ياباشا .

أخرجت علبة الدواء من جيب سترته ووضعتها على المائدة ، وقالت له :

ـ الرجال الغاز . من شدة تلهفهم على الحياة يفقدونها فجاة .

قال لها في عفوية :

ـ الحذر من حسن الفطن .

سألته في لهفة :

ـ تحس بارهاق الليلة ؟

اجابها ضاحكا :

ــ انا امامك كالحصان .

الحديث حول المرض ووهن الجسد بين العشاق ليس محببا الى القلب . امتعض قليلا وبان تجهمه . ارتسمت على وجهه تقطيبة حادة قسمته الى قسمين متساويين وتهدلت شفته السفلى . بلونها الوردى والتصقت بها نقطة من لعابه . نحت وجهها بعيدا وبعدها قالت له فى دلال انثوى :

ــ غضبت ياقطة ؟!

قال لها :

ــ وزارة دولة الهلالى باشا الجديدة سوف تعمر طويلا . استجابت الحاشية لشروطه . وهذه ضربة قاضية للوفد .

أجابته بلا مبالاة قائلة :

ــ ربما ياباشا .

فقدت اهتمامها بالسياسة ، استغلقت الأمور عليها بعد غيبتها عن مصر عشر سنوات . ملت أحاديث الأميرات وقرينات السياسيين . بعيدا عن مصر يكون للأخبار دوى هائل . خروج قطار عن القضبان كارثة ، انقلاب مركب شراعى فى النيل مأساة . استقبال السفير البريطانى لأحد الزعماء حدث تهتز له الدوائر السياسية ويشغل المحللون السياسيون ورجال الصحافة ووكالات الأنباء انفسهم به . اما هنا فى مصر فكل شىء سائر الى ثبات . الحوادث لها وتيرة واحدة . كلمات النقد معروفة مقدما . أن أجرت الانتخابات حكومة محايدة فاز الوفد فى معظم الدوائر ، وأن أجرتها حكومة اقلية سقط النحاس باشا فى دائرته . حكومة وفدية ثم عدة حكومات اقلية ثم حكومة وفدية .

صمتا .

انشغل كل منهما عن الآخر . قالت له ضاحكة :

ــ قرأت بيان النبيل عباس حليم اليوم ياباشا . اخبرتك بمضمونه فى المرة الماضية لكنك لم تصدقنى .

قال لها فى لهجة كلها ثقة :

ــ سوف يدفع ثمنا غاليا لهذه الحماقة . شيوعى احمق !!

قالت له وهى تغمز بعينيها :

ــ امبراطور ايران وزع أراضيه على الفلاحين ؟ وأعلن عن ثورة اصلاحية ضخمة فى بلاده !

هل جاءت هذه الاميرة الشابة من باريس لتطالب بأراضيها

وتأخذها من الخاصة الملكية لتوزعها على المعدمين فيهجروها وتبور ؟!
ترتدى بلوزة وبنطلونا واسعا ولا تزين رقبتها بعقد أو تضع فى
أصابعها أو معصمها حليا . لعلها سبقت زوجته وجدته وهربت
مجوهراتها الى خارج البلاد . قال لها ردا على سؤالها :
ــ أمريكا تمارس ضغوطا على شاه ايران بسبب النفط .
قالت له غاضبة :
ــ كل مشكلة تدخل فيها أمريكا أو انجلترا ؟!
منذ قدومه الليلة حوارهما فاتر . تندد برأيه وبسياسات
الدولة بطريقة خفية . أخرج البايب من جيبه ودقق فى وجهها ،
لعلها متعبة اليوم . مواسم الحب عند الاناث لها مواقيت . هذه
أمور يعرفها الفلاحون . وضحك . وسأل نفسه : طبيب بيطرى
حضرتك ؟!
رن جرس التليفون . قالت له :
ــ لك ياباشا .
جاءه صوت عبد الواحد افندى :
ــ حضرة القائمقام محمود بك فهمى يرجو الاتصال به ويقول
انه توجد حركة غير عادية فى سلاحى المدفعية والفرسان .
وضع اللواء عويس السماعة . ماذا حدث ؟! أزمة نادى الضباط
انتهت . الوزارة شكلت . تمرد ؟! انقلاب ؟! تناول حبة ووضعها
تحت لسانه . صمت لحظة . خالها دهرا . كيف ؟! لماذا ؟!
وقام وقعد . وطلب رقما :
ــ آلو ، ماذا جرى يامحمود بك ؟!
جاءه الرد موجزا :
ــ صغار الضباط يتجمعون فى سلاحى الفرسان والمدفعية .
وفكر اللواء عويس قليلا ثم قال :
ــ اتصل برجال القيادة فورا .
سألته علية سيف النصر :
ــ ماذا جرى ؟!
أجابها وهو شارد الذهن :
ــ حركة تمرد فى سلاحى الفرسان والمدفعية .
قامت الأميرة علية سيف النصر وارتدت ملابس الفرسان

وتمنطقت بسيف قديم ورثته عن جدها ووقفت الى جواره حتى انتهى من مكالماته التى اتخذت لهجة آمرة .

هى أركان حربه . تمده بأرقام التليفونات وتتلقى له مكالمات وتسجل بيانات .

اتصالات بوزارة الداخلية . القيادة العامة . على بك نجيب . كل شيء هادىء فى مبنى القيادة العامة . واتفق الجميع على عقد اجتماع عاجل . لمحها اللواء عويس باشا وهى فى ملابس الفرسان . قال :

ـ فاتنة حسناء .

امسكت بالسيف فى يدها قائلة :

ـ الياباني ينتحر اذا خسر معركته من أجل الامبراطور .

ضايقته كلماتها ووجدها فجة . انه ياوران الملك ومحل ثقتــه . اخرج ورقة صغيرة من جيبه . وخط عليها عدة مواضع . معسكرات الجيش . القيادة العادة . قصر عابدين . الاذاعة . تأمل الطرقات التى تربط بينها . وقال لنفسه غاضبا :

ـ حماقة !! حماقة !!

هو ياوران الملك . وليست له سيطرة على قوات الجيش . واسرع بالاتصال بقائد قوات العاصمة قائلا :

ـ لا تضع البيض فى سلة واحدة .

اجابه الرجل فى سخرية :

ـ أوامر السراى هى التوجه الى القيادة العامة .

زعق اللواء عويس غاضبا :

ـ قيادات الجيش يجب أن تجتمع فى مكان امين .

قال له الرجل :

ـ القواد فى طريقهم الآن الى الاجتماع .

وضع اللواء عويس السماعة وهو يردد لنفسه :

ـ غلطة قاتلة !! غلطة قاتلة !!

جلست على ركبتيه تداعب ذقنه . تحيط رقبته بيدها وابهامها على عرقه النافر تقيس نبضه . قالت له :

ـ لا تغضبى ياقطة .

قال لها :

ــ هذه أمور يدركها عريف بالجيش . اذا وقع تمرد فى القاهرة يجب ادارة المعركة من الاسكندرية أو أسيوط .

فاتنة فى حضنه . أنثى وليست خائفة . يحس بثقلها . متينة البنيان . هذه ليست ليلته . قبلها . قالت له :

ــ جميلة ياقطة ..

سألها :

ــ خائفة ؟!

قالت له :

ــ عندى وظيفة . مترجمة فورية . عملت عشر سنوات فى باريس . واذا ضاقت بى الأمور أتزوج . اميرة سابقة . او اعمل مصممة أزياء . كلا ، عارضة أزياء أو ممثلة سينما . الست جميلة ؟!

الأرض تهتز تحت قدميه . كلمات جدته تتحقق . عاش أكذوبة السراى والجيش والقيادات . خاف . قال له اللواء حسين فريد رئيس اركان حرب الجيش :

ــ هذه زوبعة فى فنجان ياباشا .

تجاهله الملك فى التشكيل الوزارى الجديد . الم يكن احق من عديل جلالته بمنصب وزير الدفاع . هذه هى النتيجة .

التليفون لا يكف عن الرنين . السراى . حيدر باشا . مرتضى المراغى باشا . كلهم يسألونه عن الاخبار ولا يكلفونه بمهمة ما .

فضيحة ياعويس . علمت دوائر الدولة بوجودك الليلة فى قصر الأميرة علية سيف النصر . وبعد قليل تأتى الأميرة شويكار رفقى لتتأكد بنفسها . قال :

ــ يجب أن أذهب الى قصر عابدين .

قالت له :

ــ اهدأ ياباشا . انت معى فى أمان .

ــ عويس . اين انت ؟!

قال لها والأميرة علية سيف النصر جالسة على ركبتيه ؟

ــ هنا .

سألته قائلة :

ــ هل سمعت الأخبار ؟!

قال لها فى لهجة آمرة :

ـ نعم . نعم . كل شيء على مايرام . وانا اراقب الموقف من هنا . ومعى بعض القيادات .

قالت له :

ـ آشنقوهم فى الشوارع .

قال لها :

ـ طبعا .

وقام اللواء عويس . ودع الاميرة علية سيف النصر ، فاصرت على صحبته فى سيارتها الى مبنى القيادة العامة بحدائق القبة . قالت له ضاحكة :

ـ اقود سيارتك ياباشا . مهنتى الجديدة !

(٣١)

طار النوم من عيني السيدة بثينة عبد الجواد طوال الليل ، وفى الصباح أدركت انهـا ارادت انقاذ ابنها الاصـغر المـلازم أول فأوقعت ابنها الأكبر القائمقام محمود بك فهمى فى مصيبة .

فى الساعة السابعة صباحا استمعت الى بيان هام من الاذاعة ، ولم يستوقفها فى البداية الا الفقرة التى قال فيها البيان : أما من رأينا اعتقالهم من رجال الجيش السابقين فهؤلاء ، لن ينالهم ضرر وسـيطلق سراحهم فى الوقت المناسب . وانني أؤكد للشعب المصرى أن الجيش اليوم أصبح يعمل لصالح الوطن ..

استمعت الى البيان واستوقفتها كلمات « رجال الجيش السابقين المعتقلين » ابنها القائمقام محمود بك فهمى ضمن هؤلاء المعتقلين .

اخذت تسترجع كلمات البيان فى وحدتها وتذكرت : عـوامل فساد وتآمر . آه ، حركة تطهير فى الجيش كالتى يقوم بها دولة الهلالى باشا فى دواوين الحكومة لمكافحة الفساد والرشوة .

لم يتغيب ابنها الأصغر أمس طويلا ، عاد . خلع ملابسه وارتدى بيجامته ووضع مسدسه أمامه على المائدة وجلس صـامتا . داعبته حدثته . حنت عليه . قال لها :

ــ لست أمى . وأنا لست أبنك .

ولما تأخر ابنها الأكبر عن بيته ، وسألتها عنه زوجته ، خافت عليه ، لجأت الى صلاح تستحلفه بكل عزيز أن ينطق ويريحها . ماذا يجرى فى الجيش ؟!

لاذ بالصمت . ولما بكت ، قال لها :

ــ سوف تبكين طول العمر . غدا اتهم بالخيانة . أعدم . وحضرة القائمقام يتهم بالفساد . ويسجن . وضعت الحبل فوق رقبتى !!

قسوة لم تعهدها منه . سجن . اعدام . خيانة . فساد . مات زوجها وهاهى تفقد ولديها وهم أحياء . ماذا يتبقى لها فى هـذه الدنيا ؟! بكت . يضع السلاح بينه وبينها .

فى الصباح راودها ندم لمنعها ابنها من الاشتراك فى هذه الحركة . قالت له :

ــ ياصلاح ياابنى الحركة نجحت . اخرج أبحث عن اخيك . اسأل أصحابك .

نجـاح الحـركة عنده اهم من تخلفه . خرج أمس لا يسعى لمجد أو

شهرة . حكمت عليه أمه لفرط حبها له بالموت الأدبى . حمـــاقته وصلت الى حد الخيانة وكادت أن تودى بالجميع . قال رفيق له امس منفعلا ، وقد صارحهم بما جرى من أمه :

ــ خائن !

وقال له آخر :

ــ رشاد مهنا آخر :

هذه ليست نزهة . ثورة . دم . بكى بين يديهم قائلا :

ــ اقتلونى .

نصحه صديق له بسرعة العودة الى البيت ومحاولة طمأنة أمه واقناعها بعدم الاتصال بأخيه القائمقام محمود فهمى ، فهذا أجدى للحركة من موته . عمل بالنصيحة لكنه تبين فور عودته أنه امه أخبرت اخاه . قتله لأخيه لن يجدى شيئا . كشف سر الحركة بسبب حماقته واستهتاره .

التاريخ تصنعه صدف صغيرة . وسوف تقول كتب التـــاريخ فشلت حركة الجيش المصرى سنة ١٩٥٢ بسبب الملازم أول صلاح فهمى والسيدة بثينة عبد الجواد . دفاعه عن مبادئه دفعه للبقـــاء على قيد الحياة أمس . يود الاطمئنان على نجاح الحركة ويموت بعدها . ولا يهمه بعدها ما تكتبه كتب التاريخ .

اذاعة البيان فى الصباح تعنى أن الحركة قد ســـيطرت على مبنى الاذاعة . نجحت . قام الى النافذة يرقب حركة الطريق . كل شيء يسير سيره المعتاد . نجحت الحركة . لن يتهم بالخيانة .

امه أصبحت مشغولة بأمر اخيه ، تقول له :

ــ أصحابك . اسألهم عن اخيك .

قال لها غاضبا :

ــ لو تركتنى أمس دون ضجة ، لكان لى نفوذ بينهم . كنت افرجت عنه .

قال له رفيق أمس :

ــ السيدة والدتك ليست دمشقية .

وأكمل ضاحكا :

ــ السوريون يقسمون ابناءهم ، واحد مع الثورة وآخر ضدها . ويضمنون بذلك بقاءهم فى الحكم .

قال له آسفا وتهمة الخيانة تعذبه :

ــ للأسف . دمياطية .
وقال له آخر :
ــ بخيلة . ضنت بولديها فضيعت السلطة .
تشغل نفسها بابنها ونسيت حركة التاريخ . آه ، انتهى دوره . لن يتصل به أحد بعد اليوم . مات . ودخل الى غرفته يسعى للنوم . قرب الظهر قدمت مجموعة من رفاقه فى سلاح المدفعية ودقت الباب . قام اليهم ليسلم نفسه معترفا بتهمته .
احتضنوه . يقبلونه . ماذا حدث ؟!
قال له أحدهم :
ــ سأل عنك جمال عبد الناصر اليوم ، ولما عرف القصة ، ضحك ، أبدى اعجابه بحضرة الناظرة . وقال احضروه فوراً .
قال الملازم أول صلاح فهمى فى شبه ذهول :
ــ حضرة البكباشى جمال عبد الناصر طلبنى ؟!
علم القصة من الرفاق . صدفتان أنجحتا الحركة . تسرب خبر الحركة بواسطة القائمقام محمود فهمى الى اللواء حسين فريد وجمعة لضباط القيادة ، والصدفة الأخرى تحرك البكباشى يوسف صديق بكتيبة مدافع فى الساعة الحادية عشرة بدلا من الساعة الثانية عشرة ، وفى طريقه الى مبنى القيادة العامة أعتقل اللواء عبد الرحمن مكى قائد الفرقة ، وعند مشارف مصر الجديدة أعتقل الأميرالاى عبد الرؤوف عابدين قائد ثانى الفرقة ، وفى الطريق التقى بجمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ، فعدلت الخطة وتقرر اقتحام القيادة والقبض على المجتمعين .
سأل الملازم الأول صلاح فهمى فى خجل قائلا :
ــ البكباشى جمال عبد الناصر غاضب منى ؟!
قال له الرفاق :
ــ هيا معنا .
فى مبنى القيادة التقى به البكباشى جمال عبد الناصر . نظر فى عينيه نظرة فاحصة ، وقال له :
ــ أزيك ياصلاح ؟ من اليوم فى مكتبى .
وقف « انتباه » وهو يؤدى التحية العسكرية ويقول :
ــ حاضر . افندم .

اظلمت الحياة فى وجه الأميرة شويكار رفقى . ليلتان عصيبتان لم يغمض لها فيهما جفن . ويومان لم تذق فيهما شيئا يذكر من الطعام . أغلقت عليها باب غرفتها وكفت عن النزول الى البهو .

ضاقت فى وجهها السبل ، وعجزت حماتها فاطمة هانم زادة عن معاونتها فى الخروج من ازمتها . احتارت بين البقاء فى قصرها فى عزبة عويس ، وبين الهرب الى الاسكندرية للبقاء فى كنف جلالته ، وقد نحت عن ذهنها بصفة مؤقته اللجوء الى الملكة السابقة فريدة أو احدى بناتها فى مثل هذه الظروف العصيبة التى تمر بها البلاد . لا تود أن تقابل كلماته الرقيقة التى أرسلها لها مع زوجها فى الأسبوع الماضى بتصرف يخرج عن باب اللياقة .

ألقى القبض على قادة الجيش وكبـــار الضباط وهم يؤدون واجبهم فى الدفاع عن مصلحة البلاد . وزوجها الرجل الوحيد بين الرجال الذى يقبض عليه في سيارة مع امرأة في وضع مخجل ـ يمارس معها الحب علانية فى العتمة على مقربة من مبنى القيادة . ومع من ؟! مع قريبتها الأميرة علية سيف النصر التى توسطت من أجل الافراج عن ثروتها ، فردت جميلها باختطاف زوجها .

قالت لها فاطمة هانم زادة لتخفف عنها :

هذه هوجة مثل هوجة عرابى باشا . الحقيقة غائبة . كل جانب ينهش الآخر . غابة .

الأميرة شويكار تحدثت اليه قبل القبض عليه فى قصرها . التهمة ثابتة . وقالت لها فاطمة هانم زادة ضاحكة :

ـ ان كان موجودا فى قصرها قبل القبض عليه فلماذا يأخذها الى القيادة فى سيارة ؟! لابد انه كان ينفذ خطة سرية لاقتحام القيـادة والسيطرة عليهـا • هذا هو صـوت وعقـل أميرة • الغيرة فى هـذه الظروف غير معقولة . غير معقولة .

حقيقة ما الذى يدفعه لممارسة الحب معها فى المتعة داخل سيارة اذا كان يتردد عليها فى قصرها ؟ هذه فرية . تهمة كاذبة .

طعنة لها ، واذا كانت الأيام قد علمتها أن تغض النظر عن علاقاته العابرة مع فتيات الطبقات الراقية ، فهذه المرة الفضيحة على كل لسان .

تراها فى عيون الوصيفات وتسمعها فى رنة صوتهم . القبض على اللواء عويس على محمد باشا ياوران الملك فى صحبة فتاة من العائلة المالكة فى وضع مخل بالآداب على مقربة من مبنى القيادة ليلة الحركة . الافراج عن الأميرة بضمان محل اقامتها والتحقيق مع ياوران الملك بتهمة الاخلال بالآداب .

ياعويس . كيف تقابل مولاك بعد هذه الفضيحة ؟! حركة تمرد واسعة فى الجيش بقيادة عرابى آخر وانت فى أحضان اميرة . واين ؟ على قارعة الطريق مثل الكلاب ؟!

متلاصقان . متداخلان . يتهامسان . وابتسمت . قالت لنفسها: لعلهما يمثلان فيلما : « الحب تحت طلقات النيرآن » . بالقوة أعصابك وهدوء بالك يا عويس ! الدبابات تندفع نحو مبنى القيادة وهديرها يصم الآذان ... وانت .. وتوقفت عن التفكير . أبعدت عن عينيها صورة زوجها وهو يمارس الحب مع امرأة أخرى .

جدته فاطمة هانم زادة مشغولة بما يجرى على الساحة . اجرت عدة اتصالات مع الأمراء والأميرات والسرأى . تحدثت الى حمدى بك طويلا حول قضية مجوهراتها .

وهى لا تزيد عن كونها انثى طعنت من الخلف . وقررت الخروج من عزلتها . فما ينتظرهم أعظم . تماسكت . ابنتها فى حاجة اليها وثروتهم فى حاجة لمن يحافظ عليها .

طوال يومى الأربعاء والخميس كانت العائلة المالكة باكملها يسودها الاضطراب والخوف من تكرار مأساة الخديو توفيق ودخول الانجليز الى القاهرة . لكن اسناد رئاسة الوزارة الى رفعة على ماهر باشا رئيس الديوان الملكى السابق خفف من التخوفات . زوجها على علاقة طيبة به ولن يسمح على ماهر باشا بتركه فى السجن مع القوادين وتجار المخدرات .

وبحلول يوم الجمعة كانت الأمور قد اتضحت . ضباط الجيش لهم مطالب تخص الجيش . وتقبلت الأميرة شويكار رفقى القبض على زوجها باعتباره امرآ محتما .

قال لها حمدى بك :

ـ الحمد لله حركة الضباط محدودة .. ليست ثورة شيوعية والا كانت احرقت الأخضر واليابس . ضباط صغار لهم مطالب برجوازية . حلم الواحد منهم سيارة وثلاجة وشقة فى سيدى بشر . وغدا تحقق الحكومة مطالبهم .

سألته عن رأى أصدقائه فى السفارة الأمريكية ، اجابها قائلا :

ـ جميع من تحدثت اليهم من الدبلوماسيين الأجانب فرحون بما تم . وينتقدون جلالته لتحديه السافر لمشيئة الضباط بتمسكه بحسين سرى عامر والغاء الانتخابات وتعيين أسماعيل شرين وزيرا للدفاع .

سألته وهى ترمى بصرها الى حدائق المانجو ، والأراضى الزراعية!!

قال :

ـ المسألة الزراعية قضية معقدة ، ورفعة على ماهر باشا له راى معروف فيها ، واذا وقع خلاف بين حركة الجيش ورفعة على ماهر باشا فسوف يكون بسبب المسألة الزراعية .

وقال حمدى بك لنفسه متعجبا : أنضجتها تجربة القبض على زوجها . مر يومان عليها فشغلت نفسها بالسياسة للدفاع عن مصالحها .

وعرج حمدى بك الى موضع اخيه الذى يقلقها قال لها :

ـ عندما وصلت اخبار الحركة الى اخى ، أسرع الى قصر الأميرة علية سيف النصر ، وجمع الضباط ، وقرروا مهاجمة مبنى القيادة العامة ، ونجح بعضهم فى التسلل الى داخلها ، لكن كتيبة دبابات كانت قادمة عليهم ، فانتحى أخى بالسيارة الى جانب الطريق ، وطلب من الأميرة علية أن يمثلا دور عاشقين ليست لهما علاقة بالأحداث ، غير ان ضابطا صغيرا تعرف على شخصيته وهو يفتشه . ووجود الأميرة علية الى جواره انقذه من موت محقق ، فقد كانت الأوامر لدى الجنود تقضى باطلاق النار على كبار الضباط .

وبعدها همس فى اذنها :

ـ كان على وشك القضاء على الحركة فى مهدها ، لكن الحظ لم يحالفه .

تنهدت الأميرة شويكار رفقى . اقنعت نفسها بالحكاية . وقالت لنفسها : بطل . يحزنها انها لا تستطيع ترديد هذه القصة على مسامع الوصيفات والأميرات فقد تسىء الى موقف زوجها . تهمة العشق اخف وطأة من تهمة مقاومة تمرد ناجح أو ثورة يحالفها الحظ .

وملأ الغرور قلبها وهي تحس بأنها تعرف سر ما حدث . لكنها تكتمه خوفا على زوجها . تضحى بكرامتها فى سبيل سلامته . هذا هو دور الزوجة .

قال لها حمدى بك :

ـ أخبرنى أحد الضباط أنه سوف يفرج عنه قريبا . بسبب عدم مقاومته . خدعهم . مثل دور العاشق الولهان .

قالت لنفسها :

ـ آه .

اقتنعت الأميرة شويكار رفقى بما رواه لها حمدى بك عن أخيه وحكمته . وفى الواقع لم تكن لديها الشجاعة لرفض هذه القصة ، فقد انقذتها من عذابات فظيعة حطمت أعصابها ليلتين كاملتين . بقى عليها أن تقنع ابنتها جويدان بها .

من حسن حظها وجدت ابنتها غير مهتمة بما ذاع وانتشر عن والدها . قالت لها غاضبة :

ـ الرجل لا يعيبه شىء .

صمتت الأميرة شويكار برهة وقالت لها فى انفعال :

ـ لكن يعيبنى أنا ؟ زوجته .

ماذا حدث لابنتها ؟ قال الطبيب لهم يوم الثلاثاء أن حالتها قد تحسنت كثيرا . ربما هزت الأحداث أعصابها مرة أخرى . تتحدث اليها مثل الوصيفات أو الفلاحات . تماسكت قالت لنفسها : الفتاة صغيرة . لا تدرك عمق العلاقة التى تربط الزوجة بزوجها .

قطعت الأميرة جويدان الصمت الثقيل الذى لف والدتها . قالت حزينة :

ـ غدا يكتبون عويس باشا كان يجلد الفلاحين بالسوط بيده ويعذبهم . يحرقهم بالفحم المشتعل . يستولى على نسائهم . يقتل رجالهم . يصادر أراضيهم . يحرمهم من المياه . سيصادرون هذا القصر . يحولونه الى مدرسة أو مركز بوليس . هذه ثورة يا أميرتى . لا تصدقى كلام عمى .

ابنتها متعلمة فى الجامعة الأمريكية . وقد درست الثورة الفرنسية دراسة عميقه . ثورة كمال أتاتورك فى مخيلتها . عاشتها يوما بيوم . بدات بدعاوى اصلاحية وانتهت بطرد السلطان عبد الحميد واعلان الجمهورية . معها حق . هذه أفكار جدتها فاطمة هانم زادة . عناد

الأميرة شويكار رفقى ورثته عن أبيها ، وفى المواقف الصعبة لا تستسلم بسهولة . فقالت لابنتها :

ــ غدا مولانا يعين اللواء محمد نجيب رئيسا للوزراء وتنتهى المشكلة .

قالت لها الأميرة جويدان :

ــ الملك سرقته السكين . أنتهى امره .

قالت لها فى استياء :

ــ كيف ؟!

اجابتها فى برود وهى جالسة على فراشها :

ــ فاروق انتهى .

صرخت الأميرة شويكار رفقى صرخة مكتومة محملة بالحزن . قالت لنفسها : أين امراء العائلة المالكة ؟! عليهم الدفاع عن العرض . هذه ثورة بلشفية .

قالت الأميرة جويدان :

ــ هذا عصر جديد . عصر حمادة أبو جبل . عباس أبو حميدة . سرحان السقا . كرامة . زبيدة شمورجى كالفة . أبيس . عبد الواحد أفندى قطامش .

قالت الأميرة شويكار رفقى آسفة :

ــ هؤلاء . خدم ، عبيد .

أجابت الأميرة جويدان . وهى شاردة . عيناها ساهمتان . قالت بصوت خفيض وكأنها تحدث نفسها :

ــ فلاح عكاشة قتل أورطة من الانجليز . خدعنا جميعا .

حل عليهما الصمت مرة ثانية . صمت ثقيل . وفجاة اهتزت اركان القصر من العويل . أنطلق الصراخ مرة واحدة وكأن نيرانا جهنمية اشتعلت فيه . هبت الأميرة جويدان من فراشها وهوعت الى البهو . رأت الوصيفات يمزقن ملابسهن ويندبن والرجال يبكون . ماذا حدث ؟! ماذا جرى ؟!

لحقت بها أمها . يبكون . يصرخون . يرتمون على الأرض فى جنون . لكنهم لا يتكلمون . صراخهم الذى يهز القصر اثقل من صمت القبور . لا يفصحون .

وجاءت الاجابة من المذياع الصغير ، وصوت المذيع يعلن : لتنازل جلالته عن العرش لولى العهد سمو الأمير أحمد فؤاد الثانى ، وغادر البلاد على يخته المحروسة فى الساعة السادسة مساء .

(٢٣)

ثلاث ليال كان النوم فيها لماما · قطفات قليلة من النعاس تختطف خطفا بين نوبتجية واخرى بعيدا عن البيت. يقظة دائمة باعين مفتوحة. ذهن صاف . تكليفات عاجلة . قرارات سريعة . شريط هائل من الأحداث المتنوعة .

يتأمل اليوزباشي انور عرفة ما يجرى حوله منذ مساء الثلاثاء ولا يصدق أن الساعات القليلة التى مرت به قد حملت بهذا القدر الهائل من الانتصارات الحاسمة .

تنازل فاروق عن العرش لابنه الرضيع ، وغادر البلاد فى الساعة السادسة مساء . من كان يصدق ؟! حلم .

آوى الى فراشه مبكرا هذه الليلة ، فقد حققت الحركة المسلحة هدفها الأول ومهدت الأرض لبقية الاهداف . راسه على الوسادة . وطنين فى اذنيه ، وعيناه المتعبتان تجرى امامها الصور فتمنعه من النوم .

وضعه البكباشي يوسف على نقطة حراسة لقطع الطريق بين العباسية ومبنى القيادة العامة قبل اقتحامه لها ومعه عدة جنود لاعتقال كبار الضباط بالقوة عند قدومهم الى مبنى القيادة .

وعلى مقربة من مبنى القيادة وجد الجنود سيارة بها رجل وسيدة جميلة جداً وبتفتيشهما وجد مع السيدة سيف الرى وقد ظنه الجنود فى البداية مدفعا . وسعى الجنود للاعتداء عليهما . زنى . نجاسة فى ليله مفترجه · علامه شؤم · قتلهما حلال ·

نظر اليه فى العتمة على ضوء السيارة ، عرفه ، ساله :

ــ اللواء عويس باشا ياوران جلالة الملك ماذا يفعل هنا مع سمو الاميرة علية ؟!

أجاب الرجل فى غلظة :

ــ ساعه حب فى ليلة قمرية .

فى تلك اللحظات ، كان البكباشي جمال عبد الناصر ومعه عبدالحكيم عامر يرقبان مبنى القيادة من الخارج ، فعلم بالامر ، وقال له :

ــ ماذا يفعل اللواء عويس باشا هنا ؟!

روى له القصة ، فاستمع اليه ضاحكا ، وقال له :

ــ آه ساعة حب !

وبعدها قال له :

ــ يخطر الديوان الملكي بالواقعة ويتحفظ عليهما .

وبعدها اكمل ضاحكا :

ــ بعيدا عن بقية الضباط الكبار . هذه قضية آداب ! ياور الملك مع اميرة من العائلة المالكة ، فضيحة !

وسط زحمة الأحداث نسى اليوزباشي أنور عرفة حكاية ياوران الملك والأميرة . فبعد اقتحام مبنى القيادة ، انطلق للقبض على قواد الوحدات في منازلهم وبعدها ذهب في صحبة مجموعة ضباط للقبض على قيادات وزارة الداخلية شمال القاهرة .

البكباشي جمال عبد الناصر داهية . في الوقت الذي يعد فيه العدة لطرد الملك ، يتصرف وكأن الملك باق ويطلب منه توجيهات بشأن واحدة من قريباته ليبعث الاطمئنان في قلبه الى حين ارسال القوات الى الاسكندرية .

وبين اليقظة والمنام يطوف خيال الأميرة علية سيف النصر بقوامها الفارع به . ويسأل نفسه : اين تحفظ عليها ؟! ليتها تأتى لترقد الى جواره في هذه اللحظات .

شاعت القصة بين كبار الضباط وكانت مثارا للسخرية بين أمراء العائلة المالكة : وانتفض اليوزباشي أنور عرفة في نومه مذعورا ، ماذا كان يحدث اذا فشلت الحركة لاقدر الله ؟! كان سوف يقال : اقتحم ياوران الملك وأميرة من أميرات العائلة المالكة مبنى القيادة بسيف قديم واعتقلا صغار الضباط المتمردين .

وبين اليقظة والمنام يسأل اليوزباشي أنور عرفة نفسه قائلا : هل كان اللواء عويس يمارس الحب حقيقة مع الأميرة لحظة القبض عليه أم هي مؤامرة واسعة وقد قدما للتجسس على مبنى القيادة ؟!

ويرد على نفسه بعدها : هذا البكباشي جمال عبد الناصر داهية . افشل خطتهما الدنيئة واساء الى سمعتهما الى الأبد واستغل الواقعة لخداع الملك ورجال الديوان الملكي .

وبين اعجابه بجمال الأميرة وحقده عليها غلبه النوم ، فنعس ....

الاذاعة كلها أناشيد أفراح . والصحف كلها أخبار وتعليقـــات .
وبسمة اللواء محمد نجيب لها سحر فى النفوس . كلماته حنونة دافئة
ومن قلبه صادرة . واشارات يده وهو يلوح بعصاه للجماهير نداءات
محبة . وجهه الأسمر الوسيم المليء بالرجولة والصدق جعله أبا لكل
المصريين والسودانيين .

حمل عصاه تحت ابطه وصعد الى يخت المحروسة وودع جلالته
فى طقس مهيب اختلطت فيه مشاعر الأسى بالفرح . من كان يظن ان
الملك يسافر مطرودا الى غير رجعة ويتنازل عن العرش الى ابنه الأمير
احمد فؤاد .

يدور كرامة ابن السقا فى العزبة متأبطا صحف الصـــباح التى
تصـــل متأخرة ، ملتهما كل سطر منها ، باحثا عن أخبـــار قاتله اللواء
عويس باشا وصحبه فرحا لما جرى لهم وقد أعتقلتهم حركة الجيش
وزجت بهم فى السجون .

يحوم حول القصر وقد ارتفعت الأسوار واختفت الواجهة الفرعونية
والاعمدة التى صممت على شكل زهرة اللوتس باحثا عن الأميرة الصغيرة
جويدان التى جلد بسبب الحديث اليها مائة جلدة . توقف عن الذهاب
الى المدرسة شهرا . اتهم والده بحريق القاهرة وفقد بصره . كل هذه
المصائب حلت به من أجل عدة كلمات بريئة تبادلها معها وقد التقى
بها صدفة تحت الهرم .

لابد أنها تجلس الآن حبيســة فى القصر ، خائفة ، وقد أضـــحى
كقلعة لا منزل ، واذا خرجت فى سيارتها سوف تشير الأيدى اليها :
هه . هذه ابنة ياوران الملك السابق .

قال له عباس أبو حميـــدة ســاعة فك وثاقه : هذا صراع تاريخى
يابنى . لكنه تحت وطأة آلامه لم يفهم كلامه . وقد انحسر الكون
داخل جلده الذى مزقته ضربات السوط ، فغابت عنه حقـــائق
التاريخ والجغرافيا أيضا ، وأضحى أسيرا لعذاباته الشـــخصية
وانسحاقه ، لكن ها هو التاريخ يعمل لصفه وينتصر له ، ومن جلده
يذوق عذابات السجن مع المجرمين والأوباش .

وجلس كرامة فى نهاية الطريق على مقربة من القصر فى ظل شجرة وارفة الظل يتأمل تقلبات الأيام ، يضحك ، وهو يتخيل والده السقا فى ملابس السجن ويعلق حمامة على صدره ويقول للمساجين : شوى اللواء عويس البغبغان واعاده من يعيد الحياة ، أو : درويش فى أرض الله ومجذوب الى نوره . ويروى لهم قصة اللواء عويس وابيه على محمد باشا الأعرج من طقطق الى سلام عليكم ، وكيف جلد ابنه مائة جلدة لأنه تجرأ وتحدث الى ابنته الأميرة جريدان .

فيقولون له : قطعت يده .

زار والده فى سجن طره فى الأسبوع الماضى بعد طرد الملك . ووجد المساجين فى خدمته . اعمى ، فقد بصره من أجله . ضحية من ضحايا اللواء عويس . نصحه صديقه رشاد الترجمان بنشر قصته فى الصحف ، لكنه رفض ، هذه فضيحة ، فكيف يعترف انه علق الى شجرة وضرب بالسوط ؟! فنصحه بنشر قصة والده ، فرفض أيضا .

قال له : هذه ليست قضية شخصية . لكنه لم يقتنع بكلامه ، فهذه قضية شخصية ، واذا لم يكن جسده قضية شخصية ، فماذا يتبقى له ؟ وتلمس ذراعيه وصدره ورقبته وشعر راسه . لا يمكنه فصل نفسه عن جسده . واذا اعترف انه ضرب بالسوط فقد أهان نفسه .

فى جلسته تحت الشجرة يراقب الفلاحين وهم يحملون الحجارة على ظهورهم ويرمحون داخل القصر لتعلية سور الحديقة من الخلف . وراسه تدور ، تارة يغضب وتارة أخرى يصاب ببرود . قال له رشاد : هذا تاريخ ، وسوف ترجع اليه الأجيال القادمة ، لكنه لم يهتم ، قال له غاضبا : طظ !

كرامة يعرف على وجه اليقين ان فى طبعه نذالة متاصلة . ويلوم نفسه عليها . ولكن ليس فى وسعه التخلص منها . عمل التاريخ من اجله لكنه لا يود المشاركة فى صنعه . قال لنفسه وهو يتصفح الصحف : هذه ليست مهمته . ذهب عكاشة ليصنع التاريخ ، فمات . بطل . شهيد . وسوف يكرمه الضباط وتقام له الاحتفالات فى عزبة عويس . لكنه ينتمى الى الرجال الجوف وليس الى الأبطال من نوعية عباس أبو حميدة وعكاشة — يوليو اقسى شهور سنة ، ينبت الزنابق من الأرض الخراب .

طردت حكومة مصطفى النحاس باشا أستاذه ستيف قبل حريق القاهرة وحلت الجمعية، ونجا من القبض عليه باعجوبة عندما حاصرت

قوات البوليس الجمعية ، فهل أحرق أعضاء الجمعية القاهرة ؟! اتهامات كثيرة أصبحت توجه اليهم ، وهو لا يقطع بشيء . فرواد الجمعية من الرجال الجوف لا يهشون أو ينشون ، وليست لهم علاقة بصنع التاريخ ، ويرغبون عيش حياتهم فقط ، مثله ، لكنها فورة التاريخ التى قلبت الأمور وعكست الأشياء ، فجعلت السقا يسجن بتهمة حريق القاهرة ، وعكاشة يموت فى الاسماعيلية ، واللواء عويس يتحفظ عليه بتهمة الفساد ، والأميرة جويدان حبيسة القصر ، وحمادة أبو جبل رجل المديرية .

تسللت أشعة الشمس من بين فروع الشجرة وسقطت على الارض المتربة تحت قدميه وتكسرت على حواف الحفر فصنعت ظلالا طويلة للحجارة وعيدان الأعشاب الجافة .

من ظلال الأشياء . عرف أن الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد الظهر ، وأن الأميرة انتهت من الغداء وسوف تصعد الى جناحها العلوى لتدخن النرجيلة مع جدتها الاميرة فاطمة هانم زادة ، ولعلها تقف فى شرفتها لمدة ثوان تلقى فيها البصر على الناحية ، فيتأملها من بعيد .

حررته زهية من انكساره . منحته عبقها وزينة ما تملك ، ودعت له بالنجاح والتوفيق ، وابتعدت عنه فى حالها تسعى لطلب لقمة عيشها ، وتهش الطامعين فى جسدها . سألها عن سبب طلاق الحاج عمران المقاول لزوجته الشابة — فأخفت وجهها خجلة بشالها وصمتت ، نكست رأسها ، وبان الغضب عليها . وبصوت خفيض لعنته فى الدنيا والآخرة .

قال لها : يابنت . لماذا طلقها ؟!

قالت له : والنبى انتم تلامذة المدارس على نياتكم ، لا تفهمون حاجة فى الدنيا !

ألح عليها بالسؤال ، فقالت له بالفم الملآن ، طلقها المسكينة زينة الصبايا الناقص ابن الكلب !!

قال لها : ناقص كيف يابنت ؟!

قالت له وهى تبتعد عنه : يوه ، ياكرامة ، هو انا لازم أفسر ، رجل ناقص رجولة وشهامة . لا يرعى ذمة ولا دين ولا شرع .

جرى خلفها ، فقالت له : اسأل غيرى والنبى ياكرامة .

قالتها وهى تتوسل له أن يعفيها من الخوض فى هذه المسألة ، وقال هو لنفسه هذه الصبية أميرة ، لا تخرج العيبة من فمها ،

تقابله . تبتسم له وتحييه وتذهب فى طريقها . لا تشير لما جرى بينهما فى تلك العشية على الترعة فى الخص بكلمة . أعفته من كل شيء . تتحمل مسئولية ما حدث بمفردها . واذا حدث ؟!

واحس كرامة بالخوف . ماذا يفعل ؟ سوف ينكر ويتنصل من فعلته . جبان . رعديد . قام الجيش وقبض على كبار الضباط والسياسيين وطرد الملك وهو لا يزال خائفا .

يسال نفسه وهو يحوم حول قصر الأميرة ، وعيناه متعلقتان بجناحها : هل أساء الى زهية الى الحد الذى تقتل نفسها ؟!

لا يعرف .

تحدثت اليه أمس وهى تضع يدها على بطنها . كانت فرحة ، تستدرجه بحديثها . ليصرح لها بحبه . لكنه تحفظ فى حديثه معها . انزلت طرحتها وكشفت له عن وجهها المضىء وكتفيها وفتحة صدر جلابيتها الطويلة . ذراعاها عاريتان حتى الكوع . ذراعان غنيتان بالانوثة . عيناها نافذتان واسعتان . انفها دقيق . وجنتاها ناعمتان وتشعان قوة . اذا سارت لا تلتفت الى الخلف . واذا قطعت خطوة لم تتراجع عنها . أما هو فيسير فى طرق ملتوية . جاء من عشته فى نهاية العزبة مارا بالفيطان ، ثم أنحرف الى مندرة العمدة حمادة ابو جبل والقى نظرة بلهاء على الحى ، التقى بأم حبيبة زوجة عكاشة فطلبت منه أن يكتب لها شكوى للجيش للافراج عن جثمان زوجها لدفنه فى مدافن العزبة — فقد رفضت حكومة الملك دفنه ، واكرام الميت دفنه .

تظن الحمقاء أن الحكومة شرحته وقطعت جسده وتحتفظ به فى ثلاجة وتحرمه من حق الدفن عقابا له ، ولا تعرف انها دفنته سرا حتى لا تتخذ جنازته ذريعة لقيام مظاهرات . ولكن هاهى حركة الجيش تقلب الأوضاع وتبحث عن شهداء ، واذا كتبت خطابا للواء محمد نجيب تطلب فيه جثمان زوجها لأجابها الى طلبها وكرمه بعد مماته .

هه ..

مات . أستشهد . قضى . الجنة نصيبه . كلمات كبيرة لا يفقهها عكاشة . والحقيقة أن عكاشة مات وفقد حياته . خدعه أحدهم بوضع قنبلة فى عربة البرتقال ، فمات . غرر به . مات دون أن يقرأ شعرا أو نثرا أو يطلع على قصيدة الأرض الخراب . قالت له زهية لما شاع خبر موت عكاشة فى العزبة :

ـ نصيبنا ياكرامة !

فسألها وهو سارح :

ـ نصيبنا الموت ؟ لماذا ؟!

استمع اليها صاغرا ، وكأنه يستمع الى الاستاذ ستيف وهو يحاضره ، قالت له ، وهى تبتسم :

ـ مكتوب . فى الجنازة مطلوبين وفى الفرح مطرودين . سنة الحياة من أيام سيدنا آدم . ياندامة . هو انا أزيدك علام فوق علام المدارس . قطع لسانى !

رفع رأسه الى جناح الأميرة جويدان وقد أحس بحركة فى الطابق العلوى . ثبت عينيه على شرفتها الواسعة التى تظللها أشجار الزينة ، ونسى عكاشة وزهية وحركة الجيش واللواء محمد نجيب . فتح صدره واستنشق نسمات شهر يوليو القائظة المبللة بالرطوبة . تيار خفيف من النسيم البارد يدور حول القصر ويأتى اليه عبقا وينزل عليه بردا وسلاما .

وقبل أن تخرج الأميرة لشرفتها لتلقى نظرة على الحديقة ، اقبلت عليه زهية على خطى سريعة ، فنكس رأسه ووضع عينيه فى الأرض ، وجلس ساهما . قال لنفسه :

ـ بدأت المطاردة أصبحت تتابعه وقد علمت أماكن وجوده وهو يحوم القصر .

أراد توبيخها لمتابعتها له ، لكنه تراجع ، ففى وجودها على مقربة منه راحة له من تلك الأفكار السوداء التى تطارده فى النهار والليل .

وقال لنفسه ساخطا : انا أحب الاثنتين . الأميرة جويدان ابنة اللواء عويس على محمد باشا الأعرج ، وزهية التى لا أهل لها ولا عزوة .

حبه للاميرة جويدان خيالات من نار . سحابات ملونة سارحة فى السماوات بعيدا عن الأرض ، مشاعر غامضة تسرى فى دمائه مثل لحن موسيقى فيه قوة وشجن . احاسيس حارقة تدفعه ليحلق بعيدا بعيدا ، ليناطح السحاب ويبتعد عن مشهد الطين الذى يغوص فيه حتى رأسه فى قيامه ومنامه .

دون قصد رفع قدمه عن الأرض وخلع مداسه ونفض الاتربة والطين عن أصابع قدمه . حكها بيده . ظفر أصبعه الكبير يغطيه الطين . تناول قطعة حجر مدببة ، وبسنها اخذ يحكه فى غضب . الطين يحيط بجسده . يغلفه . دودة فى الطين تسعى وتود أن يتحول الى فراشة . يود أن ينتقل من طور الى طور . يجد نفسه فى شرنقة جميلة ، يخترقها ويطير .

عينا زهية ترقبانه ويحس بها وهو يحك ظفر أصبعه . تسير خفيفة وثنايا الجلابية تتداخل وتتلوى وهى تلف جسدها . ألوانها تسطع فى الضوء وتنعكس على قطع الترتر الصغيرة فتزيدها هيبة ، وتحولها من دودة الى اميرة .

أحس بخطوها . سمع أنفاسها . شم عبير أريجها . رفع رأسه ، حرك عينيه . ترك ظفر اصبع قدمه ، وانتصب فى جلسته ، واسند ظهره الى ساق الشجرة . لوح بيده لها . انفرجت شفتاه . دق قلبه بسرعة . دار رأسه . ارتعشت أطرافه . زاد عرقه فأحس بحلاوة نسمة شاردة وسط صهد الظهيرة .

زهية تقترب منه ، وتتناقص المسافة التى تفصل بينها وبينه ، وتظل المسافة بينه وبين شرفة جناح الأميرة جويدان ثابتة على حالها .

أخيرا اقتربت منه . ضحكت . قالت له :

ــ هلت حبيبة القلب .

والتفتت الى شرفة جناح الأميرة ، وبعدها قالت له :

ــ قلبى قال لى انك هنا .

وقف مستندا الى جذع الشجرة ويده على فرع منخفض بين القيام والجلوس . أشياء كثيرة تدور فى رأسه ولا يجد منها شيئا على لسانه لينطق به . ليس ضجرا بوجودها الى جواره ، وان كان يحس بالحرمان لعدم رؤية الأميرة الصغيرة .

زهية حريصة على وده ولا تود توجيه لوم له او عتاب ، ولكنها عندما رأته متعلقا بالشرفة على هذا النحو ، قالت له ناصحة :

ــ البلد ثائرة ، وانت متعلق بحبال دايبة . أبوها معتقل ، وبكرة حركة الجيش تطردها هى وأمها من البلد .

هاهى زهية تتحدث فى السياسة وتنقل اليه الأخبار التى لاتنشرها الصحف . وسألها فى فضول ان كانت قد سمعت شيئا فى دوار العمدة ، فقالت له :

ــ كل وقت له أذان ياكرامة !

سألها عن سبب تعلية الحاج عمران لسور القصر ، فأجابته وهى تجلس على الأرض على مقربة منه قائلة :

ــ الأميرة شويكار خائفة من الفلاحين . منذ القبض على اللواء عويس وهى لا تنعس بمفردها . لا تدع زبيدة شمورجى كالفة تغيب عنها لحظة . وطلبت من العمدة وضع الغفر على باب القصر ، فرفض قائلا لها : ليس لدى أوامر من المديرية .

قال لها متعجبا :
ــ حمادة ابو جبل رفض طلب الأميرة شويكار ؟!
قالت له وهى تتربع وتجلس على راحتها مؤكدة :
ــ وحياة ابنى الذى فى بطنى ، حمادة ابو جبل رفض طلبهـــــا وكسفها .
قال كرامة ابن السقا عجبا لنفسه : ســـبحان مغير الأحوال ، حمادة ابو جبل يرفض طلبا للأميرة . وبعدها تنبه لكلمات زهية ، ورمقها بنظرة نارية متفحصا بطنها واحس بها تجدل حبالها حوله ، وقال لها غاضبا :
ــ انت حبلى يابنت !!!
قالت له فرحة وهى تحسس على بطنها :
فى الشهر السادس .
ندمت زهية لتصريحها لكرامة بانها حبلى . كانت قد وطدت العزم على الهرب من العزبة والاحتفاظ بجنينها . ذكر . تحس به . تحادثه . ليست خائفة من الحمل او الفضيحة . فى مقدورها اسقاطه ، لكنها ترفض . ابنها ، هى امه . كيف تقتله ؟!
ربما انطلقت الكلمات من فمها بسبب غيظها من كرامة لتعلقه الشديد بابنة اللواء عويس الذى جلده مائة جلدة ، ووقوفه بالساعات على مقربة من القصر ليراها عند خروجها الى الشرفة للحظات قليلة .
تكره فيه انسحاقه وتعلقه بالأميرة جويدان . وتقول لنفسها يائسة منه : القط يحب خناقه . وبعدها تراجع نفسها قائلة : شــباب والشباب طائش . والأميرة قطعة سكر . والنبى حلوة . ولا تحس نحوها بالغيرة أو الحقد . يضايقها انها المحت له بحملها ، خائفة ان يعتقد انها تلاحقه او تود توريطه فى مسالة حملها . جنينها يخصها وحدها ، ولن تلزم مخلوقا به سواها ، خانها لسانها ، وقالت لنفسها: ياندامتى ؟
صامتة هى على الأرض امامه . وهو يدور حولها ، وقد ابتعدت عيناه عن جناح الأميرة وتسلطت عليها . يود منها سماع صك اداننه ليرفسها بقدمه ويضربها حتى تسقط جنينها ابنة الزانية . يقتلها . يتخلص منها . نفرت عروقه ، واهتزت ساقاه . قطع الحجارة الصغيرة تمزق باطن قدميه ولا يحس بها . انتظر منها كلمة تعيد اليه ثباته ، لكنها صمتت . ابنة الحرام تضع يدها على بطنها ، هل تسمع دقات قلبه ؟!

رفعت راسها اليه وقالت له غاضبة :

ـ اجلس ياكرامة . اهدأ !

حذرته أمه كثيرا من المطلقات والبنات أللاتى يكبرنه سنا ، وهاهي زهية تجلس أمامه صامتة وتضع يدها على بطنها وتطالبه بالثمن : الزواج منها ، فى مقابل ساعة عبث أمضاها معها على الترعة فى عشية باردة . لكنه تماسك . تجلد ، ولم يدع لسانه يفلت منه ، تظاهر باللامبالاة .

انتظرت زهية منه كلمة حلوة تبل ريقها فى هذه الساعة القائظة ، ان ينطق قائلا فى فرح : ابنى . لكنه لم يقلها . وحل عليه سهم الصمت كالدجاجة المذبوحة الهامدة . برودة يغيظها . واذا ساورته شكوك من ناحيتها أو ظن بها الاثم فسوف تفرج عليه الناحية . لكنه اذا تصرف برجولة معها فسوف تتركه فى حاله لمدرسته ، ولن تطالبه بشىء ، هى التى سعت اليه ومنحته جسدها طوعا . مقدر ومكتوب . منحته أعز ما تملك لتخرجه من ورطته وتعيد اليه حياته التى فقدها تحت ضربات السوط ، والدنيا غابة ، وكل من فيها معلق من عرقوبه . وهى سوف لا تضحى بابنها . وقالت له ، وعيناها تضحكان :

ـ والنبى لاسميه محمد نجيب .

هذا ما كان ينقصــــه سماعه : محمد نجيب ابن كرامة سرحان السقا ! هزلت المسالة وباخت ، وقال لها ساخرا وهو يضرب جلابيته ويحرك الهواء الساكن بين فخذيه :

ـ ولماذا لا تسمينه فاروق ؟!

أجابته رافضة وهى تشيح براسها قائلة :

ـ فشر ! هذا ابنى !

ومدت يدها الى التراب وأخذت تعبث به وكأنها تكتب اسمه على الأرض . وتقول موقعة : محمد . نجيب . محمد . نجيب . والنبى اسم حلو .

واعمل ذهنه بسرعة وقرر عدم مناقشتها أو محاجاتها فى اســم الوليد ، فهو وليدها وهى حرة ، فكل هذه الأقوال لاستدارجه للوقوع فى الشرك المحكم الذى نصبته له .

حل بهما الصمت لفترة وجيزة ، فسألته قائلة :

ـ ما رأيك ؟!

أجابها وهو يتجاهل مقصدها عن عمد قائلا :

ـ ليس لى رأى .

استراحت لاجابته ، فها هو ينسحب فى هدوء ودون ضجيج . يؤلمها فقط انه يبخل عليها بكلمة حلوة ترضى خاطرها بعد أن بخل عليها بعقد أو غويشة فى تلك العشية . يوزع هدايا . على الصبايا والنسوة ، ونسى أن يحضر لها واحدة . دخل بها ، واطعمته من يدها فردة حمام استلفتها من صديقتها فهيمة زوجة الحاج عمران السابقة. اكلت هى الفطير واطعمته الحمامة لتبر بها جسده . وابتسمت ، لأن فردة الحمام فعلت فعلها وهجم عليها كالطالوقة ، وقالت لنفسها : هه يازهية ، وزرع فى بطنك بذرة من صلبه ، عشية واحدة فى حضنه وحبلت يابنت . يا مصيبتك يازهية !!

تغلبت أنوثتها على حكمتها ، وصارحته قائلة ، وكأنها تلفت نظره الى شىء محرم عليه :

ــ اياك ياكرامة يا ابن سرحان السقا تظن بى السوء .

وبعدها أكملت غاضبة :

ــ ابنى . من صلب أبيه .

ألكلمات الجارحة على طرف لسانه ، ليسألها عن أبيه ، فيفجر الموقف باكمله ويسرع بالمواجهة بينهما . تتهمه بان الجنين من صلبه، ويتهمها بالفسق والزنى وانها سائرة على حل شعرها وتمنح جسدها لكل عابر سبيل . لكن جبنه منعه من التفوه بالكلمات المحرمة . دخل بها . عذراء سلمته نفسها . ليس ساذجا الى هذا الحد . انها مؤامرة على مستقبله . تود تدميره . الجنين الذى فى بطنها من صلبه ، فهل يجرى فى العزبة معلنا انه قد أصبح ابا ؟!

يامصيبتك ياكرامة . اختيار صعب تكون أو لا تكون كما قال شكسبير . وتخلى رويدا رويدا عن غضبه ، ورأى أن يأخذها بالحيلة . بالصبر . تودد اليها فى كلمات ناعمة ، وأجرى حسابات سريعة . مدخراته من بيع العقود والجعارين والتماثيل للسياح أيام الجمع تزيد على ثلاثين جنيها ، فلينفحها عشرة جنيهات كاملة لتواجه نفقات الوضع والسفر بعيدا عن العزبة .

كف عن الوقوف وجلس الى جذع مكسور على مقربة منها . قال لها :

ــ الاجهاض خطر فى الشهر السادس .

صمتت . فهمت مقصده . انه يلومها . يقول لها انها تأخرت كثيرا فى اطلاعه على ما وقع لها . وعليها ان تتحمل المسئولية وحدها . لن تجادله . معه حق .

كان الواجب اطلاعه فى الاسابيع الأولى وتطلب مشورته . لكنه تجاهلها وانشغل بأبيه فأعفته من هذه المصيبة . جرى من سجن الى سجن وقدم الشكاوى لعلاجه وقد فقد بصره تماما فى السجن . لجأ الى المحامين للافراج عنه . اتهمته الحكومة باحراق القاهرة وطلبت اعدامه . كانت تسأله عنه وتزور امه وعمته زوجة الحاج عمران ، فكيف تصارحه بانها حبلى وتزيد المصائب على رأسه ؟!

نكست رأسها صامتة .

قال لها وقد احس بانها قد تراجعت عن تهديداتها له :

ـ والعمل الآن .

قالت الصبية يائسة من نعمة الرحمن :

ـ العمل عمل ربنا !

سألها كرامة فى برود ولا تزال تسيطر عليه رغبة جارفة فى التهرب منها :

ـ هل عرف احد بالأمر ؟!

ضحكت زهية قائلة :

ـ النسوة . كل واحدة تحدق فى صدرى وتقول لى مبتسمة : صدرك يابنت امتلأ ، لكن عمتك الأروبة عزيزة قلبها شك .

سمع كرامة كلمة « عمتك » فوقع قلبه . عمته عزيزة لا تفوتها شاردة . كانت ترسل له الطعام والفطير مع زهية . رأته وهو يحادثها فى دار الحاج عمران وفى السوق . كانت ترسلها لتنادنه من البيت . وحذرته منها قائلة : البنت غجرية ياكرامة وضع عقلك فى راسك .

عمته عزيزة سيدة محنكة ، تزوج الحاج عمران المقاول عليها عدة مرات ولم تشتك او تتذمر ، لكنها طوعته ، وتركته يمارس نزواته الصبيانية المحرمة تحت اشرافها وبرضاها وقد اكتسبت لقب : ست الدار . تزوج وطلق عدة مرات ولم تهتز .

قالت له ذات مرة :

ـ ياخوفى عليك ياكرامة يا ابن اخى ، والله انت ناقص مثل ابيك ، وسوف تسوى المصائب مع النسوان وتفضحنا .

ها هو حقق نبوءتها .

القى نظرة خاطفة على جناح الأميرة جويدان ، ثم التفت الى زهية قائلا :

ـ نصيحتى تهربى من العزبة .

قالت له فى خنوع :

ـ اذا كنت تريدني أهرب ، أهرب .
غلبه فضوله ، وتغلبت سذاجته على جبنه ونذالته فسألها قائلا :
ـ كيف حملت يابنت بعد أن تشطفتي بأقة ملح رشيدي ؟!
عادت الى وجهها الفرحة . ابتسمت . ثم اخفت نصف وجهها بغطاء الرأس ، وقالت له في حياء :
ـ لم تحافظ على . وضعت النطفة في بيت الولد . قلبت لى بطني كلها .
وبعدها أحست بالكسوف ، فقالت لنفسها : ياندامتي ياسي كرامة !
يرق صوتها . قالت له : ياسي كرامة . وكأنها تدلل عشيقا لها او زوجا . ها هو يعترف ، الجنين ابنه ، استمع اليها ولم ينكر أنه وضع نطفة منه في رحمها ، هاهي تلبسه العمة ، حقيقة . ان كيدهن عظيم . صدق الله العظيم . الهواء ساخن . وظل الشجرة يتضاءل ويصفر . بقعة صغيرة تكفي لحماية رأس زهية . والشمس توجه سهامها اليه من بين فروع جافة . شجرة جرداء . ويقوم ويقعد ويدور حول الشجرة والتراب الساخن يتسلل داخل مركوبه ويلهب أصابعه ، ومن حين الى آخر يمسك به وينفضه . واخترقها وأشعار قصيدة الأرض الخراب تهز كيانه . وكان عليه أن يكون حريصا معها ، لكنه لم يقدر المواقف ، وها هي تحاسبه بصمتها . ترمى له كلمات متقطعة وتصمت . لم تقل له : اكتب على وبعدها طلقني . لم تقل له بصريح العبارة الذى في بطني ابنك أو بنتك . وهو أجبن من أن يتهمها بالفحش أو الفسق . وكل يوم سوف تكبر بطنها وتضيق الجلابية الواسعة عليها ، والسنة النسوة لا ترحم .
مد يده الى جيبه . أخرج سيالته . فتحها . اخرج منها ورقة بعشرة جنيهات قدمها لها قائلا :
ـ خذى يازهية . مصاريف الولادة .
رفضتها في اباء وشمم . بكت . تعجب لسذاجته . قالت له غاضبة :
ـ ياسي كرامة انا عاوزة منك كلمة حلوة وبس .
ماذا تريد منه ؟! وقال لنفسه : لا تود أن تغسل عارها بعشرة جنيهات . وبعدها أجاب على تساؤله قائلا : معها كل الحق . ووقعت كلمة العار على أذنيه موقعا سيئا . احس بها كلمه بذيئة لا تناسب

المقام . انقذته من موت محقق . أعادت له حياته التى فقدها مع ضربات السوط ، وقال لنفسه : ليكتب عليها سرا ، ويدعها تهرب من العزبة الى القاهرة . يعيشان معا فى القاهرة . نتيجة التوجيهية على وشك الظهور ، ودخوله الجامعة مؤكد . ليعمل ، وينفق عليها وعلى وليدها . هذه الصبية تحبه . يعيش معها عدة سنوات ويطلقها . كلهم يطمعون فيها . يتمنون الزواج منها . وها هو يفوز بها . دعته لولوج جنتها فلبى النداء . هل خدعته وغررت به واستغلت سذاجته وصغر سنه ؟!

لم تفصح عن مقصدها بصراحة حتى هذه اللحظة . الجنيهات العشرة رفضتها ووضعتها على الأرض الى جوارها . وفجأة قالت له :

ـ اسمع ياسى كرامة .

ارهف أذنيه . ها هى تفصح . صمت .

اكملت الصبية قائلة :

ـ من اليوم كل واحد منا فى سكة . العين لا تعلو على الحاجب . ابن المدارس يجوز له الزواج من بنت افندى أو باشا أو أميرة .

قال لها وهو لا يصدق اذنيه :

ـ كيف يابنت ؟!

قالت له راضية بنصيبها :

ـ من حقك . انت افندى ومتعلم .

ودت أن تقول له انه يجلس اليها وعيناه على شرفة الأميرة جويدان . لم ينطق بكلمة : ابنى . يحادثها وكأنه لم يأخذها عارية فى حضنه . هى ليست من ثوبه ، كما أنه ليس من ثوب الأميرة جويدان . والفرق بينها وبين الاميرة أنها منحت وفرطت فى جسدها بينما الاميرة تبخل عليه بالنظرة . وقالت لنفسها :

قسمة ونصيب !

فى بعض الليالى تلوم نفسها . تحس بالقرف منه ، وتتعلق بوليدها كلما نما فى بطنها . تراه جزءاً منها ، وكأنها صنعته بمفردها وليست له علاقة بأبيه كرامة ابن سرحان السقا . هى الوحيدة فى هذا العالم التى فى مقدورها الافصاح عن اسم أبيه . وأبوه هو كرامة ابن سرحان السقا .

مع الصمت ، تتنازعها مشاعر مختلفة مشوبة بالخوف من الايام . كفت عن العمل بالدور مع النسوة ، وخرجت للعمل فى

الحقول مع الرجال ، النسوة يقتلنها بنظراتهن الفاحصة لكل ثنية في جسدها ، أما الرجال فيعاملونها كحرمة لها قدرها . يغازلونها ، يعلنون رغبتهم فيها ، فاذا رفضت تركوها في حالها .

قطعت الصمت ، وسألته قائلة :

ــ في البداية كنت أود تسميته عكاشة ، شهيد عزبة عويس ، لكن اللواء محمد نجيب عوض صبرنا خيرا . اللواء عويس علي محمد باشا الأعرج في السجن ياكرامة . من كان يصدق ؟! والنبي لأسميه محمد نجيب .

قاطعها كرامة قائلا ، وكأنه يستنكر على نفسه أن ينجب ذكرا .

ــ بنت . في بطنك بنت . أنا عارف .

قالت له مؤكدة :

ــ ذكر !

وبعدها سألته عن عنوان الدكتورة صباح التي داوت قدمي ستهم زوجة حمادة أبو جبل ، واكملت قائلة :

ــ والنبي دكتورة توضع على الجرح يطيب . داوت ستهم من مرض أيوب في أقل من أسبوع .

كان كرامة قد انشغل بالبحث عن أبيه السقا في السجون فور حريق القاهرة ، حتى عثر عليه بمساعدة من الأستاذ سلامة المحامي ففاتته حكاية الدكتورة صباح التي شغلت عزبة عويس وتداولتها النسوة سرا . زهية هي حلقة الوصل بين كرامة وعالم النساء الخفي الملئ بالاسرار . وسألها عنها ، فقالت له :

ــ يوه ياكرامة . انت لا تعرف ان الدكتورة أوديت ابنة سيد باشا كانت مختبئة هنا في عزبة عويس تحت اسم صباح .

قال لها في دهشة :

ــ كيف ؟!

تذرعت بالصمت وكأنها قد نسيت سؤاله لها ، لا تود أن تشير بكلمة الى أن الدكتورة كانت مختبئة في دار عباس ابو حميدة وترتدي ملابس الفلاحات وأن النسوة اللاتي لا يقرأن الصحف قد كشفن سرها ، ولأجل خاطر عباس أبو حميدة وزوجته نفوسة بنت الشامي لم ينطقن بكلمة واحدة .

قال لها :

ــ تكلمي يابنت .

تغاضت عن زجره لها وكررت قولها :

ــ يوه !

لا تود ان تخبره بان واحدة من الفلاحات رأت صورتها صدفة في صحيفة فسعت لمعرفة ما كتب تحتها ، وعلمت ان الحكومة تبحث عنها ، فقالت لنفسها « هذه صباح » . وذهبت الى دار عباس ابو حميدة وأطلعت نفوسة بنت الشامي عليها فطلبت منها الكتمان لأجل خاطر عباس ابوحميدة المقبوض عليه في السجن ـ فمزقت المراة الصورة وخرجت وكأنها لم تسمع او تقل شيئا .

ولا تعرف زهية كيف شاع الخبر بين النسوة بعد ذلك . ربما بواسطة ستهم التي ظلت تردد ان الدكتورة التي داوت قدمها انقذتها من الموت وتدعى انها كانت مرتدية ملابس الرجال .

كرامة يلقي نظرة على زهية وبطنها ثم بصره الى شرفة الاميرة جويدان المغلقة • السياسة لا تشغله عن حبه ، وأن كانت ضربات السوط قد مسحتها حركة الجيش ومحت آثارها عن جسده ، وبدا للبعيدين عن عزبة عويس وكأنه مناضل ، غير ان السياسة وان كانت لها جوانب سيئة فلها ايضا جوانب حسنة ، فقد اعتقل اللواء عويس ليلة قيام الثورة : تمنطق بمدسه . خرج ولم يعد كما يقول عبدالواحد افندي . وقع في أيدي الثوار على مقربة من مبنى القيادة ، فتم اعتقاله . هه . السياسة انتقمت له ، فهل تخلصه أيضا السياسة من ورطته مع زهية ؟!

يوليو اقسى شهور السنة • ينبت الزنابق من الارض الخراب • يخلط الذكرى بالشهوة . يثير الجذور . جويدان في قصرها ، وقلبي أسفل الشجرة ، ولم اعلق ، فعلى اى شيء الومها .

احرقت الشمس رأسه ، فقال في حزم وكراهية :

ـ زهية . خذي النقود !

اجابته في استحياء قائلة :

ـ - اضر ياسي كرامة .

وبعدها اكملت في خنوع قائلة :

ـ انا محتاجة الكلمة الحلوة .

تستجدي حبه وعطفه عليها ، وقد غير الحمل طباعها . وحيدة في هذه الدنيا تضع مولودها وتربيه . حرمة ضعيفة ، ليس لها سند تركن اليه وقت الحاجة ، ورجلها تلميذ لا حول ولا قوة له . كلما سارت على الطريق الرئيسي وفكرت في الهرب من العزبة اصابها الخوف وترددت . في مقدور الدكتورة صباح ، التي داوت قدمي

ستهم ، معاونتها . هى ست ، سوف تفهم مشاعرها وتقدر ظروفها، وابنة باشا أيضا .

باب شرفة الأميرة جويدان مغلق . ولم تخرج الى الشرفة لعدة دقائق كعادتها فى هذا الوقت من النهار . تأخرت كثيرا ، وقد أحرقته الشمس ، والتفت الى زهية ، وقال لها فى توسل :

ــ هذا سر بيننا .

قالت له ضاحكة :

ــ السر فى بير ياسى كرامة .

فهمت مقصده وفهم مقصدها . كرامة يثق فى كلمتها . استراح . نصحها بسؤال جماعة عباس أبو حميدة عن الطبيبة ، والاختفاء من العزبة . سوف يذهب معها الى مصر .

قالت له مستفسرة :

ــ والنبى ياسى كرامة !؟

قال لها : طبعا .

(٣٥)

جلس حمادة أبوجبل فى المندرة يستمع الى الرجال ويزودهم بآخر الأخبار القادمة من المديرية ويصدر لهم أوامره . أكبر رأس فى العزبة ، ومن حقه أن يأمر ويشخط . بين عشية وضحايا انقلب الحال وتغيرت أحوال العباد . وأصبح حمادة أبوجبل ممثل الحكومة ورجل مديرية الجيزة القوى فى المنطقة والنواحى القريبة منها .

قال الحاج عمران المقاول للفلاحين فى بيت العمدة أنه فى حاجة الى عشرين رجلا لتعلية السور حول قصر الباشا من الناحية الأمامية، قالها ولم يزد . فسأله العمدة عن أخبار الباشا ، فتململ الحاج عمران فى جلسته قائلا : بخير . قالها مدغمسة وسريعة .

عمران لا يود التصريح بأنه لا يعرف شيئا عن الباشا وأن حرمه الاميرة شويكار هى التى استقبلته وقاولته على بناء السور . قالت له أنها فى عجلة من أمرها وضاعفت له المبلغ . أجابها قائلا : رغبة سمو الأميرة أوامر .

لكن الويل كل الويل من هؤلاء المزارعين الجالسين على الأرض تحت أقدام العمدة . يدلقون الشاى فى بطونهم ويلقون أعقاب السجائر على الأرض . وبعد فترة صمت طويلة يفتح أحدهم فاه قائلا :

ــ والله يابا الحاج عمران ..

فيزجره غاضبا وهو يقول له :

ــ اشرب الشاى بأسلامة واسكت .

فيضحك حضرة العمدة فى جلسته ويغمز للفلاحين بعينيه سرا معربا عن رضاه عليهم .

من الكلمات القليلة التى تسربت من فم عمران ومن تلك الأسئلة التى رفض الاجابة عنها ، أدرك الفلاحون أنه لم يسمع شيئا عن الباشا وأن الأميرة شويكار فى عجلة من أمرها ، وأنه أيضا رفض أخذ شيك منها وتناول نقوده عدا وأنه لابد قد خدعها ونصب عليها وهو يقول لها أنه مقاول معروف وله سمعته فى السوق .

انسحب المزارعون وأصحاب الشكاوى من المندرة ، وانفرد حمادة أبوجبل بالحاج عمران المقاول . أمره بالاقتراب والجلوس الى جانبه . وقال له مدعيا الغضب الشديد !

ـ كيف ياعمران تجمع الفـــلاحين وتدخل بهم القصر سرا ؟! هذه مؤامرة على الحركة .

انتفض عمران فى جلسته قائلا :

ـ ماهى العبارة ياحضرة العمدة . أنا مقاول من قـــديم الأزل وسوف أبنى السور وأعليه عشرين مترا فى أقل من أسبوع .

فقال حمادة أبو جبل وهو يجلس متربعا على الكنبة الرئيســية فى صدر المندرة ويهز رأسه ويشيح له بيده مهددا :

ـ أخذت اذنا من الحركة ياعمران ؟! هى فوضى !

قال عمران شيئا مبهما وهو يحتسى الشاى وبعدها تحسس سيالته التى وضع فيها النقود التى سلمها له عبد الواحد أفندى ، وقـــال مبتسما :

ـ الاذن منك ياحضرة العمدة ـ أنت رجل الجيش .

قال العمدة وقد زال تجهمه :

ـ طيب ياعمران .

فهم عمران اشارة العمدة فقد تمت الصفقة ، وصدر الأذن له . وسبه فى سره وجلس منكمشا أمامه . وسأله العمدة عن القصر وآخر أخبار الباشا والحاشية والصور المعلقة على الجدران للملك فاروق ، وأجابه عمران عما يعرف وعما لا يعرف أيضا ، مدعيا أنه قد أصبح من المقربين للأميرة شويكار ، وقد استقر فى روعه أن العمدة مكلف من البندر برصد أحوال عائلة اللواء عويس ومعارفها . وقال لنفسه متأففا عمار يامصر . أصبح العمـــدة فى يوم وليلة حارســا على حركة الجيش .

وبعدها قال عمران للعمدة :

ـ ما رأيك ياحضرة العمدة فى بناء المندرة بالحجر وسقفهـــا بالمسلح وتجديدها ؟!

قال له العمدة :

ـ والله فكرة ياعمران .

الحديث بين الأعيان فى الأرياف لا يتم بصورة مباشرة ? وقد رمى عمران ورقته ، وأكمل دوره قائلا :

ـ والمرة تكمل بناء الدار من الناحية القبلية ونسقف الصـــحن الواسع .

أبدى العمدة فى البداية ترددا ثم وافق .

وتمت الصفقة بين الرجلين وأدرك عمران أن طريقه الى قصر

الباشا أصبح مفتوحا يدخله متي شاء دون مضايقات وأن عملية تعلية السور سوف تسير فى طريقها الذى رسمه لها .

وغادر الحاج عمران مندرة العمدة وقد بدأ يعيد حساباته ، فبعد تعلية سور القصر سوف تأتى عملية تنظيف الترعة واستكمال بناء المستشفى واستكمال عنابر البضاعة لمحطة سكة الجيزة ، وهذه كلها عمليات فى حاجة الى مسالك جديدة فقد مضى عهد اللواء عويس ورجاله الى غير رجعة .

امضى حمادة أبو جبل يومه فى اتصالات مع مديرية الأمن بالجيزة، وتلقى الأخبار من البندر ، وبلغ عن حالة الأمن فى العزبة والنواحى القريبة منها .

وقرب منتصف الليل رن جرس التليفون ، فأجاب العمدة بنفسه، وبعدها زعق على شيخ الغفر وطلب منه استدعاء الحاج عمران على عجل لسبب مهم .

تمخط أبو جعفر شيخ الغفر ، وقال :

ـ الساعة قرب منتصف الليل ، والحاج عمران فى حضن زوجته الجديدة .

قال العمدة غاضبا والخوف يطل من عينيه :

ـ أحضره بالفانلة أو عاريا لا يهم .

نادى شيخ الغفر على غفيرين ، وتوجهوا الى بيت الحاج عمران فى الناحية الأخرى . ومع النقر الخفيف على النافذة تسلل صوت أبو جعفر ممزقا صمت الليل قائلا :

ـ افتح ياحاج .

وخرج اليهم عمران غاضبا ، فقال له شيخ الغفر :

ـ خير ياحاج أن شاء الله .

تلفح عمران بعباءة فوق جلبابه ، ووضع مركوبا فى قدميه ، وسار خلفهم ودماؤه تغلى لانتزاعه من حضن زوجته على هذا النحو المهين وقد ساوره شك فى الاعيب العمدة وشراهته .

استقبله العمدة بالترحاب وعاجله بسؤاله قائلا :

ـ رايت الببغاء الفصيح فى القصر لما دخلته فى الصباح ؟!

هب عمران من جلسته غاضبا وكأن عقربا قد لدغه وهو يصيح فى العمدة :

ـ تستدعينى ياعمدة والفجر شقشق لتسالنى هل رايت بغبغان فى القصر . هذه ليست عيشة !

قال العمدة فى حزم :
ــ هذه أوامر الحكومة .
عمران لا يزال فى ثورة غضبه لانتزاعه من حضن زوجته قبل أن يقربها ولمساته لجسدها اللدن لا تزال تدفىء راحته ، فقال ساخرا :
ــ قل شيئا آخر ياعمدة ، الحكومة لا تسأل عن بغبغان بعد منتصف الليل .
طيب العمدة خاطره ، وقدم له السجائر ، وقال له مستعطفا :
ــ أنا لا أنعس ليلا أو نهارا . حركة فى البلد ياعمران . حركة جيش غاضب . وصورة زوجته الصبية وهى مستلقية عارية على بطنها ، وردفاها مقلوظتان . تتلوى ممانعة وهو يعالجها بالحسنى ويميل عليها ، تداعب خياله وتبعده عن العمدة والحكومة التى لم يرها فى حياته ولا يعرف شكلا لها . وقال :
ــ نعم . رأيت البغبغان ورحب بى قائلا : أهلا وسهلا يا حاج عمران !
سأله العمدة غاضبا :
ــ نطق الببغاء الفصيح ياحاج عمران ؟!
أجابه عمران وهو يحك جسده ويسوى الجلباب بين فخذيه قائلا فى غيظ :
ــ نعم ياعمدة !
وقال العمدة ، واعتدل فى وقفته ، وطلب رقما ، وقال :
ــ البغبغان فى القصر . رآه الحاج عمران المقاول بعينيه وتحدث اليه .
وبعدها قال العمدة متلعثما :
ــ أقصد يا أفندم أن الببغاء هو الذى تحدث الى الحاج عمران . قال له أهلا وسهلا ياحاج عمران .

انكمش عمران فى جلسته وقد فارقه انتصابه متبينا أن العمدة على حق فى استدعائه ، فقد سمع بقايا صوت يناقش العمدة ويحذره من الاهمال ويقول له : لابد أن الباشا لديه مجموعة نادرة من الببغاوات الناطقة التى لا تقدر بثمن فقد اعتاد على شيها حية لجلالته لأن لها فوائد صحية جمة . ولها فعل السحر على قوة الرجال ــ وداعبت أذنه بعدها ضحكات خليعة ، والعمدة يحييه قائلا فى خوف : الامر كذلك يا أفندم ..

وقال عمران لنفســـــه : ياخراب بيتك ياعمران . وانت لم تر لا بفبفان ولا قرد فى القصر !

ضيعت نفسك ياعمران فى شربة ماء ، وغــدا يتهمك الجيش بسرقة البفبفانات النادرة من قصر الباشا ، وهل توجد بفبفـــانات تتحدث ؟ هذه خرافات !!

لكن العزبة تزعم أن البغبفان الفصيح قد سب الملك وقال له : ياابن الكلب . فخاف اللواء عويس وقام الى البغباء واشعل النار تحته وشواه حيا .

حسين أبو عويضة وابو جعفر والشهيد عكاشة شهدوا حادثة الشي وهو يقول للحكومة البغباء فى القصر بعد طرد الملك . يامصيبتك ياعمران !!

وعاد عمــران الى داره وركبتاه تصــــطكان وأحمر وجهه . وقعت عيناه على عجيزة زوجته العارية . ودقق النظر فى الغرفة . وتحسس عضوه وقد فارقته شهوته وكره جنس النساء .

وقال لنفسه : ما يقع له الآن من مصائب ذنب زوجته التى طردها فى ليل بعد أن ظلت ترفض أن يأتيها فى دبرها وسببت له الفضائح . ولما توصل الى هذه الشابة التى استسلمت له ورضيت بنزواته ، قامت الثورة وطردت الملك وقبضت على اللواء عويس باشا وبقيـة الباشوات وربطته .

وعقد العزم على رد مطلقته فهيمة فى نفس الاسبوع ، ومصمص فمه بماء القلة ، وبصق فى صحن الدار ، ونوى على توبة نصوح .

سار بناء السور كما أعد له الحاج عمران . فارتفع عاليا يوما بعد يوم مخفيا الحديقة الأمامية وواجهة القصر . وزاد تردد الحاج عمران على القصر وقد توطدت علاقته بالعاملين فيه . وتحدث عن قرب الى الأميرة جويدان وزبيدة شمورجى كالفة وعبد الواحد افندى وقطامس وابيس وغيرهم من أفراد الحاشية .

وفور اكتمال السور سألته الاميرة شويكار أن يعلى السور من الناحية الخلفية أيضا ، فطلب منها معاينة الموقع .

سارت به فى أرجاء القصر وقادته فى ممراته رأى الحمامات على الجانبين ، وغض بصره لما لمح الأميرة جويدان بقميص النوم فى البهو الواسع تقرأ شيئا .

فى البداية رأى شعرها الطويل وهو ينسدل على كتفيها وخصلة منه ترتكز على صدرها ، ولما خفض بصره وحول راسه عنها رأى جانب فخذها عاريا فى المرآة المقابلة ، فرمقه واندفع مهرولا خلف والدتها الاميرة شويكار وقد ارتكزت عيناه على عجيزتها الغنية وردفيها الممتلئتين ، واشتعلت عيناه بالرغبة .

هجر عمران زوجته الجديدة الشابة عدة ايام بعد استدعاء العمدة له ليلا على عجل وسيره وراء أبو جعفر كالكلب . فارقه من الفزع ذلك اللهيب الاهوج الذى ينفجر فى داخله فيقبل عليها مشتاقا لكنه بمرور الايام ، علم أن العمدة كان يتحدث الى رجال الصحافة وليس الحكومة . وقد نشرت جريدة الأنباء قصة ملفقة حول الببغاوات التى كان يمتلكها اللواء عويس وكيف شوى واحدا منها امام الملك لأنه كان يتحدث ويصيح بلكنه تشبه تماما لكنة السير لامبسون الذى أذل جلالته فى حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ عندما فرض عليه حكومة مصطفى النحاس فرضا ، وانه قال للواء عويس باشا ليلتها : لابد أن السير لامبسون يتقلب فى تربته الآن والببغاء يحترق .

قرأ عمران هذه الأقاصيص فى الصحيفة وغاب عنه مدلولها فى البداية ولكنه ألم ببعض التفاصيل مما سمعه من نفر من المتعلمين فى الناحية ـ خاصة أن حسين ابو عويضة اصبح ينكر انه هتف ليلتها :

عاش جلالة الملك المعظم . وكل المزارعين يكذبونه ويقولون انهم راوه وسمعوه وهو يهتف محييا جلالته . وكلهم يستشهدون بعكاشة رحمه الله .

وقال عمران لنفسه وهو يتجول فى أنحاء القصر خلف الأميرة شويكار : لكل وقت أذان . وصفح عن العمدة بعد أن استقر فى روعه لعدة أيام أنه قد اختلق حكاية البغبغان لربطه . وأهاجه قربه من الأميرة شويكار ، فهؤلاء نسوة أما اللاتى يجرين فى الحقول فهن الغفر سواء . واشتاق لواحدة من صاحبات القصور . واشتاق لجنس النساء ، وقال لنفسه معزيا : كلهن سواسية .

مسح الأرض طولا وعرضا بشريطه وبقدميه ايضا واخرج ورقة صغيرة صفراء وأخذ يجمع ويضرب ويقسم والأميرة شويكار ترقبه فى صمت ــ وبينما هو مشغول بحساباته سمع صوت الأميرة الكبيرة فاطمة هانم زادة يأتى من شرفة الطابق الثانى مصحوبا بأصوات عديدة لعصافير مغردة . فقال لنفسه : لتتسامر مع البغبغانات فى وحدتها ، وقال لنفسه : حسنا فعلت ، فقد مضت أيامهم والبلدة هائجة بعد طرد الملك وتحدث الى الأميرة شويكار وهو ينظر فى عينيها ولا يخفض رأسه ، وتناول منها عربونا جديدا وتجرأ أن يلمس قبضة يدها الناعمة وسار خلفها منتصبا فى مشيته وقد أعتاد السير فى ممرات القصر .

دعته الأميرة شويكار الى الصالون . وقدمت له وصيفة سوداء عفية القهوة . ونادت الأميرة شويكار على ابنتها ، فاقبلت الفتاة كتمثال للحسن أو قطعة القشدة ، وجلست . وسأل عمران عن أخبار معالى الباشا وصحته .

فقالت له الأميرة شويكار فى هدوء : تعب فى اليومين الأولين فى السجن لكن صحته الآن فى تحسن مستمر ، وسوف يطلق سراحه قريبا جدا ، وما حدث اجراءات مؤقتة .

قال عمران وهو يرفع رأسه فى اتجاه السماء : الحمد لله !

ولم يزد عمران حرفا ، فلا أحد يعرف شيئا عن مصير الباشوات والباكوات الذين أعتقلوا واحتجزتهم حركة الجيش . اصطادتهم كالفئران ! ياقوة الله ، من كان يصدق ؟!

طلبت منه الأميرة الصغيرة ، وهى تضع رجلا على رجل ، أن يكلف بعض العمال بتسوية الطريق على الترعة الرئيسية (فى جزء منه) بعد أن ترك عمال المديرية العمل فجأة . فقال عمران : حاضر !

تكشف عن ساق مرمرى فى جلستها وتمسك بفنجان القهوة وترفعه الى شفتيها وتعود به الى موضعه على مقربة من صدرها فى حركة رشيقة ناعمة فينفتح قميص النوم الشفاف قليلا ويبرز شيء من صدرها الصغير كحبة الليمون .

سرح عمران لعدة لحظات يقول لنفسه : هؤلاء نسوة أما الأخريات ففغر . وارتسمت على وجهه بسمة . وقاوم الضحك . ونظرت اليه الأميرة جويدان وابتسمت هى الأخرى وكأنها تشجعه على الحديث اليها .

أفاق عمران من شروده على صوت الاميرة شويكار تسأله عن حمادة ابو جبل قائلة فى قرف :

ــ كيف حال فلاح حمادة ابو جبل ؟!

اجابها ماخوذا بسؤالها . وخاف من تبسطها معه وجلوسها اليه ، فها هى المراة الداهية تكشف عن مقصدها صراحة ، ولسأله عن ممثل الحكومة فى سخرية (فلاح حمادة أبو جبل من أعيان المنطقة ومندوب المديرية) وقال لها :

ــ بخير . عنده مشغوليات كثيرة .

قالت له فى سخرية :

ــ كان الباشا على وشك تعيينه عمدة ولكن حركة الجيش افسدت مسعاه .

قال لها مدافعا عن ابن العزبة ، ومثيرا للخوف فى نفسها ، وقد ادرك بحسه الانتهازى ان أيام هؤلاء الناس قد ولت دون رجعة وان هذه فرصته :

ــ المديرية راضية عنه .

قالت له مثيرة لفضوله :

ــ انت احق منه بالعمودية .

قال لها مثيرا لشجونها :

ــ البركة فى معالى الباشا !

فقالت له فى خبث :

ــ الشدة تظهر معادن الرجال ! وقد اختفى العمدة ولم يات ليسأل عن الباشا حتى من قبيل المجاملة . وانا اقدر ظروفه .

النقود فى سيالة عمران . ومن يقيم الأسوار يخفى خوفه ، وهاهو

الخوف فى العيون وقد أصابتها حركة الجيش بالرعب على الرغم من غناها . وهاهى البداية . فتح له الكنز ، وعليه أن يغترف منه . يقاوم ويساوم ، ويأخذ نقوده نقـــدا ، فى الماضى لم تكن هنـاك حاجة لتعلية الأسوار ، لكن الأسوار سوف تعلو وتعلو الآن فى كل مكان .

وعند مغادرته الصالون لم ينس أن ينحنى للآنسة الصـغيرة وهى تمد له يدها وهى جالسة تضع رجلا على رجل ، فقال لها :

ـ فى الخدمة سمو الأميرة !

قدمت الدكتورة أوديت بسيارتها الى عزبة عويس لتعزية الست ام حبيبة زوجة الشهيد عكاشة بطل أهم عملية فدائية بعد حريق القاهرة ، ولطمانة الست نفوسة بنت الشامى على زوجها عبـــاس ابو حميدة .

جاءت هذه المرة سافرة الوجه مرتدية ملابس قصيرة بسيطة . سارت بسيارتها على الطريق المعبد ورات الأسوار تحيط بقصر اللواء عويس فضحكت . قالت فى نفسها : الأسوار لن تفيد .

حياة الفلاحين كما هى . يعملون فى الحقول وينزلون الترعة . واخترقت طرق العزبة الضيقة واوقفت سيارتها أمام بيت عبـاس ابو حميدة .

خرجت النسوة لرؤية المراة التى تقود سيارة بمفردها يزغردن . لمحت بهية ابنة عباس ابو حميدة من بعيد . نادت عليها :

ــ تعالى يا حبيبتى ، انا صباح .

اشاحت الصبية بوجهها عنها غاضبة . هؤلاء الأغراب تأتى من ورائهم المصائب ، قبض على والدها بسببهم ، قالت لها ثانية :

ــ انا صباح يابهية .

الصبية لا تصدقها . صباح فلاحة . وهذه المراة تلبس ملابس البندر . بنت عز وتشبه الأميرة جويدان . وتاملتها الصبية ثم جرت عليها قائلة :

ــ خالة صباح !

وتعلقت بها بايديه ، وهى تصيح :

ــ ابى ، اين هو ؟!

خرجت نفوسة بنت الشامى على الضجة . هرعت الى صـباح تحتضنها : ياحبة عينى ، دكتوره والنبى ! اميرة ! منذ وقعت عيناها عليها قال لها قلبها : هذه الشابة هانم من هوانم البندر وليســت فلاحة من غيط العنب . صدق حدسها . تعالى ، الفضلى ، بيتك ! وابت نفوسة بنت الشامى ان تدعها تجلس على الأرض . قالت لها ضاحكة : عيب ياضناى !!

. وضعت ملاءة نظيفة على كرسى خيزران وقدمته لها قائلة :
ــ اتفضلى يا اختى !
يحطن بها . جلست بينهن أمام الفرن . قرصت العجين . دفعت به فى الفرن ، وحرقت الخبيز عدة مرات ولفحها صهد النيران فى وجهها أحرق . ها هى بينهن هذه المرة ، لكنها لا تشاركهن جلستهن على الأرض ولا تفتح فخذيها وتنزل بهما الى الأرض .
الفرحة فى أعينهن ، لكنها فرحة ناقصة لغيبة عباس ابو حميدة . كيف توضح لهن أن حركة الجيش قد أفرجت عن معظم المعتقلين فيما عدا مجموعة صغيرة من ضمنها عباس أبو حميدة ؟!
بهية تنظر اليها نظرات قاسية . تلومها . معها حق . نفوسة بنت الشامى ترحب بها . قالت امرأة لها :
ــ فرحتنا بحركة الجيش ما تمت وعباس ابو حميدة غائب عن العزبة .
معهن كل الحق . قالت لهن :
ــ هذه سياسة . عباس أبو حميدة سوف يفرج عنه قريبا .
متعلمة وتعرف تقود سيارة مثل الرجال . ابنة باشا . قلن فى صوت واحد يسألنها فى لهفة :
ــ متى ؟! متى ؟!
قالت لهن :
ــ خلال عدة أيام .
الدكتورة أوديت لا تكذب . اخبرها الرفاق أمس أن آخر مجموعة سوف يفرج عنها قبل نهاية الأسبوع . بشرة خير . أميرة . قامت نفوسة بنت الشامى تزغرد . يضايقها بقاء زوجها فى المعتقل وقد قضى سنوات عمره فى معارضة الملك والتنديد بسياسة الباشوات وفضحهم . كان من الواجب الافراج عنه ليلة القبض على اللواء عويس باشا وصحبه . هذه فزورة . لغز . يقبض على اللواء عويس ويظل عباس أبو حميدة فى المعتقل . لماذا ؟! تزغرد من فمها فقط وما فى القلب فى القلب !
أبدت الدكتورة أوديت رغبتها فى رؤية أم حبيبة لتعزيتها ، فترددت النسوة ، قلن لها !
ــ أم حبيبة لا تتقبل العزاء قبل دفن زوجها .
نعم . كرامة الميت دفنه ، وقد دفنته حكومة على ماهر باشا السابقة سرا فى مكان مجهول . لكنها التقاليد . واحست الدكتورة

أوديت بغصة فى حلقها . لا احد يرعاها من الرفاق . عكاشة يستحق اقامة تمثال له فى مديرية الجيزة . قامت حركة الجيش وطردت الملك وأحزان القرية كما هي . أم حبيبة تنتظر دفن جثمان الشـــهيد ونفوسة بنت الشامى وبهية تنتظران عودة عباس ابو حميـــدة . سالتها فلاحة وهى خائفة :

ـ حقيقة يادكتورة ألوصى على العرش ابن خديو سابق ؟

فوجئت الدكتورة أوديت بالسؤال ، فقالت لها نفوسة موضحة :

ـ الأمير عبد المنعم ابن عباس حلمى قريب الأميرة شويكار زوجة اللواء عويس .

تنهدت الدكتورة أوديت قائلة :

ـ آه . فهمت .

قالت واحدة من الفلاحات ألجالسات على الأرض :

ـ يادار ما دخلك شر ! زيتنا فى دقيقنا ! سافر ملك وجاء ابن خديو سابق !!

اين عباس ابو حميدة ليسمع محاكمة الفلاحات لحركة الجيش ؟!

قالت الدكتورة أوديت :

ـ طرد الملك خطوة كبيرة . والخطوة الجاية تحـــديد الملكية وتوزيع الأرض على الفلاحين .

قالت احدى الفلاحات غاضبة :

ـ ناخد أرض اللواء عويس ليضربنا الوصى بالنار ؟!

لا شيء تغير !! هذا ظاهر الاشـــياء . العجلة دارت . لن تدافع عن حركة الجيش . لتستمع اليهن . هذا الشعب يحتفظ بحكمته من جيل الى جيل . صراع بين الرفاق يكاد يودى بالحركة وقد انقسمت على نفسها بين مؤيد لحركة الجيش وبين معارض لها . سرق العسكر نضال الناس . بينهن أدركت أن الفريق الذى يدين العسكر ليس مخطئا تماما . اين انت ياكمال لتسمع باذنك ؟!

لطرف . احست الدكتورة بحيرة هائلة . صدق هؤلاء النسوة ليس فى حاجة الى دليل . وندمت لتاييدها هذه الحركة دون قيـــد أو شرط وعلى اسهامها فى طبع المنشـــورات فى اليـــوم الاول للحركة . كان يجب التريث .

جاءت بسلامة نية اليهن ، فامطرونها بسهامهن . سمعت سيدة رفيعة سفروتة تهمس فى أذن جارتها :

ـ بنت باشا . لا تعرف النار التي نحن فيها !!

كادت تفقد أعصابها . قالت نفوسة لهن غاضبة :

ـ الدكتورة منا وعلينا . ليست وصية على العرش ولا رئيسة وزراء .

ما من مرة في شبابها دخلت الى القصر المبنى الا وخرجت محملة بالهموم والذنوب . نظراتهن سهام ، وكلماتهن رغم غموضها طعنات خناجر . اغرقت نفسها فى العمل السياسى لتهرب من هذه النظرات ، وها هى النظرات تتابعها . النسوة اللاتى جلسن معهن على الارض واكلت معهن بيدها يرفضنها .

طباعة المنشورات وتوزيعها أسهل كثيراً عليها من الحديث الى هؤلاء النسوة . تود الحديث الى نفوسة على انفراد . دارت كاسات الشاى والقهوة . وبدأت النسوة فى الانسحاب .

علمت زهية بوجود الدكتورة أوديت فى العزبة ، فقالت لنفسها : جاء الفرج يا بنت . وهرولت الى دار عباس أبو حمادة . قلبها يقول لها انقاذ حياتها وحياة جنينها على يديها . فى دار عباس أبو حميدة توسلت بعينيها الى نفوسة بنت الشامى أن تدع الدكتورة أوديت تكشف عليها على انفراد . قالت لها : استرينى . فضربت نفوسة بنت الشامى على صدرها قائلة : ياحبة عينى ! بيتك !

الدكتورة أوديت ساخطة . ساخرة . الاغنية تقول : ما أحلاها عيشة الفلاح ، حرية وارض براح . بينما الضيق يخنقها فى عزبة عويس . الدور ضيقة . الأزقة ضيقة . ولما طلبت منها نفوسة بنت الشامى توقيع الكشف على زهية : تضايقت .

غرفة ضيقة كانت تنعس فيها مع بهية ، بها سرير ودولاب وخزين الدار . وهاهى زهية تقف امامها . نفسها فى نفسها من ضيق الغرفة . اذا مدت يدها اصطدمت بالدولاب . تاملتها الدكتورة أوديت . اعراض الحمل ظاهرة . وصحتها جيدة . سالتها :

ـ متزوجة ؟!

انسالت دمعة على خد زهية . مسحتها وقالت :

ـ لا !!

قالت الدكتورة أوديت :

ـ اكشف .

لم تكن الدكتورة اوديت فى حاجة الى توقيع الكشف عليها لتتأكد . بعد الكشف قالت لها :

ـ الحمل فى الشهر السادس او بداية السابع . الجنين بصحة جيدة .

رفعت زهية سروالها ، وانحنت على يديها تقبلهما . قالت لها الدكتورة :

ـ اسقاط الجنين خطر .

افصحت زهية عن نيتها فى كلمات مقتضبة شجاعة . قالت لها انها لا تود اسقاط الجنين مهما كان الثمن . شجاعة . وضعت الطبيبة يدها عليها تشجعها على الحديث ولا تسالها شيئا ، فهذه أمور تخصها وحدها . احست زهية بلمسة حنان . امراة تستمع اليها لأول مرة . ضيق الغرفة وحد بينهما . اطلعتها على أحلامها . افصحت لها عن مناجاتها له : أسمه محمد نجيب . أبوه تلميذ . جلده الباشا مائة جلدة على ظهره بالسوط . انكسرت نفسه ياروحى . هزل . أخذته فى حضنى مرة واحدة . دخل بى . حملت من مرة واحدة . قوتك يارب ! ابنى . لا يهون على أسقطه . ليس أبن حرام . أبوه على وش الدنيا ولكن تلميذ ياندامتي !!

انسالت الدموع غزيرة من عينيها . نهنهت وهى تكمل :

ـ قلبه متعلق بغيرى ، غلطتى وحدى !!

شابة طعنت فى حبها وزادت الظروف من تعاستها . سالتها عن سر اختيارها لاسم محمد نجيب . اجابتها زهية قائلة :

ـ سوف ينتقم لى من عويس باشا والأميرة شـــويكار والأميرة جويدان .

فضولها يدفعها للسؤال عن التلميذ الذى ارتكب حماقته ورفض تحمل المسئولية وترك هذه الشابة تواجه ظروف الزمن بمفـــردها ؟! هه . ساندرا أخرى ، لكن ســـندرا ستروهولم من عالم آخر . تقرأ الديمقراطية والهيروغليفية ومهنتهـا التفتيش فى ثنايا التـاريخ ، أما زهية ، فلا تقرأ شيئا ، ومهنتها خادمة أو عاملة تراحيل فى الحقـول ، وتكتسب قوتها من عملها بيديها .

الهرب أو الموت امامك يازهية ! وقالت الشابة :

ـ تاخذينى معك . خادمتك !

سالتها أوديت قائلة :

ـ تشتغلى فى العيادة ؟!

اجابت زهية وهى تبكى من الفرح :

ـ خادمتك !

قالت لها أوديت : انتظرينى على الطريق قبـل قصر عويس باشا . وللمت زهية طرف جلابيتها ، وهرعت خارجة وهى لا تصـــدق اذنيها . فتحت لها أبواب السماء . الخدمة فى عيادة الدكتورة صباح اشرف عندها من الخدمة فى قصر الباشا . ضحكت عليها زبيـــدة تمورجى كالفة ووعدتها بمساعدة الأميرة شويكار لها . لكن الأميرة نظرت اليها وامرت بطردها من القصر .

ومن على الطريق المعبد التقطت الدكتورة أوديت زهيـــة فى سيارتها ، جلست الى جوارها فى المقدمة تنظر الى الخلف وتتـأمل العزبة . اجتازت السيارة حدائق المانجو فالتفتت زهية الى الشجرة المقابلة للقصر من الناحية الغربية ، فوجدت كرامة جالساً بين فروعها فى الظل وراسه يتجه الى شرفة الاميرة جويدان . اشارت عليه بيدها قائلة :

ــ أب ابنى ، كرامة .

هدات الدكتورة أوديت من سرعة السيارة ، وسالتها :

ــ تتكلمين معه ؟! انتظرك .

خفضت زهية راسها ، واشاحت براسها الى الجهة الاخـرى باكية ، وبصوت خفيض قالت لها :

ــ قلبه متعلق بالأميرة جويدان .

فانطلقت الدكتورة أوديت بالسيارة على الطريق المعبد بعيـدا عن العزبة قائلة لها فى حنان :

ــ فهمت .

بعد فترة قالت لها الدكتورة أوديت ، وكانت العربة قد ابتعدت بهما عن عزبة عويس ، فى طريقها الى الجيزة :

ــ على فكرة يازهية أنا اسمى أوديت .

قالت لها زهية وهى سارحة :

ــ أعرف . الدكتورة أوديت السيد احمد باشا .

نظرت اليها أوديت فى دهشة . واحست زهية بالندم لاندفاعها . وقررت مصارحتها بأن نسوة العزبة رأين الصور المنشورة لهـــا فى الصحف وعرفن أسمها ، وكتمن السر .

قالت الدكتورة أوديت لنفسها :

كانت خطة بارعة من اللواء محمد ابراهيم امام للقبض عليها . قال لوالدها انه يتوقع القبض عليها بعد نشر الصورة بعدة ساعات ، فنقطة ضعفها هى حب الخدمة العامة وانها لن تتورع عن معـــاونة مريض أو القيام بعملية ولادة فتكشف عن نفسها . هاهى خطتــــه فشلت وقد خيبت نسوة عزبة عويس آماله ، وانقذتها الصدفة من الاعتقال بتعرفها على السيدة ستروهولم داخل الصيدلية واتاحتهـا لها فرصة الاختباء داخل السفارة السويدية . وقالت لنفسها وهى تتامل زهية :

ــ الأيام القادمة اشد وعورة .

القى اليوزباشى أنور عرفة القبض على عباس ابو حميدة . هاجم العزبة فى الليل بقوات الشرطة العسكرية والسيارات المصفحة . سأله عباس أبو حميدة قائلا :

– لماذا هذه الضجة ؟! كنت طلبتنى وجئت اليك .

وبعدها قال فى هدوء :

– يانفوسة . بقجة الملابس .

فتش اليوزباشى الدار غرفة غرفة بالكلاب البوليسية . قال له عباس :

– جئت متاخرا .

وبعدها قال لنفسه نادما :

– لا شىء .

افرج عنه منذ اسبوعين وها هو يقبض عليه ثانية لكن بواسطة قوات الجيش هذه المرة . ترقية ياعباس ، يقبض عليك مثل رؤساء الوزارات والضباط الكبار . السياسى المحترف الذى جرب المعتقلات لا يسأل ولا يناقش من يقبض عليه فيزيد من توتره ، فعادة ، هؤلاء الضباط يؤدون مهمة لا يعرفون شيئا عنها .

من اللحظات الأولى ادرك عباس ابو حميدة أن حضرة اليوزباشى ليست له خبرة فى التفتيش واجراءات القبض وانه على استعداد لاستخدام سلاحه عند أول بادرة فقرر عدم استثارته .

هذه هى آخر مهمة يؤديها اليوزباشى انور عرفة قبل سفره الى الولايات المتحدة الأمريكية فى بعثة فى فنون القبض والتفتيش وتسجيل الاعترافات فى كامب جوردون بولاية جورجيا لمدة أربعة اشهر .

ناوله قائده منشورا يندد بتصرفات الحركة ويشيد بعمال كفر الدوار ويطالب الجيش بالعودة الى الثكنات .

سأله بعدها سؤالا محددا :

ـ هل طبع هذا المنشور على ذات الطباعة التى طبعت بهـــا منشورات الضباط الأحرار ؟!

وقادته تحرياته الى عباس ابو حميدة والدكتورة اوديت السيد أحمد كزعيمين للمجوعة المعارضة ٠

قبض اليوزباشى أنور عرفة على عشرات من الباشاوات السابقين وعلى اثنين من رؤســـاء الوزارات ، وعلى أمراء من العائله المالكة ، ولم يصادفه معتقل له ثبات عباس أبو حميدة .



(٣٩)

فشلت كل الوسائل التى اتبعها اليوزباشى انور عرفة فى دفع عباس ابو حميدة الى الكلام « هذه ماموريته الأخيرة قبل سفره الى امريكا » ولجأ الى العنف .

اعد طابورا مسلحا لضرب النار فى صحراء مصر جديدة ، وطلب من عباس أبو حميدة أن يسير عدة خطوات ، وانطلقت حوله الأعيرة النارية من كل جانب ، وعباس ابو حميدة يتابع سيره فى ثبات وثقة ، وبعدها التفت اليه قائلا :

ـ ياعرفة بك . انت لن تقتلنى وانا لن اعترف ...

رقم الايداع : ٤٩٥٣/ ١٩٩٠

تنـــويه

الاشعار المأخوذة من التراث الشعبى والواردة فى هـــذه الرواية منقولة عن مقدمة كتاب « دماء وطين » للاستاذ يحيى حقى وكذلك رواية « الرحلة » للاستاذ فكرى الخولى ٠

كما استفاد الكاتب من ترجمة الدكتور سمير سرحان لعدة أبيـات من قصيدتين لاليوت ٠

ويود الكاتب بهذه المناسبة الاشارة الى المؤرخين الذين كتبـوا عن حريق القاهرة وثورة يوليو ٥٢ وتطور الحركة الوطنية فى تلك الفترة واستفاد منهم الكاتب ويخص بالذكر الاستاذ أحمد حمروش والاستاذ جمال الشرقاوى والدكتور رفعت السعيد والاســـتاذ طارق البشرى والاستاذ صلاح عيسى ٠

أما دراسات الاستاذ محمد حسنين هيكل الوثائقية للثورة ورجالها والظروف المحيطة بها والتى يطلق عليها تواضعا قراءة للتاريخ فهيـا معين لا ينضب للروائى ٠

روايات الهلال تقدم :

إنســــــان

تأليف
أوريانا فالاتش

ترجمة
محمود مسعود

تصدر : ١٥ أغسطس سنة ١٩٩٠

هــذه الــروايــة

١٩٥٢ ، الرواية الموحية العنوان ، هى رابعة روايات جميل عطية ابراهيم التى تأتى بعد روايته "النزول الى البحر" ، التى أثارت جدلا واسع النطاق بين النقاد والقراء لتبرز موهبة الكاتب فى أروع صورها ، فهو يقدم لنا بانوراما للمجتمع المصرى بأكمله فى تلك السنة الحاسمة من تاريخه : تتجول عدسة الكاتب الفاحصة من قصور الأسرة المالكة والباشوات الى بيوت العمدة والفلاحين فى عزبة عويس الى أروقة جامعة فؤاد والجامعة الأمريكية ، ودهاليز العمل السياسى العلنى والسرى . وتتوقف هذه العدسة لتقدم لنا لقطات مكبرة لأبطال تلك السنة وذلك العصر ، ويسلط الروائى الضوء الكاشف على جوانب العظمة والخسة فى شخصياته على السواء ، بدقة لاترحم ، ولكن دون أن ينزلق الى السخرية أو الوعظ .

وينفرد الكاتب بأسلوب خاص بين أبناء جيله الروائيين ، فهو يحكى بأسلوب يجمع بين براءة حديث الطفل ومكر الكاتب المجرب فى تلقائية لايبدو فيها تصنع أو أفتعال . وبهذا الأسلوب ترسخ فى ذهن القارىء حشد من الشخصيات التى يعيش القارىء تفاعل الأحداث فيما بينها دون لحظة من الملل ، حتى ليبدو لنا فى آخر صفحة من الرواية أن تلك الشخصيات لاتودعنا ، بل تلوح لنا الى لقاء قريب



جميل عطية ابراهيم

- من مواليد الجيزة فى ٧ أغسطس ١٩٣٧
- يكتب الرواية والقصة القصيرة . من أهم أعماله : "الحداد يليق بالاصدقاء" وروايات منها : "اصيلا" "البحر ليس بملآن" ، "النزول الى البحر"
- ينتمى الى جيل الستينات . فقد اسهم فى تاسيس مجلة "جاليرى ٦٨"
- نشرت أقاصيصه فى العديد من المجلات الثقافية العربية
- يقيم فى لوزان بسويسرا منذ عدة سنوات
- كتب عنه الناقد الراحل د . عبد المحسن بدر "أنه يملك موهبة أكتشاف الجديد وغير العادى فى العالم العادى المألوف" .



الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة

** شهر أغسطس 2017 **

www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

